مَاريز كونْدي

مكتبة

في انتظار الطُّوفان

رواية

ترجمة : مَعن عاقِل

دار الآداب

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

في انتظار الطوفان

في انتظار الطوفان

ماريز كوندي / كاتبة من جزر غوادولوب

الطبعة الأولى عام 2021
EN ATTENDANT LA MONTÉE DES EAUX
Maryse Condé

© 2010 by Editions Jean-Claude Lattès

ISBN 978-9953-89-698-4

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Daraladab

@Daraladab

daraladab.com

ماريز كوندي

مكتبة
t.me/soramnqraa

في انتظار الطوفان

ترجمة: معن عاقل

رواية

دار الآداب ـ بيروت

هذه الحكاية هي من محض خيال، حتى لو بدت بعض أحداثها مستوحاةً من الواقع السياسيّ والطبيعيّ. كُتِبَتْ لأولئك الذين سيسعدونني بتقليب هذه الصفحات، رجالًا ونساءً.

إلى سيرينا وماهيلي

اللتيْن لم تعرفا القراءة بعد..

«الله ليس مضطرًّا. . .»

أمادو كوروما

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتقل باباكار من دفء النوم إلى صخب ليلٍ عاصف، وهوى، مُصابًا بالدوار، ومحتجزًا في الضجيج. كان الرعد يدوِّي. وصفائح السقف تُصدر صريرًا. وأغصان الأشجار تتقصَّف قبل أن ترتطم بالأرض، بينما تتساقط ثمارُ المنغا بغزارة مثل صخور. خلال نومه، رأى أمّه مبتسمةً ومشرقة، وعيناها بلون زهرتيْن زرقاويْن زاهيتيْن ونضرتيْن كأنَّها، وسط فوضى الأشياء، أحضرت غصنَ زيتون. جاءت تخبره أنَّ صفحات الحِداد السوداء طُويتْ، وأنَّ الأمل بالسعادة لاح أخيرًا.

كانت ساعة الحائط تُشير إلى الحادية عشرة والربع ليلًا. فكَّر في الرجال الذين يحتسون هذه اللحظةَ شرابَ الروم الزراعيّ، ويلعبون النرد أو الدومينو، ويداعبون الصدور الناهدة لنساءٍ مستعدَّات للمضاجعة. بينما هو، ينام الآن مرتديًا منامةً قطنيَّة مقلَّمة.

لم يفهم أحد شيئًا على الإطلاق في تلك الشتويَّة. كان يُفترض بها أن تنتهي منذ أسابيع. لكنَّ المطر لم ينفكّ يسوط الطبيعة بعنف، ويجعل الوديان الأكثر عمقًا تفيض. وهو يرتعش من الرطوبة، ارتدى باباكار مئزر الحمَّام، وانسلَّ بسرعةٍ على قدميْه الحافيتيْن عبر العديد من حجرات ڤيلّاه المفروشة بلا ذوق. تُعَبِّرُ البيوت عن نفسها على طريقتها. وكان هذا البيت يُعبِّر عن عُزلةٍ وإقصاء. في المطبخ، صبَّ لنفسه كأسًا من الحليب وشربه على عجل، فلطَّخ ذقنه. لم يشرب الكحول في حياته، ليس بسبب الدين، إنَّما لأنَّه يسبِّب له حموضةً تُضاف إلى طعم حياته المنفِّر.

كان يملأ كأسه الثانية حين رنَّ جرس المدخل رنينًا لحوحًا، تضغط عليه يدٌ محمومة.

خرج باباكار إلى الرواق. ورغم المطر، اجتاز المرج راكضًا، وقدماه الحافيتان تغوصان في الطين وتُنْتَزَعَان منه مصدرتيْن نشيشًا. ثمَّة رجلٌ يقف خلف سياج البوَّابة، محتميًا بورقة شجرة موز. كان شابًّا، وسيمًا، خائفًا، أسود البشرة، أسود فاحمًا؛ يرتدي أسمالًا بالية، وينتعل خفًّا أحمر يمتصّ المياهَ من كلّ الجوانب. من الواضح أنَّه هاييتي الجنسيَّة، من أولئك الهاييتيِّين الذين لا يُحصون في المنطقة، على الرَّغم من ضراوة الشرطة المتزايدة في اعتقالهم وترحيلهم إلى الحدود. قال متلعثمًا:

ـ جئتُ *الآن*. ستموت!

لم يخطئ باباكار: تَعَرَّفَ على اللغة الكريوليَّة الهاييتيَّة التي لم يكن يفهمها أكثر من اللغة الغوادولوبيَّة، فسأل بالفرنسيَّة:

ـ من تقصد؟ إحدى مريضاتي؟

ردَّد الرجل بصوتٍ أعلى:

ـ *ستموت!*

عاد باباكار إلى داخل المنزل ليرتدي ملابسه ويأخذ حقيبة أدواته، ثم التحق بالهاييتيّ الذي جثا في ركنٍ من المرآب ورأسه بين يديْه. استقلَّا سيَّارة مرسيدس قديمة اشتراها بسعرٍ بخس من بائع سيَّارات مستعملة، عاد إلى أنغوليم وأبرم عقدها. كانت ليلةً ليلاء، لا يمكن أن يحدث فيها إلَّا ما هو غريبٌ أو غير مألوف. لا بدَّ أنَّ الله خلق الإنسان في ليلةٍ شبيهةٍ بها مع كلّ ما تمخَّض عن ذلك من خيبات.

وبعد منعطف، دخلا قريةً صغيرةً متوارية تحت غطاءٍ أخضر كثيف.

ـ *لقد وصلنا*، قال الهاييتيّ.

وأشار إلى كوخٍ متوارٍ في أيكةٍ جميلة من أشجار الأبنوس المنتصبة باستقامة مثل حرف الألف. كان رجلٌ مسنّ، شعره رماديّ، وامرأةٌ بدينة، يقفان أمام باب المدخل وهما يبكيان. ومع اقترابهما، قال الرجل وهو يرسم علامة الصليب:

ـ *لقد رحلتْ، يا موڤار. لم يعد مهمًّا...*

ورسم شارة الصليب من جديد، بينما تضاعف نحيب المرأة، وأجهش الشابّ الهاييتيّ في البكاء بدوره.

ـ لم تعد تُعاني، استنتج الرجل وهو يحدِّق في باباكار بهيئةٍ مسرحيَّة. . .

ظنَّ باباكار أنَّه تعرَّف إلى هذا الزنجيّ الوقور، المرتدي بأناقة بزَّةً بالية كانت دارجة قبل الحرب. مدَّ الآخر يده مصافحًا:

ـ دكتور، أنا سيبريان أريستوفان، مدير مدرسة البلدة بييربون الثالث.

وقدَّم مرافقيْه:

ـ هي إيفوليز دانتي؛ وهو موڤار بومبيليوز، هاييتيّ مثل المرحومة رينيت أوفيد.

وفجأةً، استأنف باللغة الكريوليَّة:

ـ *انهض يا موڤار.*

في الحقيقة، بدا البائسُ على وشك الغرق في سبات، بعد أن تهالك على الأرض. تعاطف باباكار مع حزنه. كان يعرف من تجربته ما يعنيه أن يفقد المرء شخصًا عزيزًا عليه!

دلف إلى داخل البيت.

إنَّه أمرٌ معروف، تبدأ الحياة بمجزرة. لكنَّ تلك المجزرة كانت دمويَّة للغاية. كأنَّ المتوفَّاة واجهت عدوًّا أقوى منها بكثير. وفي خضمّ صراعٍ غير متكافئ، نزفت كلّ دمها. اصطبغت الوسائد والأغطية والفراش باللون الأحمر. وثمَّة مناشفُ إسفنجيَّة أُلقيت على الأرض أو لُفَّتْ في طشت النفاس. وطفت رائحة واخزة فوق المذبحة. اقترب باباكار من السرير، وتوقَّف مذهولًا. ما من شكّ: هذه المرأة التي حصدها الموت للتوّ، سبق أن رآها

قبل بضعة أيَّام في المستوصف. كان قد لاحظها، ليس بسبب جمالها وحسب، وإنَّما لمظهرها غير المعتاد والمدهش لدى شخصيَّة ضئيلة الحجم إلى هذا الحدّ. خال أنَّها بُنيَّة صغيرة. كانت عيناها اللامعتان ساخرتيْن. وفمها مزموم، مجبول على التهكُّم والقبلة المغامرة. كان انتفاخ بطنها يرفع مقدِّمة تنُّورتها أكثر من عشرين سنتيمترًا، كاشفًا عن ساقيْن ناعمتيْن وصلبتيْن، منتهيتَيْن بكاحليْن ناعميْن وقدميْن صغيرتيْن تنتعلان حذاءً فخمًا ماركة نايكي. ورغم هذا اللباس الخشن، كانت تشعّ سحرًا. وقد عزَّزت نظرتَها بالغطرسة والغرور، كأنَّها تعني: «ما بالك تحدِّق بي هكذا، يا سيِّدي الوسيم؟ أنت تضيِّع جهدك سدًى. فأنا لست لك».

شعر باباكار بالاضطراب، ليس بسبب هذا الصدّ الصامت، وإنَّما بسبب المشاعر التي اعتملت في نفسه. لأوَّل مرَّة، خان أزيليا. لقد رغب وحلم، ولو للحظة، بمضاجعة امرأةٍ غيرها. غضَّ بصره خجلًا، وتراجع.

وها هو يعثر من جديد على هذه المرأة ميِّتة، هي أيضًا... دومًا هذه الدورات الغاشمة لِقَدَرٍ أقسم على ألَّا يدعه بسلام! وهو يُعاين الجسدَ عن كثب، لاحظ أنَّ أصابع يدها اليمنى ملتوية، ومكسورة، وإحداها مقتلعة. اكتشف على مرفق ذراعها الأيسر أثرًا قبيحًا يشبه عضَّة. والعضَّة ذاتها مطبوعةٌ على أسفل عنقها. كان كلّ ذلك غريبًا. ألا يُفترض به أن يطلب تشريح الجثَّة؟

رسمت إيفوليز من جديد شارةَ الصليب وجثتْ على ركبتيْها إلى جانبه، وبدت لها شكوكه سخيفة. راحت إيفوليز الآن تمسح

الدم المتخثِّر الذي يغطِّي المولودة الجديدة التي لم يهتمّ بها أحدٌ حتى ذلك الحين. لم تبدُ مذعورةً من العالم الذي هبطت فجأةً فيه. إنَّها طفلةٌ جميلةٌ، جميلة جدًّا، مثلَّث فرجها مقبَّب، وممتلئ بين فخذيْها السمينيْن.

ـ من هو الأب؟ سأل باباكار وهو ينهض ويقترب من أريستوفان. هو؟ موقار؟

هزّ أريستوفان رأسه، وأجاب بصوتٍ خفيض:

ـ لا! إنَّها قصَّة معقَّدة للغاية. لا بدَّ أنَّ الأب بقي في هاييتي. أمَّا رينيت، فقد وصلت وهي حُبلى منذ بضعة أشهر. ورغم بطنها، راح موقار يعاشرها. ويبدو أنَّهما سافرا على متن القارب نفسه. عمل كلاهما في المزرعة النموذجيَّة التي لم تكن تشغِّل إلَّا هاييتيّين لا يحملون أوراقًا ثبوتيَّة، ومهاجرين غير شرعيِّين، وخلافه. يدهشني أنَّ المستوصف اعتنى بها مع ذلك. والبلديَّة أيضًا، كانت تتقاضى استحقاقات الأمومة، كما تعرف.

كانت اللهجة ساخطة. ألا يسجنون جميع الأجنبيَّات غير الشرعيَّات الوافدات لتلقِّي رعاية طبِّيَّة مجَّانيَّة! انحنى باباكار من جديد فوق المولودة الجديدة. لم يشوِّهها هذا العبور الرهيب. كانت فعلًا رائعة، وجنتاها متورِّدتان، ويغطِّي جمجمتها زغبٌ أسود سميك. داعب بحنانٍ يدها الصغيرة، ففتحت الطفلة عينيْها.

في تلك اللحظة، بدأ كلّ شيء. لأنَّها بدت تحدِّق فيه، انبثقت فيه عاطفةٌ مؤثِّرة، بينما التمعت فكرةٌ في ذهنه. لم تكن مجرَّد صدفةٍ أنَّهم استدعوه ليكون قرب رينيت!

ـ من سيتكفَّل بالطفلة؟ سأل بصوتٍ متلهِّف.

هزَّ أريستوفان رأسه:

ـ بعمله البائس في المزرعة النموذجيَّة، أرى عسرًا أن يُطعم موفار فمًا إضافيًّا. ستتكفَّل إيفوليز بها، بلا شكّ. سبق أن كانت أمًّا لِعُرٍّ من الأولاد. ستَّة أو سبعة، لم أعد أدري! كلّ واحد من أب مختلف، طبعًا. ابن زائد أو ابن ناقص، لن يغيِّر في الأمر شيئًا.

هذه المرَّة أيضًا، كانت لهجة الاستنكار جليَّةً. أريستوفان نفسه، يرفض هذه الطريقة. كان رجلًا محترمًا يصوِّت لصالح اليمين، ومتزوِّجًا بشكلٍ شرعيّ من ممرِّضة تمتلك عيادةً صغيرة في البلدة، ودرَّاجة عاديَّة تستقلُّها لتقدِّم العناية الطبِّيَّة في المنازل.

«إنَّها لي. وُلِدَتْ من أجلي»، أدرك باباكار فجأةً، وقد استولى عليه هذا اليقين.

الفكرة التي لمعت بخجل في ذهنه، انفجرت.

ـ سآخذها معي، قال بتصميم. حين أقصد البلديَّة، صباح الغد، من أجل شهادة وفاة أمّها، سأهتمّ بحالتها المدنيَّة. وسأقوم بالضروريّ.

ـ وما الضروريّ؟ سأل أريستوفان وظهره المحنيّ بشكلٍ عامّ ينتصب أمام من يعتبرهم أهمّ منه. ستأخذها؟ ماذا تعني بذلك؟

لم يرغب باباكار فعلًا أن يقول المزيد، فقد عقد الحماس لسانه. ها هي طفلته التي بحث عنها بلا جدوى قد رُدَّتْ إليه. تكمن المعجزة في أنَّ أمّها، المشرقة، جاءت تتنبَّأ له في الحلم!

رتَّلت روحها تسبيحة البتول، الجديرة بالموسيقار يوهان سباستيان باخ. وهو من لم يُقِم صلاةً منذ سنوات، ومن أصبح قلبه ميِّتًا، حاول أن ينحني شكرًا لله.

ـ هل تُريد أن تتبنَّاها؟ ألحَّ أريستوفان، بعدائيَّةٍ متزايدة.

ـ هذا صحيح! قال باباكار ليتخلَّص من الإلحاح.

ـ نحن لسنا. . . في دارفور هنا! اعترض الآخر، مُهانًا، كأنَّ القضيَّة تمسّ شرفه. إنَّنا في غوادلوب. الأمور لا تجري هكذا! غوادلوب، يعني مثل فرنسا. لدينا قوانين. لا يتبنَّى أحدٌ طفلة بهذه الطريقة. يقدِّم طلبًا، ويوضع اسمه على لائحة، وينتظر دوره.

لم يعد باباكار يستمع إليه. راح يلفّ الطفلة بمنشفة إسفنجيَّة، لأنَّه لم يجد ما هو أكثر دفئًا، لا قماشًا صوفيًّا، ولا غطاءً، ولأنَّ الهواء الليليّ باردٌ على من هبطت من دفء الرَّحم. نهض، بينما طفقت إيفوليز تحدِّق فيه، فاغرةً فمها.

ـ خذي هذا، تمتم وهو يدسّ في راحة يدها بضع أوراق نقديَّة، ولم يكن مبلغًا كبيرًا، كان كلَّ ما يحمل في جيبه. وإذا احتجتِ أكثر من أجل الدفن أو أيّ شيء آخر، تعرفين أين تجدينني. هل تعرفين عيادتي؟ في الغراندرو في البلدة، أو أيضًا في مكتبي في المستوصف.

أومأت له إيماءة تأكيد، بينما لم يعترض موڤار هو أيضًا. ودون أن يصافح أحدًا، انسلّ باباكار هاربًا مثل لصٍّ.

في الخارج، كانت الريح الهوجاء تهزّ رؤوسَ أشجار

الأبنوس، وتكنس الغيوم. وهذه علامة تشي أنَّ المطر سيتوقَّف ويظهر في مكانٍ آخر، في جهة الدومينيكان مثلًا. وضع باباكار حِمْله الثمين على المقعد الخلفيّ للسيَّارة. كان يغمره فرحٌ محموم يجعل يديْه خرقاويْن. شارف أخيرًا على نهاية محنته. استردَّ عافيته، وفي الوقت ذاته، أسبغ مبرِّرًا على وجوده في الحياة. وعلى ضوء سقف السيَّارة الشاحب، قرأ بصعوبة دفتر الصحَّة، وثيقة الهويَّة الوحيدة التي حازت عليها رينيت، كما يبدو.

مركز رعاية الأمومة والطفولة

الاسم: رينيت أوفيد.

الجنس: أنثى.

تاريخ الولادة: 6 حزيران 1980.

الجنسيَّة: هاييتيَّة.

الوزن: 50 كيلو.

الطول: 1 متر 85 سم.

زمرة الدم: A.

قلَّب الصفحات بحميَّة. كانت جميع الفحوص الطبِّيَّة التي أجرتها سلبيَّة. لا سيدا، ولا سلّ، ولا مرض الزلال، ولا كوليسترول. ولا أيّ مظهر من مظاهر المرض. كانت تبدو معافاة. ومع ذلك، انطفأت مثل شمعدانٍ في غمضة عين. أيّ مرضٍ غامضٍ كان يختفي وراء مظهر الفتوَّة والصحَّة؟ لكنْ لا شيء مستغرب في هذا، لأنَّ الموت ينتصر على الحياة باستمرار.

وبينما كان يتأهَّب للرجوع بسيَّارته إلى الوراء، لاحظ أنَّ موقار الواقف في الرُّواق ينظر إليه. لوَّح له مودِّعًا، فلم يردّ هذا الجلف على تحيَّة وداعه. ولمَّا وصل إلى الطريق الرئيسيَّة، اندفع مباشرة إلى الأمام.

من سوء حظِّ المرأة أنَّ عليها أن تقدِّم براهين على أمومتها. وهي مضطرَّة أن تُظهر بطنها، لمدَّة تسعة أشهر، باديًا للعيان على مرأى من الجميع. ويكمن تفوُّق الرجل في أنَّه صاحب بذرته يزرعهاأنَّى شاء. وسيكون خبيثًا للغاية من يسعه أن يؤكِّد أنَّه لم يعاشر رينيت، ولو لليلة واحدة! ووقحًا للغاية من ينفي كلام طبيبها ويؤكِّد أنَّ الطفلة وُلدت في أوانها أم لا.

اجتاز باباكار الخمسة عشر كيلومترًا بسرعة فائقة، كلّ المنحنى الذي يفصله عن منزله. وحين ظهر له غارقًا في الظلام، بدا له مقفرًا، وحتى مشؤومًا. وليس مناسبًا البتَّة لإيواء رضيعة عثر عليها بأعجوبة. منزلٌ بَنَته شركة سوجيما: عبارة نحن لا نعرف، كانت تكذِّب الإعلان على امتداد الطرقات العاديَّة والسريعة. فقد شُيِّدَ بأسلوبٍ تقليديٍّ خاطئ يستبدل الخشب، خشب البقم، وخشب حشيشة الملاك أو الشمال، بالإسمنت المسلَّح. لم تعد الأسطح مطليَّة بالأحمر، وإنَّما بالأزرق.. هيَّا، اعرفوا السبب.

وحين دخل، أخذت المولودة الجديدة تبكي فجأةً بكاءَ الطفل المفارق أمّه، بحسب التعبير الدارج. أدرك باباكار أنَّه وإن كان يعرف جُلَّ أسرار الرحم، إلَّا أنَّه يجهل كلَّ شيء عن سلوك الرضَّع.

ـ لا تبكِ! تمتم، كأنَّ بمقدورها أن تفهم. قلبي مفعمٌ بالسعادة، لأنَّني عثرتُ عليكِ.

لم تعبأ بهذه التوصية، وصرختْ بصوتٍ أعلى. دخل المرآب، ولاحظ، على نحوٍ لم يسبق له أن فعله في حياته، فوضاه وقذارته. دسَّ الطفلة داخل سترته، وركض عبر الحديقة. ولمَّا أصبح في غرفة الجلوس، حاول تهدئة الجسم الصغير المتمترس بغضبٍ غامض، محتفيًا برائحة عضويَّة فريدة. أخذت العقدة المشدودة بإحكام في صدره منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا تنحلّ، وراحت السعادة تغمره. قبَّل الرضيعة بحرارة.

ـ سأُسمِّيكِ آنابيس، لأنَّه اسم أوَّل هاييتيَّة عرفتها، وأوَّل امرأةٍ أحببتها، بعد أمِّي. كان عمري ثلاثة عشر عامًا، أهدتني أمِّي هذا الكتاب ذا العنوان الشاعريّ. قرأته وأعدت قراءته. جعلني أحلم. أنتِ الينبوع الذي عثرت عليه، وسيروي جفاف وجودي.

كان باباكار عاطفيًّا، همجيًّا، ذا طبيعة غير اجتماعيَّة. ومنذ أن أخذ مكان الدكتور مارسيال في العيادة، الذي كان جميع الناس ينادونه «بابا مارسيال» نسبة إلى موطنه الأصليّ، كما يُقال بلغة المارتينيك «بابا سيزير»، عاش في عزلةٍ مطلقة. لم يخالط أحدًا، ولم يخالطه أحد. ولم يكن لديه سوى صديقٍ واحد: عجوز كولومبيّ يُدعى هيغو مورينو، متزوِّج بفتاةٍ من البلد الذي جاء منه لينام تحت أشجار ذيل الحصان. بعد موتها، أُصيب بصدمةٍ عنيفة وشللٍ نصفيّ. لذلك، كان باباكار يأتي كلَّ مساءٍ ليدفع كرسيّه المتحرِّك على امتداد الجروف الصخريَّة. لم يدخل

قطّ إلى المنزل الكبير المبنيّ من خشب الشمال والملطَّخ بالأخضر، وكان يأخذ السيَّارة الصغيرة من المكان الذي تركنها فيه بوبيت، الخادمة، في زاوية الرُّواق الذي يطلّ مباشرة على المرج. ماذا كان الرجلان يقولان أحدهما للآخر؟ راح الجيران الفضوليُّون يتساءلون.

«كان هيغو، وهو مهندس سابق في الأرصاد الجوِّيَّة، يشرح: خلال القرن العشرين، ارتفع منسوب المياه زهاء عشرة سنتيمترات. وإذا استمرَّ ذلك، سيختفي كلّ شيء ذات يوم. لن تلبث هذه الجزيرة أن تصبح تحت الماء كما جميع جزر المنطقة. في البداية، سيهرب السكَّان من القيعان المغمورة بالمياه، ويلتجئون إلى رؤوس التلال والجبال. لكنَّ ذلك لن يكفي. سُيدركها البحر ويغطِّيها. ولن تعود جزر الكاريبي سوى ذكرى. لن تعود سوى موجٍ بنفسجيٍّ يكلِّله زبد أبيض...».

وعلى صعيد الحبِّ، أو الجنس كما يحلو لباباكار أن يُسمِّيه، كانت لديه عشيقة تُدعى كارمن، مصفِّفة شعر، أصلها من سانتو دومينغو مثلما هنَّ جميعهنَّ. كانت تأتي مرَّتيْن أو ثلاث مرَّات في الأسبوع لتطبخ له أطباقًا شهيَّة، وتغسل وتكوي غسيله، وتنام بجانبه، من دون أن تشمئزّ من صمته وكوابيسه التي تمزِّق لياليه.

في تلك اللحظة، لم يجد باباكار حلًّا سوى أن يتَّصل بها لنجدته، آملًا أنَّها لم تفصل هاتفها، وأنَّها سترِدّ على اتِّصاله رغم التوقيت غير اللائق.

في اليوم التالي، سطعت الشمس بضياءٍ منسيّ، بعد أن

أشرقت لأسابيع شاحبة وعليلة. وكما يقول المثل الشعبيّ: ما بعد المطر إلّا الطقس الجميل. كان اسم باباكار الكامل هو باباكار تراوري ج ر. اتّفق الناس أنَّ شخصيَّته لطيفة، وحتى وسيم على حدِّ تعبير النساء، رغم اسوداده ونَدبةٍ سبَّبتْها أداةٌ حادَّة وغير محدَّدة. منجل؟ خنجر؟ أم كعب قنِّينة؟ كانت هذه النَّدبة تبدأ من زاوية عينه اليسرى، وتنحدر على امتداد خدِّه، وتختفي في شعر ذقنه الكثّ. كان يتكلَّم ويبتسم قليلًا، مُبديًا على الدوام هيئة من دفن أباه وأمّه وجدَّته، وهو ما كانت عليه حاله. ركن سيَّارته في مرآب سيَّارات بُنِي حديثًا. ثم سلك طريق البلديَّة. رمقه لوسيان لوسيوس، كنَّاس البلديَّة، بنظرة حاقدة. لم يكن يحبّ الغرباء.

وكذلك فيرمان تيولاد، موظَّف الأحوال المدنيَّة في الطابق الأوَّل في صدر الممرّ على اليمين، لم يخفِ نفوره حين اقترب منه باباكار. وبعد أن ألقى نظرةً سريعةً على الملفّ الذي قدَّمه له، ردَّه بمنتهى الفظاظة، وأردف بلهجةٍ متغطرسة:

ـ أوراق المدعوَّة رينيت أوفيد غير نظاميَّة. لا يوجد تصريح إقامة. وهي مهاجرة غير شرعيَّة أيضًا.

تحلَّى باباكار بالصبر:

ـ شرعيَّة أم غير شرعيَّة، لقد ماتت. البارحة، عند الساعة العاشرة ليلًا. وأنا طبيب توليد. وأمامك تصريح الدفن الذي أعددته. الأمر يتعلَّق الآن بالطفلة. فهي لم تزل على قيد الحياة، وبصحَّة جيِّدة. آنابيس تراوري، ابنتي، ابنتنا.

حدَّق فيرمان في باباكار، مذهولًا.

ـ تريد أن تقول أنَّك والد طفلتها؟

ـ أجل! أكَّد باباكار بعزم. . أنا أبوها.

أمضى فيرمان عشرين عامًا في عملٍ مكتبيٍّ في المكان ذاته، وقبالة النافذة نفسها التي تنفتح على النخلتيْن الملكيَّتيْن الكسيحتيْن للساحة مع لافتة تُضيئها مصابيح النيون في الخلفيَّة، وتتناغم مع مصباح الصليب الأخضر لصيدليَّة دانيكال؛ وتلك العشرين عامًا منحت فيرمان حاسَّة شمٍّ لا تُخطئ. القضيَّة برمَّتها تفوح برائحة احتيال تزكم الأنف. قال بغطرسة:

ـ في هذه الحالة، إن كانت طفلتك، اذهب للحصول على شهادة ميلاد إلى قنصليَّة بلدك. مثل كلّ الأجانب!

هزَّ باباكار كتفيْه:

ـ لستُ أجنبيًّا. أنا فرنسيّ مثلك. وأيضًا، إن أردتَ معرفة كلّ شيء، أنا أنتمي إلى هذه الجزيرة من جهة أمِّي. من آل مينيرف. هل سمعت بتلك العائلة؟

هزَّ فيرمان رأسه بالنفي، مستاءً.

حين خرج باباكار من البلديَّة، بعد ساعة، كان لوسيان لوسيوس قد انتهى من كنْس جميع الشقوق، وراح يدخِّن جالسًا فوق حاوية قمامةٍ مقلوبة. كان ما يزال يضحك من مقلبه الناجح، هو من لم يكن يضحك إلَّا فيما ندر.

لنرجع في الزمن.

قبل أربعين عامًا، عند الساعة الثامنة صباحًا تمامًا ـ كانت الحرارة تلتصق بالجلد فعلًا مثل خرقةٍ مبلَّلة ـ باباكار تراوري

الأوَّل، مدير مدرسة تيغويري الابتدائيَّة في شمال مالي، كان يجتاز بخطًى واسعةٍ آليَّةٍ باحةَ منشأته المدرسيَّة وعصاه الخيزران تحت إبطه. لا شيء مميَّز في هذه المدرسة، لكنْ لا تذهبوا بأفكاركم بعيدًا! فهي ليست سوى سلسلةِ غرفٍ مسبقة الصنع مرتَّبةٍ بشكلٍ رباعيّ خلف جدارٍ طينيّ. كان باباكار الأوَّل يقرأ صحيفته المفضَّلة *لافوا دي باتريوت*، الصحيفة الوحيدة التي تجرؤ على السخرية من رجال السلطة. في جلبابه الكستنائيّ الداكن، معتمرًا قلنسوةً صغيرة من الجلد الطبيعيّ، كان يجسِّد الاحترام. لم ينسَ قطّ أنَّه ينتمي إلى أسرة أميريَّة من البامبارا، أصلها من مدينة سيغو، قدَّمت أوَّل شهيد لها في الإسلام، ويُدعى تييكورو تراوري، بعد أن زوَّدت الملك مانسا بمستشارين وثنيِّين وفاسقين. وبعد ذلك، اشتهرت هذه العائلة بالنضال ضدَّ الاستعمار، رجالٌ أقوياء من عائلة تراوري انطلقوا ليتعفَّنوا في السجون، أو يموتوا في المنفى على جزيرة سيشيل.

والآن، بسبب موقفهم المناهض للنظام المنبثق عن الاستقلال، جرى الإعلان أنَّ هؤلاء المشاكسين غير مرغوبٍ بهم. ومن لم يستطع منهم الهرب إلى الخارج (يوجد شخص يُدعى لانزانا تراوري في قسم علم الأحياء البحريَّة في جامعة شيكوتيمي في كندا) ظلُّوا يعيشون في البلد حياةً بلا بريق.

أفلت مصير باباكار تراوري الأوَّل من هذا المخطَّط. وذات مرَّة، أصبح وزيرًا. وزير ماذا، فعلًا؟ لم يعد أحدٌ يعرف. لكنْ أليس الأساسيّ هو أنَّه كان وزيرًا ذات يوم، وهو لقب يحمله المرء حتى مماته؟ لسوء الحظِّ، فإنَّه سرعان ما خسر كلّ مناصبه

العُليا، وأرسلوه كمدير مدرسة في هذا الجحر، بلا أمل في الخروج منه.

انتهى من قراءة جريدته، وراح يتهيَّأ للذهاب إلى مكتبه عندما تقدَّم الحارس العجوز المُصاب بفتقٍ مختنقٍ والمعتمر طربوشًا قديمًا «أنت بخير بنانيا» مع فتاةٍ شابَّة قصيرة القامة، لكنَّها بهيَّة. كان وجهها صادمًا: بشرة سوداء مخمليَّة، مرشومة بالنمش، وذقن مكوَّرة تتوسَّطها غمَّازةٌ لطيفة. ملكة، لكنَّها للأسف، ترتدي بلا ذوق ولا أناقة سروالًا فضفاضًا أسودَ ناصل اللون، وهو يرتدي لباسًا رجَّاليًّا، وقميصًا بشعًا. واضح أنَّها أجنبيَّة. ما من إفريقيَّة ترتدي ملابس مزرية على هذا النحو!

خلعت في المكتب نظَّارتها السوداء الكبيرة التي تمتطي أنفها الجذَّاب، وتلقَّى صعقةً كهربائيَّةً من عينيْها الزرقاويْن، أجل زرقاويْن، وغير متوقِّعتيْن على هذا الوجه الداكن. تظاهرتْ بتجاهل الأثر الحاصل، وقدَّمت نفسها بشكل طبيعيٍّ:

ـ ثيكلا مينيرف. أنا المعلِّمة التي طلبتموها للصفِّ الثاني الابتدائيّ. يُفْتَرَض أنَّ المفتِّش المدرسيّ أخبرك بقدومي.

تظاهر باباكار الأوَّل أنَّه يفتح أدراجًا، ويُبعثر أوراقًا، ويُفتِّش في كدسة ملفَّات. لكنَّه كان يعرف أنَّه يبذل جهدًا ضائعًا. فهؤلاء الناس في باماكو لم يوجِّهوا له أيَّة رسالة. لا يهمّ! فهو على أتمِّ استعداد لاستقبال المرأة المجهولة.

ـ متى جئتِ إلى تيغويري؟ سألها.

تنهَّدت، ثم أغمضت عينيْها الفريدتيْن، وتصنَّعت ذلاقةَ اللسان:

ـ في منتصف الليل، بالحافلة. حذَّروني في باماكو، من الطائرة ومن السفينة. أعتقد الآن أنَّها كانت نصائحَ سيِّئة. الحافلة هي بالتأكيد أسوأ الوسائط. سرنا ثلاثة أيَّام أو ربَّما أربعة، أو خمسة، لم أعد أدري! تعطَّلتْ فينا مرَّاتٍ عديدة. اضطررنا إلى النوم في العراء قرب مدينة موبتي. كنَّا نتوقَّف عمليًّا كلّ عشرة كيلومترات، للتفتيش والتأكُّد من السلامة، وكان يترتَّب على من يملكون المال أن يُخرجوا محافظهم. ينبغي دفع بخشيش لرجال الشرطة. . .

ـ أنتِ محظوظة، لأنَّكِ ما زلتِ على قيد الحياة، قال باباكار الأوَّل ضاحكًا، ولستِ في قبضة عصابة تبتزّ المسافرين! ماذا تريدين؟ هذه هي إفريقيا الجديدة، إفريقيا التي لا يجرؤ أحدٌ أن يتحدَّث عنها. أين نزلتِ؟

ـ في كارافانسيراي! وهل يوجد فندق آخر هنا؟

نهض:

ـ تعالي، سأصحبكِ إلى هناك. بعد هذه المغامرة، تستحقِّين فعلًا يومًا أو يوميْن من الراحة. ستبدئين يوم الخميس.

وعلى مرأى من النظرات الفرحة للمعلِّمين والتلاميذ الذين سلَّاهم اللباس المُضحك للقادمة الجديدة، جلسا في سيَّارة باباكار الأوَّل السكودا.

من دون جوليبا ـ يُسمِّي الفرنسيُّون هذا النهر النيجر ـ لا تتمتَّع قرية تيغويري المُشادة على ضفَّته اليمنى، والتي يُناهز عدد سكَّانها الألف نسمة، بأيِّ سحر. نهر جوليبا يجمِّلها في فصل

الشتاء حينما ترتفع المياه. يكسوها في الصباح بمعطف سميك من الضباب، تجول عبره مراكب صيَّادي سمك السلمون، متهاديةً وصامتة مثل الأشباح. وعند الظهيرة، حين تصبح الشمس قرصًا متوهِّجًا متَّقدًا في كبد السماء، تعكس الموجةُ حدَّتها. ومساءً، يغفو النهر وتنساب مياه الضباب الكثيفة بتؤدة نحو البحر. وبسبب هذا الوضع، كانت تيغويري تُعدُّ قديمًا سوق نخاسة هامًّا. كان بعض المهرِّبين العرب يُهرعون من أنحاء المغرب العربيّ ليتزوَّدوا بالخصيان والمحظيَّات من أجل الحريم الملكيّ. وأيضًا، منذ القرن السادس عشر، كان بعض التجَّار الأوروبيِّين، من أصول إسبانيَّة وبرتغاليَّة، يستولون بالقوَّة على كلّ ما يُباع فيه.

ـ ثيكلا مينيرف؟ قال باباكار الأوَّل حين كانا يدوران حول مسجد قادروميشا، وهو بناءٌ رباعيٌّ ضخم من الإسمنت المسلَّح المطليّ بالأبيض، لا علاقة له بالعمارة السودانيَّة. أنتِ إذًا من جزر الأنتيل الفرنسيَّة؟

ـ أجل! أنا من غوادولوب. كيف عرفتَ ذلك؟

شرح باباكار أنَّه عرف عددًا كبيرًا من طلَّاب الأنتيل، وغوادولوب، والمارتينيك، في كلِّيَّة الحقوق في مونبلييه. أُناسٌ بأسماء مميَّزة. أطلق رجال الدين عليهم عند الإقامة والوضع العائليّ المواطنين الجدد. أبولون، سقراط، أريستوفان، سالومون، باخوس، كانت كلّ الأسماء اليونانيَّة الرومانيَّة تمرّ من هناك.

لم تستطع إخفاء دهشتها:

ـ أنتَ درستَ الحقوق؟ أنا أيضًا!

مكتبة
t.me/soramnqraa

شرح، وهو يرغم نفسه على التحدُّث ببساطة، دون أن يسعى إلى الإبهار، لأنَّهم كانوا ينتقدونه بأنَّه مغرور! وشعرا أنَّ هذه بداية محادثة لا بدَّ أن تدوم لأعوام، ولادة حبٍّ طويل.

ـ عشتُ حياةً سابقة، مذهلة للغاية. درستُ الحقوق، وزاولت المحاماة أوَّلًا في مدينة سيغو، مسقط رأسي.

وهنا، توقَّف. لم تقل ثيكلا شيئًا، فتابع:

ـ ثم في باماكو. مارستُ بعد ذلك السياسة، وأصبحت وزيرًا في حكومة ما بعد الاستقلال. أصبحتُ من المغضوب عليهم، فأرسلوني إلى هنا لأتأمَّل عزّ السلطة وهوانها.

كان فندق كارافانسيراي في الأصل معسكرًا بُني لصالح الألمان الباحثين عن ريش النعام وبيضه في المنطقة. في الواقع، كانوا يلاحقون صغار أولاد البيول الرعاة. في ذلك الوقت، كان المعسكر يزخر بالنشاط؛ وقبل حلول الليل، ترنّ بلهجاتٍ مختلفة «بيرة! بيرة!» و«في صحَّتك، كأسك!» أو غيرها من لوازم معاقرة الشراب المكرورة التي يحبُّها العِرْق الألمانيّ! وحين صار النعام قاب قوسيْن أو أدنى من الاختفاء، أصبح من الأنواع المحميَّة، وتحوَّل المعسكر إلى فندقٍ للسيَّاح الجوَّالين راجلين. لكنَّ هؤلاء قلَّما غامروا في المجيء إلى تيغويري. لذلك، تحوَّل كارافانسيراي بالتدريج إلى نُزلٍ موحش. جدرانُه متقشِّرةٌ وناصلةُ اللون، وشبكةُ أنابيبه صدئة، وترتع في كلِّ مكانٍ منه صراصيرُ كبيرةُ الحجم. وحدهم العشَّاق، بدون مأوى، راحوا يرتادونه ليقضوا وطرهم فيه. ووُجد بين الحين والآخر زبنٌ أرفع شأنًا.

ومؤخَّرًا، أقام فيه سينمائيُّون فرنسيُّون، يصوِّرون فيلمًا وثائقيًّا عن حياة النهر.

لم تبقَ ثيكلا طويلًا في كارافانسيراي. وبعد أقلّ من شهر على وصولها إلى تيغويري، انتقلت للعيش مع باباكار تراوري الأوَّل. وبعد شهريْن، ارتدى الإمام حلَّة بوبو فاخرة، واحتفل بالزواج.

لم تحظَ ثيكلا منذ الوهلة الأولى بأيِّ شعبيَّة لدى سكَّان تيغويري. أوَّلًا بسبب لون عينيْها. وبحسب ذاكرة الأحياء، لم يَرَ أحد في أنحاء مالي، ولا في أرجاء العالم كلّه، زنجيًّا بعينيْن زرقاويْن. بالتأكيد، تغنَّى الشاعر السودانيّ الشهير مغالي إي مغالي بعيون محبوبته الملوَّنة. لكنْ يجوز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم. وأيضًا «ملوَّنة» لا تعني «زرقاء». يُضاف إلى ذلك أنَّ هذه «الجبلَّة الدخيلة» لثيكلا لم تبذل أيَّ جهدٍ لتتعلَّم لغة البامبارا، أو المالينك، أو السونغاي، أو الفولانيَّة؛ وباختصار، لم تتعلَّم أيّ لغةٍ من لغات المنطقة.

مع ذلك، رغم وطأة العداء الذي أحاط بها، اتَّسمت سنوات الزوجيْن الأولى بالهناء، على ذمَّة خادمتهم الحدباء أديزا. وطبعًا، لم تكن أديزا الحدباء، التي لا تتحدَّث إلَّا اللغة الفولانيَّة، تفهم كلمة واحدة من أحاديثهما، فحكمت على المظهر. ولم تنفكّ تؤكِّد أنَّه بعد كأس الكنكليبا الصباحيّ الأوَّل، كانت قُبَلٌ تتلو قُبَلًا، ومداعباتٌ تخلف مداعبات، وابتساماتٌ تعلو ابتسامات. كانا يتشاركان في المطالعات ذاتها، ويتبادلان الكتب، ويسجِّل كلٌّ منهما ملاحظاته على هوامشها. وكانا يحبَّان

الموسيقى ذاتها، ويفضِّلان فرقة «بومبيا جاز» من غينيا وموسيقى الريغي لبوب مارلي من جامايكا.

على الوجبات، كانت ثيكلا تجلس كطفلٍ على ركبتيْ باباكار الأوَّل، ويأكلان من طبقٍ واحد. وباختصار، كان لحياتهما طعمُ صحن فونيو، غذاء الآلهة بحسب علماء الأجناس البشريَّة الفرنسيِّين.

في العام الرابع من زواجهما، وتكذيبًا للنمّامين الذين سارعوا إلى اتِّهامها بالعقم، أخذ بطن الزوجة يتكوَّر. وفي شهر آب، عندما استوت مياه نهر جوليبا على سريرها، ولدت ابنًا. وسُمِّي باباكار كأبيه. باباكار تراوري الثاني. وبدافع الفضول، توافد الزوَّار إلى مستشفى الحاجّ عمر سيْدو تال، الذي أُشيد حديثًا بفضل هبة من ألمان شرقيِّين. لكنَّهم ظلُّوا على قناعاتهم. فالمولود الجديد لم يرث عينَي الساحرة. كان تراوريًّا صافيًا، ينظر إلى الحياة بحدقتيْن كستنائيَّتيْن داكنتيْن، لامعتيْن كخوخ آجن.

زنوج بعيون زرقاء؟ أمر يستحقّ التفسير. ويتطلَّب ذلك منَّا العودة إلى الوراء أيضًا. وكما هو معروف: الماضي هو ما يُغذِّي ويُضيء الحاضر!

كان جدّ ثيكلا الأوَّل ذا عينيْن زرقاويْن، ويُدعى ونغارا. كان طوله مترًا وثمانية وخمسين سنتيمترًا، أورث سلالته قصر قامته ولون عينيْه. كان ابن ماكالو ومن زوجته الثالثة فطُّومة. ومع أنَّهم عمَّدوه لاحقًا في العبوديَّة باسم جوزيف، فإنَّ ونغارا حافظ دومًا على اسمه الإفريقيّ. أسروه على ساحل العبيد، في مكانٍ يُدعى

سوسونابو، الحافل بالغزوات. يُفترض أنَّه كان في الخامسة عشرة من عمره كما يزعم القدماء، مع أنَّ هيئته توحي أنَّه لم يكد يبلغ اثني عشر عامًا. يتذكَّرون أنَّه وُلد في ذلك الفصل الجافّ والحارق، حين راحت الحرائق تنشب تلقائيًّا في الأدغال، وكرات النار تتدحرج تحت أقدام الصيَّادين. وعلى الرَّغم من قصر قامته، أثبت شجاعته في الميدان، فقتل أسدًا، أو اثنيْن أو ثلاثة من أسود المورغا الضارية التي تحدَّث عنها أمبادو أمباتي با. وعقد أذيالها حول خصره. كانوا يتأهَّبون لتزويجه، ومجلس الحكماء يناقش مهر الخطيبة. لكنَّ الوقت لم يسعفهم للاتِّفاق حول هذه النقطة، لأنَّ النخَّاسين الأوروبيِّين ومساعديهم الأفارقة أضرموا النار في سوسونابو ليلًا، ودمَّروها. وارتأوا أنَّ ماكلو وفطُّومة كبيران في السنِّ، ولن يتحمَّلا مشقَّة رحلة الأطلسيّ ـ يسمِّيها الإنكليز المرحلة الوسطى، وتتنوَّع أسماؤها، لكنَّها تعني الانتقال من نعيم إفريقيا إلى جحيم جزر الكاريبي ـ فجزُّوا عنقيْهما. بكى ونغارا، الشاهد على المشهد، بكى، وبكى، وبكى. بكى مدرارًا حتى تغيَّر لون حدقتيْه مثل قماش لا يصمد صباغه أمام الغسيل المتكرِّر. لذلك استحال لونهما من البنِّيّ إلى الأزرق.

لم يلاحظ أحدٌ هذا التحوُّل على الفور، لأنَّ البائس ونغارا ظلَّ حبيسَ عنبرٍ في قاع سفينة العبيد كريست ـ روا يمزِّقه الألم. لكنَّ البحَّارة أرغموه في اليوم الخامس من الإبحار على الصعود إلى سطح السفينة لانتزاع الحشرات الطفيليَّة عن جسده، وغمروه بدلاءٍ من الماء. وفي ضوء الشمس الساطعة، لاحظوا التغيُّر. فسلَّاهم ذلك أيّما تسلية.

زنجيٌّ بعينيْن زرقاويْن، أوه.. يا للمعجزة!

أمَّا القبطان أنطوان من مدينة جيغو في سان مارتان، فلم يضحك بسذاجة. وقدَّر الفائدةَ الجمَّة التي سيجنيها الآن من هذه الحالة الشاذَّة. وقدَّر العبيد الآخرون، رفاق ونغارا في المحنة، الأمر بشكلٍ مختلف. رأوا فيه علامةَ محبَّةٍ من الآلهة. كانت تانك العيْنانِ تعنيان أنَّ ونغارا ليس مبتذلًا من عامَّة الناس. كان قادرًا على قراءة الماضي والحاضر، وفكّ حُجُبِ الغيب. وغمروه من الآن فصاعدًا بمظاهر الاحترام، يركعون أمامه؛ ولم يعودوا ينطقون اسمه، واستبدلوه بكناياتٍ معقَّدة مثل: «من ـ يلامس ـ رأسه ـ عنان ـ السماء»، «صاحب ـ العيْنيْن ـ اللتيْن ـ تُبصران ـ في ـ الظلام»، «من ـ له ـ قد ـ شجرة ـ البلح».

كان ذلك يُغضب ونغارا، لأنَّه لم يعد يستطيع أن يعبِّر عن حزنه بسلام، وصار يواجه باستمرار توسُّلاتٍ سخيفةً تزعجه: «أيُّها المبجَّل! اجعلني أرى أبي المُتَوَفَّى!» «أيُّها الجليل! اجعلني أقبِّل وأحتضن من جديد أمِّي المتوفَّاة!» «أيُّها المتبصِّر! هل تعرف ما ينتظرنا بعد هذه الرحلة الرهيبة التي تبدو بلا نهاية؟» «أيُّها العرَّاف! على أيِّ برٍّ سنرسو؟ من المستبعد أنَّ السعادة تنتظرنا هناك.»

وحين وصل ونغارا إلى جزر الأنتيل، اشتراه السيِّد إيمانويل بريستون من تاي. كان إيمانويل يحبّ الغلمان، والصغار. واعتبر أنَّ ذاك يستحقّ أن يكون أكثرَ من «زنجيّ سكر» أو «زنجيّ معوَل». فألبسه ثوبًا من الحرير المزركش، واستخدمه كخادم مائدة، مهمَّته التنظيف بالفرشاة وجمع بقايا الطعام. وبدافع اللهو،

زوَّجه بابتيستا، عبدة ابنته المفضَّلة القادمةَ من بلاد شعب الماساي، ويبلغ طولها نحو المترين. لمشيئة الله دروبٌ غامضة: فالزوجان تبادلا حبًّا شغوفًا، ورُزقا على التوالي بخمسة أبناء، عيونهم زرقاء وقاماتهم أقلّ من المتوسِّطة بكثير.

مع ذلك، حين قضى مرضٌ غامضٌ على زوجة إيمانويل، إليانور الرقيقة ذات الذراعيْن البيضاويْن، ثم على أربعة من أبنائهما، وحين شبَّت النار في السنة ذاتها في مطابخه، والتهمت مسكنه، ارتاب السيِّد بهاتيْن العينيْن وهذه القامة القصيرة الذين أغروه قديمًا وسلُّوه. وسارع إلى التخلُّص من ونغارا وبابتيستا. فاشتراهما البخيل لويس إيلي تريسموند من سان مورو، وهو رجلٌ فظّ لم يفلح لون الحدقتيْن، رغم أنَّه لونٌ فريد، أن يؤثِّر فيه، وأرسلهما إلى الحقول. كان لويس إيلي فاسقًا. يسمُّونه في أيَّامنا هذه مغتصب أطفال. ولأنَّه مُغرمٌ بالصغيرات غير البالغات، راح يشتهي ابنة منظِّفة الملابس. ولمَّا دخل ذات مساءٍ إلى حُجرتها وهو ينوي اغتصابها، أصابته غثيانات حادَّة، وانزلق انزلاقًا مميتًا في قيئه وقذارته.

اعتقلوا ونغارا. وفي أنحاء المستعمرة، لم يخالج أحدٌ أدنى شكّ في أنَّه جالبٌ للنحس، وساحرٌ، ومسؤولٌ عن هذه الأحداث الغريبة. لم يدافع ونغارا عن نفسه. ولم ينبس ببنت شفة. شنقوه على غصنٍ واطئ من شجرة أكوما ـ وهي من نوع أشجار اختفت عمليًّا اليوم من الكاريبي، وأخذ معه جوابَ السؤال الذي طرحه الجميع من جيلٍ إلى جيل!

هل كان آل مينيرف ـ وهو الاسم العائليّ غير الفاخر الذي

منحه موظَّف الأحوال المدنيَّة الظريف لأحفاد ونغارا عند إلغاء العبوديَّة ـ سحرة؟ راح اللغز، الذي لم يُحلّ قطّ، يزدادُ غموضًا.

وما عقَّد الأمورَ أيضًا، هو أنَّ جميع آل مينيرف، ولو أنَّهم قصارُ القامة، لم يحظوا بزرقة العينيْن ذاتها. أحيانًا، تميل إلى لون الكاكاو كما يُقال عمومًا، أو تكون رماديَّة أو خبَّازيَّة. هل يعني ذلك أنَّ هذه الهبة الخارقة كانت تتغيَّر بحسب الأفراد؟ عمومًا، هكذا سارت الأمور. كان اللونُ غيرُ الثابت في الأشهر الأولى، وحتى في السنوات الأولى من الحياة، يستحيل ذات صباحٍ جميلٍ إلى الأزرق. ينحني المراقبون فوق المهد، فيتلقُّون وسطَ وجوههم رذاذًا شبيهًا بماء البحر قبالةَ جزيرة لاديزيراد أو بعطر دافيدوف المُسمَّى «كول ويتر»، أو أيضًا بشراب الروم المارتينيّ النادر والباهظ الثمن. ولن يلبث هذا اللون أن يستقرّ خلال الأشهر التالية، ويفرض نفسه؛ وذات يومٍ، يتوقَّف المارَّة مذهولين:

ـ هذا غريب! هل رأيتَ عينيْ هذا الطفل؟

ولولا نظرتهم الغريبة وقامتهم القزمة، لكان آل مينيرف يشبهون غيرهم في وطنهم الأمّ. لا أجمل ولا أقبح. لا أذكى ولا أبلد. ليس بينهم كُتَّابٌ مشهورون، ولا رسَّامون أو نحَّاتون عباقرة. ولا حتى دكاترة، أو محامون، أو موظَّفون مرموقون. باختصار، كانوا عمومًا تُجَّارًا صغارًا ومستخدَمين في مكاتب من شتَّى الأنواع. مع ذلك، انتشرت أغربُ القصص عنهم. وأُشيع أنَّ أحد آل مينيرف ربَّما كان رفيقًا حميمًا للويس ديليغراس. وقد

يكون هو من أشار عليه بالانتحار مع رفاقه في لابيتاسيون دانغلمون بواسطة المتفجِّرات.

«لعلَّه همس في أذن الضابط الجبان على الرَّغم من نياشينه، لننطلق في الجمال! ولننقش أسماءنا بأحرفٍ من نار في ذاكرة سكَّان هذه الجزر، إن لم يكن في ذاكرة رجال العالم أجمع!»

وكان البعض يؤكِّد أنَّ واحدًا آخر من آل مينيرف كان مسؤولًا عن النهاية الحزينة للجنرال أنطوان ريشبانس، فأُصيبَ بمغصٍ فظيعٍ قبل أن تصرعه الحمَّى الصفراء.

رغبت ثيكلا فعلًا أن تقطع الشكَّ باليقين، وأن تعرف إن كانت تتمتَّع فعلًا بقدرةٍ خارقة. آه! أن تثير الرياح، وتجعل المطر يهطل. وعلى الأخصّ، أن ترسل إلى العالم الآخر أولئك الذين سخروا منها وعاملوها «بازدراء». رفضت أمُّها الورعة التي تخشى ارتكابَ الإثم أن تستمع إلى أسئلتها. أمَّا أبوها، الرجلُ القصير ذو الرأس المعتمر دومًا خوذةً، والعينيْن المتواريتيْن وراء نظَّارةٍ سميكةٍ سوداء، فكان مساعدَ صيدليٍّ في المستشفى. وكان الكثيرون يُهرعون إلى بيته بعد العمل. بماذا كانوا يستشيرونه؟ ولماذا هذه المواعيد الغامضة؟ لم تلبث ثيكلا أن اكتشفت أنَّه كان ينظِّم عمليَّةَ تهريب مربحة، ويبيع من دون وصفة المورفين والبنسلين أو أدويةً أخرى باهظة يسرقها من المستشفى. كانت تفضِّل أبًا مشعوذًا على أبٍ لصّ! فذلك على الرَّغم من كلِّ شيء أكثر نبلًا.

في عامها الثالث والعشرين، في خضمِّ دراستها للحقوق،

سئمت من تعذيب نفسها بأسئلةٍ لا أجوبةَ لها، فتخلَّت عن دراستها القانونيَّة، وقرَّرت البحث عن عمل في إفريقيا السوداء التي لم يكن أحدٌ قد عمَّدها بعدُ باسم «إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى». يمكن القول إنَّ ذلك كان بدافعٍ نضاليٍّ. في تلك الأوقات، كانت هذه الكلمة دارجةً، ومن المؤكَّد أنَّها كانت ذات ميولٍ يساريَّة. لكنَّ الحقيقة هي أنَّها كانت تكره عائلتها، والمجتمع الذي وُلدت فيه ونَبَذها. وطفقت تحلم بتنفُّس هواءٍ نقيٍّ. فرضيتْ بأوَّل بلدٍ يحتاج لمغتربين، وهو مالي. لذلك لا تنظروا إلى الأمر على أنَّه سعْي لأيَّة هويَّة، أو بحث عن بامبارا الجدّ! لم تكن ثيكلا قد سمعت في حياتها بمملكة بامبارا في سيغو، مع أنَّه ترتَّب عليها الزواجُ برجلٍ من سلالة «يروولو». تفصيل أخير: كان الأجر مجزيًا.

بالنسبة لابنته، كان باباكار يريد «مربِّيةً» عصريَّة. وليس واحدة من عجائز الزمن الغابر تغطِّي رأسها بمندراس حريريٍّ، ولها فمٌ خالٍ من الأسنان ومملوءٌ بأمثالٍ شعبيَّة كريوليَّة من نوع: *حياة الحقول هي الصفاء*! فهذا قد يشوِّه طباع الطفلة. وكان يريدها أيضًا ناطقة باللغة الفرنسيَّة ـ الفرنسيَّة، شابَّة، والأفضل جميلة، صبورة وحنونة، وتستطيع أن تتحمَّل صرخاتٍ لا مبرِّر لها تُغْضِب الكثير من المربِّيات وتقودهنَّ للمثول أمام المحاكم. هيغو مورينو هو من قدَّم له ابنةَ أخت زوجته للعمل، كلوي رانغان، مخلوقةً في غاية اللطف، الحوريَّة أبسارا الوديعة التي أنهت دراساتٍ معمَّقة في رعاية الأطفال في باريس.

لكنَّ باباكار غار منها حين أصبحت في خدمته، وخشي من

ازدياد تأثيرها على آناييس. وحتى يحافظ على أوقاتٍ حميمة معها، راح في الساعة السادسة من كلِّ صباح، قبيل الشروق، يأخذها بين أحضانه، ويتنزَّه معها على امتداد مجرى سيمون بواربيه. مجرى سيمون بواربيه من السافانا إلى الأناناس وكوخ دلو الماء الصغير، ويصل في النهاية إلى سفوح البركان.

ـ انظري إلى هذا الجمال! يهمس باباكار في أذن آناييس. انظري إليه قبل أن يختفي. تلك الشجرة، إنَّها شجرة أكاجو الهندوراس. يمكن تمييزها من أوراقها المسنَّنة، إنَّها شجرةُ ماهوجني. لم يعد نوعها موجودًا إلَّا ما ندر. وهذه شجرة غاياك، وتُدعى أيضًا الخشب المضغوط. وتلك المتوسِّطة الطول، المتجمِّعة في بستان، هي أشجارٌ هنديَّة وأشجارُ الجوّافة الجبليَّة. انظري إلى البقعة القرمزيَّة لزهرة فم السمكة. آه! سأعلِّمك أن تعتزِّي بهذه الأرض الصغيرة، وبروائع الطبيعة المتعايشة فيها جنبًا إلى جنب.

كانت آناييس تبدو مفتونة بهذا الكلام. فترفع رأسها باستقامةٍ فوق عنقها، وتنظر حولها وتبدو مأخوذةً ومذهولةً بروعة المشهد. على مدِّ النظر، كانت شجيرات السرخس الخضراء تطغى على رماديَّة المنحدرات الصخريَّة، والشمس تزبد فوق هذه التشكيلة المتنوِّعة.

أمَّا الجيران الذين يبدأون صباحهم باحتساء القهوة أو الشوكولاتة، وهم يراقبون فعلًا حركاتِ وسكناتِ الآخرين، فراحوا ينظرون إلى الأب وابنته، ويزمُّون شفاههم. هل رأى أحدٌ من قبل شخصًا عاقلًا يُخرج رضيعة في مثل هذه الساعة من دون

أن يغطّي رأسها؟ ماذا لو باغتهما المطر المتربِّص دومًا؟

في ذلك الصباح كما في الصباحات الأخرى، كانت العيادة مزدحمةً. وحتى لا نخطئ، لم تكن يومًا بمثل هذا الازدحام. ولم تكن هذه الجزيرة فقط أرضًا تُحيط بها المياه من كافَّة الجهات، كما تقول كتب الجغرافيا. كانت أرضًا تشعر أنَّها مهدَّدةٌ على الدوام. وكانت تمقت الأجانبَ وتعتبرهم سببَ مصائبها. لكنَّها نظرًا لشهرتها، كجزيرةٍ صغيرةٍ مزدهرة وسط الفقر الدائم في جزر الكاريبي، اتَّجه الجميع نحوها: من هاييتيِّين ودومينيكان وبورتوريكونيِّين، ناهيكم عن مرابطين أفارقة خرجوا من السنغال أو مالي. وكان هناك أيضًا العديد من «البيض المختلطين»، جاؤوا للتنعُّم بدفء شمس صيفها الأزليّ. اضطرّ باباكار أن ينقذ حياة قرويَّتيْن أو ثلاث قرويَّات معوزات لتتغيَّر سمعته، وحتى يصبح «طبيبًا مألوفًا».

ـ أنا، الدكتور الإفريقيّ هو من يتابعني!

ـ دكتور إفريقي؟ هذا مستحيل!

فوجئ باباكار بوجودِ رجلٍ في صالة الانتظار. رجلٌ في عيادة طبيب توليد، إنَّها رصاصةٌ أُطلقتْ من مسدَّس في حفلةٍ موسيقيَّةٍ بآلات الكمان. إلَّا إذا جاء ذلك الرجل برفقة زوجته أو عشيقته أو أخته، وهي حالاتٌ نادرة في بلداننا الذكوريَّة. من الواضح أنَّ هذا الرجل جاء وحده، كان جالسًا وظهره إلى النافذة، فاشتمَّ باباكار رائحةَ خطرٍ حوله. انتظر الرجل دوره بفارغ الصبر. كانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة حين أدخله باباكار إلى غرفة المعاينة. سأله الرجل:

ـ *ألم تتذكَّرني؟*

جلس على الأريكة. هذه اللغة الكريوليَّة هي التي أنعشت ذكريات باباكار. موڤار! رفيق رينيت. أحيا باباكار ليلةً لا تُنسى وهِبته آناييس. إنَّه موڤار! لم يحضر مراسم دفن رينيت. أمَّا باباكار، فذهب إليها على مضض، ومشى في آخر الموكب، وجاهد لئلَّا يلاحظه أحد، وشعر مع ذلك بنظراتٍ فضوليَّة، وخمَّن نمائمَ أثارها حضوره. لا أزهار ولا أكاليل. حدث ذلك بسرعةٍ وبشكلٍ سيِّئ. جنازةٌ متواضعة لبائسة أجنبيَّة.

بدأ موڤار الكلام. ببطء في البداية، وبمثابرة، كأنَّه يعي أنَّ مستمعه يفهم بصعوبةٍ لغته الكريوليَّة، ثم ينسى ذلك، وتدبّ فيه الحماسةُ بالتدريج.

حكاية موفار

في البؤس، حتى الحليب يصبح مُرًّا *Lan mizèpa dou, ho*. هذا ما تقوله إحدى أغانينا. وصدِّقني، هذه هي الحقيقة!

منذ نعومة أظفاري، أستيقظ وأنام معه. إنَّه رفيقي الوفيّ، لم يتركني وشأني يومًا واحدًا. بسببه، اختفى أبي من دون أن يكلِّف نفسه حتى عناء وداعنا. ذات مساء، لم يرجع للنوم. ولم نره في اليوم التالي أيضًا، ولا بعد اليوم التالي. قالت لنا جارتنا سيلوتا إنَّه سافر بالتأكيد بحثًا عن عملٍ في مكانٍ ما، ربَّما في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة أو كندا. وظلَّت أمِّي تكافح ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا لإعالة أطفالها الثلاثة، وبعدها اختفت، هي أيضًا. ذات مساء، لم ترجع من سوقٍ تبيع فيه الخردة. انتظرناها، وانتظرناها. لم ترجع قطّ. لا ألومها، لأنَّها تركتنا وحدنا. أعتقد أنَّ هذا العبء أثقل كاهلها واحتاجت أن تستريح.

بعد اختفاء أمِّي، لم أجد سبيلًا سوى أن أتبع أخي فوي

هينوك ـ هكذا كنتُ أُسمِّيه، لكنَّه لم يكن أخي في الحقيقة. كان ابن جارتنا سيلوتا، صديقة أمِّي المخلصة التي أخذت أخواتي الصغيرات إلى منزلها. في البداية، كان مع عصابته لصًّا في كلِّ الأنواع، أساعده في سرقاته القذرة. رحتُ مثلًا أرصد الأماكنَ التي سيسطو عليها. ثم حدثتْ مصادفةٌ غيَّرت مجرى حياته تمامًا. أصبح عضوًا في حزب لافالاس، وهو حزبٌ جديدٌ ناشئ. لا تطلب منِّي مزيدًا من التفاصيل، فأنا لا أفقه شيئًا في السياسة! وسرعان ما صار ضمن الميليشيا الشخصيَّة للرئيس. كان يرى الرئيس كلّ يوم، ويعبده مثل الله.

«لم يفتأ يردِّد على مسامعي: أنت تعرف أنَّه يتحدَّث الكريوليَّة دومًا! يتكلَّم الكريوليَّة مثلك، ومثلي، ومثل جميع الهاييتيِّين الذين لم يدخلوا مدرسة قطّ».

برأيه، لم تعرف بلادنا قطّ شخصًا بمثل تفانيه في إدارتها. وانبرى يؤكِّد أنَّ أيَّ بلدٍ يشبه طفلًا: يحتاج إلى موجِّهٍ، ويحتاج إلى مرشدٍ ليقوده في الطريق الصحيح. برأيه، لم يفكِّر جميع رؤسائنا إلَّا في الاستفادة والتربُّح. وكانوا يتملَّكون القصور. كان لدى بابا دوك أكثر من مائة قصر، في إسبانيا وفرنسا والمغرب، وفي كلِّ مكان. لا أعرف مدى صحَّة ذلك، لأنَّهم يروون الكثير من الأمور. ما هو مؤكَّدٌ وأكيد، هو أنَّ وجود فوي هينوك في ميليشيا الرئيس جَلب له الكثيرَ من المال. كان يُعطيني لأصرّه له: كنت أعدّ رزمًا ورزمًا من الدولارات الأميركيَّة، وأضعها في علب أحذية. أحيانًا، كانت رزمًا من اليورو أو عملاتٍ لا أعرفها. ومع فتيةٍ آخرين من عمري، يدعوننا على سبيل المزاح «العصابات

الصغيرة»، كنَّا نرافق الميليشيات. أي كنَّا مسلَّحين ونسير حولهم، أمامهم وخلفهم. كنَّا على الجوانب، نُطلق الأعيرة الناريَّة في الهواء، من بنادق الكلاشينكوف، فنُحدث ضجَّةً رهيبة، ما يُثير ذعرَ الناس ويُبعدهم بسرعة. وحين تدور الميليشيا بسيَّارات الجيب، نجلس على غطاء المحرِّك، وسيقاننا متدلِّية. لم يكن يحقّ لنا أن نجرح أو نقتل أحدًا. ظلَّت هذه المهمَّة محصورةً بأفراد الميليشيا وحدهم؛ وصدِّقني، كان لديهم مطلق الصلاحية بعيارات بنادقهم الرومينغتون الكبيرة. وأحيانًا، قبل أن يقتلوا شخصًا، كانوا يقتادونه بعيدًا في الغابات أو إلى شاطئٍ لا يرتاده أحد، ويلعبون معه لعبة القطط مع الفئران. يمكن القول إنَّهم يعذِّبونه. كان هذا يؤسيني، فيستولي الغضب على فوي هينوك منِّي:

«ما خطبك تبكي، أيُّها الجبان؟ كان يصرخ. إنَّهم أعداؤنا، أُناسٌ ظلُّوا يكنُّون لنا الاحتقارَ على الدوام. نحن نردّ فقط الشرّ بالشرِّ».

بعد ذلك، نضرم نحن «العصابات الصغيرة» النار في الجثث. كنَّا نرافق رجال الميليشيا في كلِّ مكان. . إلى اجتماعاتهم السرِّيَّة، وإلى استعراضاتهم، وأيضًا إلى الأسواق الكبيرة والمطاعم. وغنيٌّ عن القول إنَّني كنت أمقت عملي. ما كان يسلِّيني بعض الشيء، هو حين نرافقهم عند الفتيات. وبينما هم يقضون وطرهم منهنَّ، نتلصَّص نحن من ثقب الباب. كأنَّنا في السينما. وفجأةً، تغيَّر كلُّ شيء: قُتِلَ فوي هينوك. في عزِّ الظهيرة، وصل فجأةً رجالٌ لا نعرف لهم أصلًا ولا فصلًا،

يرتدون ملابسَ غريبة. كنّا نأكل بهدوء لحمَ خنزيرٍ مشويّ وأرزًّا بالفطر الأسود «جونجون»، في مطعم نحبُّه، اسمه لابيرل. قفزوا من سيَّارات دفعٍ رباعيّ، وقبل أن نستطيع الإتيان بأيِّ حركة، راحوا يطلقون النار علينا. لم أزل أتساءل كيف نجوْت. أعتقد أنَّ سبب ذلك هو سقوط أحد رجال الميليشيا، ويُدعى غرو لويس على قفاه فوقي، فحمتني جثَّته على نحوٍ ما. نهضتُ، مذهولًا، ومخبولًا، لكنْ على قيد الحياة. من هم الأشخاص الذين أطلقوا النار علينا؟ من أين خرجوا؟ هل كانوا مأجورين من قبل أُناس لا يحبُّون الرئيس؟ كانت البلبلة تسود البلد. ولن أعرف الحقيقة أبدًا.

بعد ذلك، لم يفتأ خوفي يزداد، وبقيتُ خائفًا طوال الوقت. كنت واثقًا ومتأكِّدًا أنَّهم سيغتالونني، أنا من لم يفعل شيئًا. لم أعد أرغب بالبقاء في المنزل الذي كنتُ أسكنه مع فوي هينوك. اختبأتُ في أحد المستودعات المهجورة الموجودة على شاطئ البحر. كان الشاطئ قذرًا للغاية، مقلب نفاياتٍ حقيقيّ، ولم يكن أحدٌ يرتاد ذلك المكان. كانت الجرذان وحدها، الكبيرة بحجم الكلاب، تغطس في المياه السوداء. كنتُ أخرج ليلًا فقط، وأذهب لآكل في مطعم فؤاد العربيّ. كان لبنانيًّا، وصديق فوي هينوك. لم يكن جنديًّا، ولا شأن له بالمخدِّرات. كان يُدير مع عمِّه مطعمًا فندقيًّا: أرز لبنان. لكنَّ عمّه قُتِلَ، فبقي وحيدًا تمامًا. أشفق على شقيقتيّ الصغيرتيْن، اللتيْن كانتا تُثقلان كاهل خالتي، مع أنَّها لم تكن حتى خالة حقيقيَّة! راح يدفع نفقاتهما المدرسيَّة، نفقات لباسهما المدرسيّ وكتبهما. وذات عصرٍ، جاء يبحث عنِّي

في المكان الذي أختبئ فيه:

ـ من الأفضل أن تأتي وتُقيم عندي. قد تحدث اضطرابات عارمة في المدينة.

ـ أكثر من المعتاد؟ سألْتُهُ.

ـ أعتقد...

كان محقًّا. في تلك الليلة، لم تحترق المدينة فقط، وإنَّما البلد بأسره. خرج جميعُ الناس الذين كانوا يحبُّون الرئيس حشودًا إلى الشوارع. وفي شان دو مارس، انهمر الرصاص في كلِّ مكان. وتضرَّجت أجساد الجرحى والقتلى بالدماء. لم يهتمّ أحد بهم. كنَّا نراهم وكأنَّنا في عزِّ النهار بسبب ألسنة لهب الحرائق، الحمراء كاللحم المدخَّن. ونحو منتصف الليل، تأزَّمت الأمورُ تأزُّمًا شديدًا، فنزلنا إلى القبو. لحسن الحظّ أنَّه لم يعد يوجد زبائن في الفندق. قرَّر آخر الأميركيين أن يستقلُّوا الطائرة. وما خلا أنا وشقيقتيّ، لم يكن يوجد سوى بعض الجيران. وطفقت النساء، طبعًا، يسبِّحن بسبَّحاتهنَّ وهنَّ يصلِّيْن بصوت عالٍ، بينما ينام الأطفال بهدوء. كان هناك أيضًا امرأةٌ دومينيكانيَّة، راح فؤاد يغازلها، وكنتُ أوَّل مرَّة أراها. لم تنفكّ تشتمه، وتردِّد أنَّ كلّ هذا بسبب خطئه.

تلك الليلة، قرَّرتُ أن أُغادر بلدًا أصبح في غاية الخطورة.

ومن سوء الحظّ أنَّ القول أسهل من الفعل!

مضى عامٌ تقريبًا قبل أن أنجح في تحقيق هذا الحلم. اعتراني اليأس وأنا أنتظر وأنتظر. ومنذ أن اضطرّ الرئيس إلى

الرحيل، تدهورت الأحوال من سيِّئ إلى أسوأ. حين نستيقظ صباحًا، لم نكن نعرف هل سنظلّ أحياءً حتى المساء! وفي كلِّ يوم، كانت تحدث عمليَّاتُ اختطاف. أوجد فؤاد لي عملًا. وكنتُ أفضِّل البقاء في مطعمه الفندقيّ ـ أرز لبنان، أكنس الغرف، وأساعده في الطبخ، وخدمة الطاولات. لكنَّه راح يقول إنَّ الحال ليس جيِّدًا على الإطلاق، وإنَّه لن يستطيع دفع أجرتي. لذلك، أرسلني إلى أحد أصدقائه، ياسين، وهو لبنانيّ أيضًا، صاحب متجر يبيع فيه الأسلحة. ظاهريًّا، كان متجرًا عاديًّا في كلِّ شيء. تمرّ أمامَ بابه ولا تشكّ في شيء. في واجهته، لا ترى إلَّا أجهزةَ راديو وتلفاز وسلسلةً من أجهزة قارئة أقراص الصوت المدمجة. لكنْ في الصدر، يوجد بابٌ مغلقٌ يُفضي إلى حُجرةٍ تُخزَّن فيها البنادق والرشَّاشات. وفي ساعات معيَّنة، يأتي رجالٌ لأخذها. كان ياسين يدفع بسخاء. ولسوء الحظّ، لم أستطع الاستمرار. ليس بسبب مضايقات رجال الشرطة الذين يراقبوننا، ويدخلون شاهرين مسدَّساتهم في أيِّ وقتٍ إلى المتجر بحجَّة التحقُّق من دفاتر الحسابات؛ وليس لأنَّ ياسين كان يعاملني كأنَّني خادمه، وكلّ هذا لأنَّ لوني أكثر سوادًا منه، أعرف هذا. السبب الحقيقيّ هو خوفي الشديد من الكلاب التي أحرس معها المتجرَ أثناء الليل. في الساعة السادسة من مساء كلّ يوم، حين يسترخي ياسين وهو يدخِّن لُفافةَ حشيش، كنتُ أضطرُّ للذهاب من أجل إحضارها من عند شخصٍ يُدعى ليونيل. كان ليونيل يسكن في مزرعةٍ هناك، في ضواحي كينسكوف، ويجني مالًا وفيرًا من تأجير الكلاب الشرسة من أجل الأمن: كلاب درواس ودوبرمان

الألمانيَّة، وكلاب الحراسة الحمراء وكلاب البيتبولس. كنت أصعد سيَّارة بوسطة، وأنزل في المدينة سيرًا على الأقدام مع كلبيْن، عمومًا دانماركيِّين، أعلى منِّي، وأضخم منِّي، وأنا أمسك قيادهما. حين يصبح الكلبان في الخارج، يبدآن في الجرْي وهما ينبحان ولعابهما يسيل، ويفغران شدقيْهما الحمراويْن المزروعيْن بأنيابٍ بيضاءَ قاطعة كأنيابِ التماسيح الاستوائيَّة. وعندما يرانا الناس ينتابهم الذُّعر، ويهربون. كنتُ مرغمًا على التشبُّث بقيادهما بكلِّ قواي، والركض بمثل سرعة هذه المخلوقات الجهنَّميَّة أثناء النزول، أو الصعود حينما أُعيدها عند الساعة الرابعة صباحًا. كان يجب ألَّا نأكلَ أمامها، لأنَّ رائحة الطعام تهيِّجها. وألَّا نديرَ لها ظهرنا إطلاقًا، وإلَّا قد تنقضّ علينا.

وفي النهاية، انهارت أعصابي بعد بضعة أسابيع. إذا تابعتُ، سأصبح مجنونًا. كان ياسين غاضبًا. وفؤاد أيضًا. ولكنْ، لأنَّ قلبه طيِّبٌ وناصعُ البياض، لم يقل شيئًا. ولا أدري كيف انتهى إلى إيجاد «مُهَرِّب»، خلاسيٍّ قصيرٍ وبدين، يأتي من سانتو دومينغو. طلب سبعمائة دولار أميركيّ لنقلي إلى جزيرةٍ أخرى في المنطقة. كنتُ أفضِّل الذهاب إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، والانضمام إلى ابن عمِّي فلوريمون في ميامي. كان فلوريمون يعمل مثلي في «العصابات الصغيرة». وفجأةً، أخبرني ذات يوم: «سنموت جميعًا إن لم نرحل من هنا. ما سيحدث لنا، هو أنَّنا سنتلقَّى أعيرةً ناريَّة وسط بطوننا، ونُنفَق بطريقةٍ أسوأ من الكلاب». لم أشأ الإصغاء إليه. وها أنذا أندم على ذلك. لكنْ، ثمَّة جداولُ معدَّة سلفًا. الأعلى تكلفةً هي لمن يريد الذهاب إلى

الولايات المتَّحدة الأميركيَّة أو كندا. كانت ثلاثة آلاف دولار أميركيّ! وكان فؤاد يدفع في تلك الأثناء، كما أخبرتك بهذا، نفقاتِ شقيقتيَّ المدرسيَّة.

حين عرفتُ أنَّني سأُغادر وأترك ميريام وجهيرة، شقيقتيَّ الصغيرتيْن اللتين أعبدهما، شعرتُ بحزنٍ شديد، وهما أيضًا تألَّمتا. ورحنا نبكي طوال الوقت. فغضب فؤاد:

«أنت من أردتَ الرحيل! في رعاية الله!»

الله! هكذا كان يُسمِّي إلٰهه الواحد.

كانت السفينة سنكو *دو مايو* تنتظر صعودَ ركَّابها في خليجٍ صغير، قرب قريةٍ تُدعى ديسبيراسيون. كان يجب أن أستقلّ ثلاثَ سيَّارات بوسطة للوصول إليها. سرنا لمدَّة أربعة أيَّام. كانت أوَّلَ مرَّةٍ أغادر فيها بورتوبرنس. لم أرَ في حياتي جبالًا بمثل هذا الارتفاع، فشعرت بالخوف. كان بؤس الناس مخيفًا أكثر أيضًا. رحنا نتوقَّف عند الظهر للبحث عمَّا يؤكل. لكنْ في الأسواق، لم يكن يُباع شيء. عثرنا أحيانًا على بعض حبَّات الأكاسان، وثمارِ فاكهةٍ غير ناضجة. وطفقنا نسير ليلًا خوفًا من الهجمات. كان الأطفال يبدون عجائز، وآباؤهم يبدون زرقًا كأنَّهم خرجوا من المقابر مباشرة.

وأخيرًا، وصلنا إلى ديسبيراسيون.

كان بحَّارة سنكو دو مايو زنوجًا إنكليز. اثنان قادمان من جامايكا، والآخرون من الدومينيك. لكنَّهم يتكلَّمون بطلاقة اللغة الكريوليَّة. كانت حمولتها خمسةً وعشرين شخصًا. ومع ذلك،

وضعوا على متنها خمسةً وثلاثين شخصًا!

هكذا، صادفتُ رينيت، صباح المغادرة، في شارع ديسبيراسيون الرئيسيّ. كنتُ أشتري قبَّعةَ قشّ، بسبب حدَّة الشمس على البحر. وهي أيضًا. وحتى ذلك اليوم، لم أكن قد نظرتُ قطّ إلى امرأة. كان بمقدوري أن أحصل على ما أشاء من النساء. حين تحمل سلاحًا، بندقيَّةً، تحظى بالنساء اللواتي ترغب بهنَّ. هذا يجذبهنَّ. بدت لي رينيت جميلةً للغاية، حتى كدتُ أركع أمامها كما أركع أمام صورةِ القدِّيسة مريم العذراء. شعرتُ على الفور أنَّها ليست شخصًا عاديًّا. فهي لا تُلقي تحيَّة الصباح على أحد، ولا سيَّما على نكرة مثلي، وغلام سابقٍ في ميليشيا الرئيس لا يعرف حتى كتابة اسمه. لذلك، لم أقترب منها.

نحو الساعة الخامسة مساءً، سلكتُ الطريق إلى رصيف الركوب، لأنَّ السفينة ستنطلق ليلًا. حين وصلتُ، وجدتُ الناس في نقاشٍ طويل مملّ: الغالبيَّة لا تريد أن تصعد رينيت إلى متن السفينة لأنَّها حبلى. وكانوا يصرخون:

_ *وإذا جاءها المخاض، ماذا سنفعل؟*

أنا، لم ألاحظ بطنها، وتركَّز كلَّ اهتمامي على تأمُّل عينيْها. لذلك، بادرتُ إلى الدفاع عنها. لا أدري كيف تولَّيْت الأمر، أنا من لا يعرف التحدُّثَ أمام الناس ومن يخاف من كلِّ شيء! نجحتُ في استمالة البحَّارة إلى جانبي، فأقلُّوها على الرَّغم من كلِّ شيء. أنتَ تظنّ أنَّها شكرتني على ما قمت به؟ حتى لم تنظر إليّ.

ابتعدتِ السفينة عن شاطئ البحر وسط هتافات الوداع، والتبريكات والصلوات. على رصيف الميناء، كان أبو السافانا يرسم شاراتِ الصليبِ الكبيرة في الهواء؛ والركَّاب يبتهلون: «يا يسوع، ارأف بنا».

اتَّضح منذ اليوم الأوَّل أنَّ رينيت لا تريد الاختلاط بالآخرين. ظلَّت منزويةً في ركنها. وحين لم تكن تتقيَّأ في الأكياس البلاستيكيَّة التي سلَّمها البحَّارة لنا، كانت تستلقي على مقعدٍ، تُغطِّي رأسها بقطعة قماشٍ تحت قبَّعتها. أدركتُ بوضوح أنَّها لا تريد أن يزعجها أحدٌ ليجرَّها إلى المشاركة في أحاديثَ عابثة يقودها آخرون: مع أو ضدَّ الرئيس السابق، مع أو ضدَّ الحكومة الانتقاليَّة المفروضة من الأميركيين الذين هم أسيادنا، كما يعرف الجميع. ماذا سيُفيدها أن تُتعب لسانها؟ رأيُنا لا يهمّ أحدًا. ولم تكن رينيت ترغب أيضًا أن تنشد التراتيل الطقسيَّة المعتادة ذاتها أو أغانيَ غيرها، رومانسيَّة، أو مرثيَّات. كانت تُغمض عينيْها وتتظاهر بالنوم. أقول صراحةً «كانت تتظاهر»، لأنَّني كنت أعرف أنَّها خلف أجفانها المسبلة، لم تكن نائمة. في الحقيقة، كيف تستطيع النوم؟ في حرارةٍ تشبه حرارةَ الحريق، وضوءٍ يحرق قاع العينيْن، ورائحةٍ تلتصق بالأسنان واللثَّتيْن، وتدخل إلى الحلق فتدفع إلى التقيُّؤ. لم يكن يوجد أيضًا على متن السفينة مراحيض. كان الركَّاب، نساءً ورجالًا، يدخلون إلى ما يشبه الخيمة نصبها البحَّارة في مؤخِّرة المركب، وتحوي سطلًا صحِّيًّا مع ورق. وهناك يقضون حاجاتهم. وبعد ذلك، يُفرغون السطلَ ويغسلونه في البحر حين يستطيعون.

أمَّا أنا، فكنتُ أتعذَّب. رحتُ أفكِّر في شقيقتيَّ وفي فؤاد أيضًا. وشعرتُ أيضًا بالخوف ممَّا ينتظرني في نهاية الرحلة. وأثناء الليل، لم يكن يغمض لي جفن. ومن حولي، حتى أولئك الذين ينامون، كانوا يطلقون صرخاتٍ فظيعةً في نومهم، أو يتذمَّرون أو يشتمون.

البحر، إنَّه رهيب!

أينما وقفتَ تتأمَّله، يبقى هو نفسه. ليس مثل منظرٍ طبيعيّ، سواءٌ جميل أو قبيحٌ، فيه أجزاءٌ متمايزة. أو مثل وجهٍ بعينيْن تتحرَّكان يمينًا أو يسارًا، وفم يبتسم أو يكشِّر. إنَّه اللون ذاته في كلِّ مكان، أمواجٌ تتدافع متشابهة، من هنا وهناك، مع شواهد زبدٍ بيضاء باهتة. وطوال النهار، كنَّا نكتوي بالنار. وبعد ذلك، حين تغطس الشمس، نرتعد بردًا. وتُطبق ظلمةٌ قارسة البرودة. كانت هذه التقلُّبات في درجة الحرارة ترهق الجسمَ، وتذهب بالعقول. وبعد بضعة أيَّام، لم نعد نقوى على تحريك إصبعنا الصغير. ظلَّ البعض قابعًا ومتقوقعًا، مثل جذوع أشجار البيي بوا.

في صبيحة اليوم الخامس من الإبحار، نهضت امرأةٌ لم تتفوَّه طيلة الرحلة بحرفٍ واحد، وظلَّت تقرأ الكتاب المقدَّس من الصباح إلى المساء، وبدأت تغنِّي أغنية هاييتيَّة معروفة:

أوراق أشجار أنقذت حياتي،
حين غرقتُ في اليأس
أوراق أشجار أنقذت حياتي..

وفيما هي تغنِّي، أخذت تخلع ملابسها قطعةً تلو الأخرى،

تنُّورتَها، صدارَها، حمَّالةَ نهديْها، سروالَها الداخليّ، وراحت تقذفها في الهواء. وظلَّت عارية. لم يتسنَّ لنا الوقت لننزعج. تسلَّقتْ حافَّة المركب، وانزلقت في الماء. وعندما أدركنا ما يحدث، بحثنا عن عوَّامة. لكنَّها توارت في الأعماق، وعادت المياه إلى طبيعتها. بعد ذلك، جاءت رينيت وجلست بجانبي. هي أيضًا، كانت مضطربة مثل الجميع. سألتني: «ما اسمك؟»

كانت تتكلَّم الفرنسيَّة! لم أكن مخطئًا. لم تكن طفلة البؤس مثلي. لكنَّها مثلنا جميعًا، كانت طفلةَ العنف. أشياء كثيرة لم تخبرني بها قطّ، لكنَّني خمَّنتها. أظنُّها غادرت هاييتي، لأنَّ رفيقها الصحفيّ قُتِل. مثل فوي هينوك، ومثل الكثيرِ والكثيرِ غيره. كان قد كتب في صحيفته أشياءَ لم ترق للرئيس. لذلك، خافت على نفسها وعلى طفلها الذي تحمله في بطنها. لم أسمح لنفسي البتَّة أن أطرح عليها مزيدًا من الأسئلة.

بعد ثمانية أيَّام من الإبحار، وصلنا إلى وجهتنا. واضطررنا أن نمكث يومًا كاملًا في جزيرةٍ صغيرة تُدعى «لاتيت آلانغليه». كان هناك الكثير من خَفَر السواحل يقومون بدوريَّات على زوارق سريعة، يتجوَّلون في دوائرَ خشية أن يصطدم بعضها بالآخر، ويصوِّبون بنادقهم الرشَّاشة في كلِّ الاتِّجاهات. يبدو أنَّ ذلك الركنَ كان ملتقى مهرِّبي المخدِّرات، وبعضهم يأتي حتى من كولومبيا. ولمَّا هبط الليل، جاء بعض البحَّارة لأخذنا، وقادونا إلى ميناءٍ آمن. كنت أعرف عنوانَ أحد الهاييتيِّين، يُدعى ماغلوار، يؤجِّر غرفًا للنوم. فذهبنا إليه.

أحببتُ هذه البلاد حالما عرفتها. وجدتُ فيها كلّ ما أحتاجه

من شرابٍ وطعام. كانت المتاجر طافحة. وليست فارغة كمتاجر هاييتي. وبذلك، كان الناسُ هادئين على الدوام. لم تحدث فوضى قطّ، ما عدا في أوقات الكرنڤال. عندها، كان الناس يحتشدون ويركضون في الشوارع، متنكِّرين وضاربين على الطبول الكبيرة. وللأسف، سرعان ما أدركتُ أنَّهم لم يكونوا يحبُّون الهاييتيِّين. لماذا؟ هل بسبب اعتناقهم ديانة الفودو؟

وجدتُ أنا ورينيت عملًا في مزرعةٍ نموذجيَّة تُربِّي الدجاجَ والدِّيَكة الروميَّة والدجاجَ الفرعونيّ. من أصل خمسين عاملًا، كان نصفهم على الأقلِّ هاييتيِّين. أعطوني وزرة لأربطها حول خصري، ووضعوني في فريق التنظيف. ولأنَّ رينيت تعرف القراءةَ والكتابة، وتتقنُ اللغةَ الفرنسيَّة، وضعوها في مكتب الإدارة. كانت تتلقَّى ضعفَ أجري، ورحتُ أشعر بشيءٍ من الخجل حين كنتُ أُحضر راتبي.

هي من طلبت منِّي البقاء معها، ليس لأنَّها تريد مضاجعتي. أدركتُ على الفور أنَّ هذا النوعَ من الأفكار لا يراود ذهنها. لم تكن تفكِّر إلَّا بصديقها ليو، الذي يتمتَّع في نظرها بجميع الصفات. كانت تحتاجني بالأحرى كخادم. ومن جهةٍ أخرى، كانت تشعر بالخوف. كانت تخاف خوفًا شديدًا أن تسكن لوحدها في بيت وسط الغابات. تخاف الحشراتِ الليليَّة التي تومض مساءً، والرعدَ الذي يقصف، والريحَ التي تزوبع وهي تصفر وتُسْقِطُ على الأرض ثمارَ المنغا وثمارَ الخبزيَّات، والوطاويطَ التي تندسُّ مرفرفةً تحت صفيح السقف. لكنَّني لاحظتُ أنَّ الأمر لا يقتصر على ذلك وحسب. كانت تخاف لسببٍ آخر: أمرٌ

يعذِّبها. ما هو بالضبط؟ لم أعرفه قطّ. كانت تقضي ساعاتٍ تنصت إلى الضجيج. وفي الليل، كانت تراودها الكوابيس. كانت تخال أنَّهم سيأتون لقتلها أو أذيَّتها. من؟

«هل تسمع؟ هل تسمع؟ كانت تهمس.

ـ أجل، أسمع! كنت أُجيبها ضاحكًا. الرياحُ التي ترمي المنغا على الأرض، والمطرُ يهطل على صفيح السقف. لا شيء سوى هذا!»

كنت أهدهدها مثل طفلٍ رضيع. وذات ليلةٍ، ضممتها إلى صدري على هذا النحو. فكان لا بدَّ من أن يحدث ما حدث. فعلنا ما يفعله رجلٌ وامرأةٌ معًا. أنا، كنتُ أحبّها. أمَّا هي، فلم تحبُّني قطّ. حين كانت تخطئ وتناديني «ليو»، لم أكن أهتمّ بالأمر: هو، مات، ورقد تحت التراب. أمَّا أنا، فكنتُ حيًّا. إذًا أنا الرابح.

كانت تحتاجني أيضًا، لأنَّها لم تكن تعرف أن تصنع شيئًا بيديْها. كنتُ مربِّيتها، وخادمَها، كما قلتُ لك! كنتُ أغسل ملابسها الداخليَّة، وحتى سراويلها، وأكوي، وأطبخ طعامنا، وأنظِّف المنزل. وكنتُ أهتمّ على الأخصِّ بالحديقة. وهناك، اكتشفتُ أنَّني أحبُّ الأشجار، والعرائشَ، والنباتاتِ، والأزهار. كان الأجدر بي أن أولدَ في بلدٍ آخر، وليس في حيٍّ فقيرٍ من الصفيح والأخشاب. ومع هذا المطر الذي لا يتوقَّف عن الهطول، كان لديَّ الكثير من العمل. وفي غضون يوميْن، إن لم أنتبه، كانت الأعشاب تحاصرنا.

جاء الموت ليُنهي هذه السعادة، لأنَّ تلك هي السعادة. تركتني وراءها. أنا شابّ، وأمامي سنوات لأعيشها.

إذا جئتُ إليكَ اليوم، فليس لأحدِّثكَ عن رينيت وعنّي. إنَّما جئتُ لسببٍ آخر، أكثر أهمِّيَّة. لم تنفكّ رينيت تردِّد على مسمعي:

«لديَّ شعورٌ داخلي سيِّء. لن أعيش طويلًا.»

كنتُ أهزّ كتفيّ:

«ما الذي تفكِّرين فيه؟»

كانت ترتعش.

«أشعر أنَّ أمرًا ما ينتظرني، وأنَّ هناك من يترصَّدني. وذات يوم، سينقضّ عليَّ وستكون نهايتي.»

قبل موتها بيوميْن، أتذكَّر تلك اللحظةَ كما لو كانت هذا الصباح، جاءت إليَّ وأنا أقطف ثمرة خبَّازيَّات من أجل الغداء. كانت دموعها تسيل على وجنتيْها:

«حلمتُ حلمًا، أعرف أنَّني سأموت في أثناء الولادة.

ـ توقَّفي عن التفوُّه بهذه الترَّهات.

ـ أعهدُ إليكَ بطفلي. إنَّه طفلكَ بعض الشيء، طفلتكَ لأنَّها ستكون بنتًا، لأنَّك مارستَ الجنس معي أثناء الحمل. أتوسَّل إليك، أعدها إلى البلد.»

صرختُ:

«إلى البلد؟ أنتِ مجنونة!»

ألحَّت:

«أجل، إلى البلد. ماذا تريد؟ ليس لدى المرء إلَّا وطنٌ واحد، مثلما ليس لديه إلَّا عائلةٌ واحدة مهما كانت قيمتها. لا أريد لطفلتي أن تترعرع عند الأجانب، ولا سيَّما في بلدٍ يكرهون فيه عِرقنا. لديَّ أخت، ستريلا. وهناك أيضًا مربِّيتي تونين التي ربَّتنا بعد موت والديْنا. والدم لا يصير ماء. آمل على الرَّغم من كلِّ شيء أن ترأفا بطفلتي، فهي بريئةٌ بلا أب ولا أمّ، ولم تؤذِ أحدًا. عدني أنَّك ستعيد لهما طفلتي.» مكتبة سُر مَن قرأ

وقلتُ نعم. عندئذٍ، ذهبتْ وأحضرت الكتاب المقدَّس، وجعلتني أقسم عليه. وإذا لم أقل شيئًا حين سرقتَ طفلتها على مرأى منِّي ومن عينيْ إيفليز، وأيضًا إن لم أجب حين جاء الناس يطرحون عليّ شتَّى الأسئلة، فذلك لأنَّ الطفلةَ في أفضل حال معك.. أنت دكتور، شخصٌ محترم، شخصٌ مهمّ، عندك مال في المصرف. رفقتك أفضل بما لا يُقاس من رفقة أمثال إيفليز وأمثالي. لكنَّني لن أدعك وشأنك أبدًا، إن لم تحترم الوعد الذي قطعته لأمِّها أن أُعيدها إلى بلدها بين عائلتها. أنت لم تذهب في حياتك إلى هاييتي، أليس كذلك؟ إنَّه بلدٌ أصبح خطِرًا، خطِرًا جدًّا، قد يختطفونك، أو حتى يقتلونك. لا يمكنك أن تذهب هناك لوحدك. يجب أن أرافقك.

نظر إليه باباكار محتارًا. لم يكن يسعه إلَّا التفكير في هذا الحديثِ الغامض، واللهجة المهدِّدة أحيانًا. مع أيِّ نوع من المجانين كان يتعامل؟ ثم تذكَّر أنَّ الألم يُخبِّل. ألم يجعله فقدانُ الزوجة التي كانت زوجته لفترةٍ وجيزة والتي أحبَّها بكلِّ جوارحه مجنونًا بالفعل؟ وتطرَّق موڤار إلى موضوعٍ كان يعذِّبه كلّ يوم:

كان يشعر بالندم على الطريقة الغريبة التي استولى فيها على آناييس. لكنَّه لم يفكِّر مذّاك في الذهاب إلى هاييتي ليُعيدها إلى عائلتها المزعومة. أمَّا الهيئة الحامية لهذا الغرّ الذي عاش العنف في كلِّ حالاته، فكانت تضحكه.

وضع موقار مغلَّفًا على طاولة المكتب:

ـ *لديَّ صور لك.*

وفوق ذلك، وكأنَّ عَرْضه لا يمكن أن ينالَ إلَّا القبول، نهض وخرج.

ظلَّ باباكار فترةً مديدة متأمِّلًا، ومتفاجئًا من التعاطف الذي أوحى به هذا المجنون على الرَّغم من كلّ شيء. خال أنَّه يعرفه منذ وقتٍ طويل. كان يشبه ابن عمّ، أو أخًا صغيرًا، أو أنَّه هو نفسه شخصٌ آخر خرج من بين فخذَي امرأةٍ فقيرة، وليس من بين فخذَي الجميلة ثيكلا مينيرف. راح ينظر بارتياب إلى المغلَّف البنِّيِّ الذي أحضره الآخر. كان يمقت الصُّوَر: يحتفظ بالنزر اليسير منها، وقد أضاعها في حياة تشرُّده وفوضاه. صورة شخصيَّة لجدَّيْه، يجلسان بوقارٍ على مقاعدَ بلا مساندَ في فِناءِ منزل العائلة. والده بلباس وجهاء أنيق، وأمُّه مبتسمةٌ تحت شعر إفريقيّ كثيف. وهنا، الوجه مخفيّ بنظَّارات ضخمة سوداء.

من المغلَّف، يُخرج ثلاث ورقات مسطَّرةٍ ومكتوبٍ عليها بخطٍّ سيِّء، وصورة شخصيَّة، ونحو عشر صور فوريَّة باهتة، مصفرَّة، بلا أيِّ قيمة فنِّيَّة. كانت الصورة الشخصيَّة لشابٍّ خلاسيٍّ بتقاطيع إيطاليَّة حادَّة. إحدى اللقطات الفوريَّة تمثِّل ثنائيًّا، بهيئةٍ

ميسورة. المرأة ترتدي ملابس كريوليَّة فضفاضة، وتتقلَّد قلادةً ثقيلة. لقطة فوريَّة أخرى لطفلٍ رضيعٍ يُشبه آنابيس. العيون الواسعة ذاتها، والجبهة المحدَّبة نفسها. وتلك اللقطة تُظهر فتاةً صغيرةً نحيلة في فستان ذي ثلاثة كشاكش. والبنيَّة ذاتها تُعطي يدها لمربِّيةٍ بثوبٍ فضفاض، ووزرةٍ بيضاء، ومنديلٍ ذي مربَّعات. وهنا، أشخاصٌ يرتدون بأناقة يضحكون ويرفعون كؤوسهم، جالسين فوق شرفة. راح باباكار يتفحَّص بنوعٍ من الشفقة هذه القصاصات الورقيَّة التي تسمح مثل حصى عقلةٍ الإصبع بفكٍّ لغز هويَّة رينيت الفريدة، ظاهريًّا «مهاجرة غير شرعيَّة»، وفي الواقع، قد تكون شيئًا آخر تمامًا. لا الصورة الشخصيَّة ولا الصور العاديَّة تحمل أيَّة ملاحظات على قفاها. لا تاريخ، ولا اسم مكان. أمَّا الأوراق، فتُشير إلى مجموعة عناوين، غامضة مثل الكتابة الهيروغليفيَّة:

منزلنا، 100، شارع ترفاي ـ بوا باتات.

بير ديودات تيولاد ـ كاتدرال البون روبير

مدام سيدوني بيو، 50 جادَّة جان ـ جاك دوسالين، جاكميل

جان كالودا، 96 ديلماس

استأنف باباكار معايناته بلا حماسة.

حين فحص آخرَ مريضة، وبما أنَّ كُلَّ شيءٍ على ما يرام ـ لا حمل خارج الرحم ولا مخاطر إجهاض أو ولادة مبكرة ـ عاد باباكار إلى منزله، حيث تهتمّ يدا كلوي رانغان الماهرتان بآنابيس. في أشهرها الأربعة، صارت الطفلة متيقِّظة على نحو

لافت. أصبحت تجلس الآن. وإذا وُضعَتْ على الأرض، تحاول أن تحبو. وما أقلق باباكار، هو أنَّها لم تكن مرحة. وفي أغلب الأحيان، تنتفض بلا سبب، ثم تبدأ تتفحَّص الفراغ، كأنَّها تسمع أصواتًا وترى أشكالًا لا يُدركها الآخرون.

ـ ماذا تُخفين عنِّي في رأسك الصغير؟ يسألها وهو يغطِّيها قُبَلًا.

طبعًا، هي لا تُجيب.

خرج باباكار بهدوء ليذهب، كما في كلِّ يوم، ويصطحب هيغو مورينو في نزهة.

ـ قال له صديقه القديم وهما ينزلان نحو الشاطئ في الأسفل، لأنَّه بالنسبة لهيغو، لم يكن يمرّ يوم من دون أن يزور البحر: في البلدة، يتحدَّثون عنك بالسوء!

ـ كيف عرفتَ؟ سأله باباكار ساخرًا، وأنتَ لا تخرج من بيتك إطلاقًا.

اتَّخذ هيغو مظهرًا جدِّيًّا:

ـ مجموعة رجال، من بينهم المدعو أريستوفان، جاؤوا للقائي، شرح...

ـ وماذا أخبروك؟

ـ لا يهمّ! أريد سماع الحقيقة منك. ألم تفعل شيئًا مع تلك المرأة الهاييتيَّة؟

ـ لا، لا شيء! اعترف باباكار.

ـ إذًا، هي ليست ابنتك! لماذا أخذتها؟

ـ الأمر في غاية التعقيد. يومًا ما، سأشرح لك، هذا وعد.

همهم هيغو:

ـ كنتُ قديمًا في هاييتي. يا لها من جزيرة رائعة! لكنْ على الرَّغم من حيويَّتها، ستكون أولى الجزرِ المختفية. تتحالف الطبيعة ضدَّها. وهي تغرق فعلًا في البحر.

لبضع دقائق، تابعا نزهتهما بصمت، وكرسيّ هيغو يرتجّ فوق الصخور. لم يكن الشاطئ ممهَّدًا في هذا المكان مثل شواطئ الشمال، رمال ذهبيَّة، وأمواج هادئة، وإنَّما خليجٌ صغيرٌ مفتوح على الأطلسيّ نرى منه أمواجًا تتدافع من خطِّ الأفق البعيد. يصل ارتفاعها أحيانًا عدَّة أمتار.

ـ قال هيغو: لا أطلب إلَّا شيئًا واحدًا، أن يُنثر رمادُ رفاتي هنا حين أموت. فوق المحيط. ولا أروم إلَّا أمرًا واحدًا: أن أتَّحد بهذا المُلك.

عادا عند حلول الليل. كانت بوبيت، المرأة المتكفِّلة بكلِّ شيء، تحضِّر طعام العجوز.

كانت كارمن تترقَّب عودة باباكار، وقالت في غاية الحماسة:

ـ ليس الناس هنا فقط من يضمرون لك الحقد. الهاييتيُّون أيضًا غاضبون، ويريدون إطلاق شعوذتهم عليك.

ـ هذا فقط! يضحك باباكار. لن تزعجني ليلةٌ بين أحضان إيرزولي، آلهة الحبِّ. بالتأكيد ذلك سيُعطي نكهةً لحياتي.

قال مدير المدرسة إنَّ المحكمة ستُجري لك اختبارَ أبوَّة: فحوصات دي إن إي.

قهقه باباكار بقوّة أكثر:

ـ فليحاولوا!

ـ لا تسخر! احتجَّت. شقيقه هو مفوَّض شرطة في المدينة. أنا، أتساءل كيف يمكن لشخصٍ مثلك أن يسعى وراء امرأةٍ هاييتيَّة غير شرعيَّة.

كان صوتها مشحونًا بالازدراء، لأنَّها هي، كانت خلاسيَّة. بشرتها شبه بيضاء وشعرها أسود، مجعَّد. كان أجدادها من الفلَّاحين الإسبان. وفي الأصل، جرى التعاقد معهم لستَّة وثلاثين شهرًا، ولم يستطيعوا العودة إلى ديارهم بعد فترة كدِّهم، فاستقرُّوا في بوندروزا. حافظوا على دمائهم نقيَّةً ما أمكن، أي من دون اختلاطٍ كبيرٍ مع الزنوج.

بالنسبة لكارمن التي تعرف باباكار حقَّ المعرفة، ليس لهذه القصَّة أيّ معنى. لم يكن زيرَ نساء يُلقي بذاره هنا وهناك. وراحت تتذكَّر كيف اضطرَّت إلى إغوائه العام الماضي.

ذات صباح، دخل إلى صالون الحلاقة، وسأل عن سعر قصَّة الشعر. وكانت ضربة نهاية الأسبوع. كانت ابنتا العمّ اللتان تشغِّلهما بلا مقابل في عطلة نهاية الأسبوع منهمكتيْن في الصبغ والضفر، والتسبيل على البارد وحتى التسبيل على الساخن للشعر الجعد القديم، حين الشعر القاسي يصرخ ويتذمَّر. تركت الصندوق، وهُرعت نحو هذا الزبون غير العاديّ، وسألته بغنج:

ـ قصّ، بالتأكيد! هل تفضِّل المقصّ أم آلة الجزّ؟

هزَّ كتفيْه، حائرًا.

ـ المقصّ، أفضل! أكَّدتْ له.

وهي تستخدم المقصّ، حدَّثته عن نَدبته.

ـ من فعل بك هكذا؟

داعب وجنته متفكِّرًا:

ـ إنَّها ذكرى حرب.

دُهِشَتْ بشيءٍ من المبالغة:

ـ الحرب؟ هل خضتَ حربًا؟

ـ إن شئتِ. كانت هنالك حرب في بلدي. لم تعد قائمة الآن. كلّ شيء عاد إلى طبيعته. وأعداءُ الأمس أصبحوا أخوةَ اليوم.

راح يتحدَّث بسخريةٍ شديدة. قصّ شعره على الصفر، وانصرف من دون أن يدفع إكراميَّة. ومع ذلك، شَعَرَتْ أنَّ ذلك ليس بخلًا، وإنَّما شرودًا بسيطًا. كان تفكيره في مكان آخر، هذا كلّ ما في الأمر.

وبعد يومَيْن اثنيْن، انتظرَتْ ساعات في عيادته بحجَّة فحص لطَّاخة مهبليَّة. لم يتعرَّف عليها، وأوكل أمرها إلى إحدى ممرِّضاته. ومع كلّ ذلك، ناورت حتى نجحت في الحصول على دعوةٍ لرؤية الورود التي تنبت بكثافة في حديقته. وحين أصبحت في المكان، لم تجد صعوبةً في التمدُّد على سريره. دامت علاقتهما مدَّة عام، ولم تجد سببًا للتذمُّر. كان عاشقًا شاردَ الذهن، لكنَّه يقوم بعمله حين يلزم الأمر.

ـ ما رأيكِ أن أغادر إلى هاييتي؟ سألها. هذا سيضع حدًّا لكلِّ هذه الإشكاليَّات.

ـ إلى هاييتي! لا يوجد شيء يؤكل في ذاك البلد، وهناك الشعوذة؛ وفوق ذلك، السود والخلاسيُّون يكرهون بعضهم بعضًا، ويقتتلون.

ـ هذا ليس جديدًا. ومن جهةٍ أخرى، أنا معتاد على هذه النزاعات العبثيَّة، أكَّد. هل نسيتِ ما قلته لكِ؟ أمضيتُ سنينًا في بلدٍ غارق في حربٍ أهليَّة عبثيَّة؟

لِنَعُد إلى قصَّة ثيكلا وباباكار تراوري الأوَّل التي قطعناها.

إنَّ قدوم أيِّ طفل إلى أسرةٍ يُغيِّر قلب أبيه! لذلك نلاحظ تغيُّرًا قد يكون جذريًّا أحيانًا. فالرجال الأكثر جبنًا يصبحون جسورين، والأكثر تخوُّفًا يصبحون شجعانًا. ومن أجل مولودٍ ذكرٍ، هم مستعدُّون لمواجهة أسوأ مخاطر القدر. على أيِّ حال، هكذا نفسِّر الانقلاب المفاجئ لطبع باباكار تراوري الأوَّل.

بعد أن جرَّدوه من وظائفه كوزير بشكلٍ مخزٍ، وبُعَيْد نجاته من السجن، أقسم ألَّا يتدخَّل ثانيةً في السياسة أبدًا. السياسة، راح يردِّد على من يُريد سماعه، لعبةٌ قذرة لا تناسب إلَّا الأغبياء! وفي منفاه في تيغويري، كانت صحيفته تُخبره بنزوات السلطة.

يا للعجب! ها هو بعد ولادة ابنه، يبدأ كتابة رسائلَ طويلة، ويضاعف محاولاته للتصالح مع رجالٍ في مناصبهم، أولئك الذين هم أنفسهم نبذوه ولطَّخوا سمعته. وتكلَّلت جهوده أخيرًا بالنجاح. وبعد أشهر من المساومات، عُيِّن وكيل وزارة التنمية المستدامة. على ماذا يستند ذلك؟ لا يهمّ! سبق أن قلنا: الأساسيّ، هو أن يكون المرء وزيرًا، فهذا لقبٌ يحتفظ به حتى الممات.

شعرت ثيكلا باليأس بسبب منصب زوجها الجديد. بدايةً، كانت تكره السلطة وترَّهاتها. سيَّارةٌ فخمة، وفيَّلا وظيفيَّة ذات حديقة يصونها بعناية عمَّالٌ جائعون من بوركينا فاسو. لم تترك لها باماكو إلَّا ذكرياتٍ غير سارَّة حين كانت تقوم بجولةٍ على مدراء المدارس الذين لم يرحِّبوا بها في مدارسهم. وفي تيغويري، لم تهمّها العزلةُ التي وُضِعَتْ فيها. كان يكفيها أن تضمّ إلى صدرها زوجًا محبًّا، وابنًا قويًّا، لتشعر بالرضى. يُضاف إلى ذلك، لم يكن بوسعها الاستمرار في العمل من دون زَوَغان. لذلك، تركت التعليم، وحُكِمَ عليها بالخمول الشاقّ. حاولت كثيرًا أن تسجَّل في جمعيَّة «لابارول أو نيغريس» التي كانت تُدافع عن حقوق النساء الزنجيَّات المُهانات عبر القارَّة، لكنْ حتى هؤلاء المناضلات ارتبنَ في لون عينيْها. ارتبط بها اسم «المشعوذة» ارتباطًا وثيقًا على نحوٍ متزايد. وعلى مرأى منها، وبناءً على نصيحة كَهنةٍ وثنيِّين، راحت خادماتها يحرقنَ الملحَ والأعشاب التي تحميهنَّ من الأرواح الشرِّيرة. وبعد قدومها بأشهرٍ إلى المدينة، ولدت طفلًا ميِّتًا، فتاةً صغيرة. وبدل أن يتعاطف الناس مع حزنها، اتَّهموها أنَّها أكلت المولودةَ الجديدة. لكنِ الأسوأ هو تغيُّر سلوك زوجها باباكار تراوري الأوَّل. وبين عشيَّةٍ وضحاها، أَلْفَت ثيكلا نفسها متزوِّجةً برجلٍ مع التيَّار، منشغل بالاجتماعات والمؤتمرات والندوات عندما لا يكون مسافرًا إلى أيِّ مكان. وتجدر الإشارة إلى أنَّ باباكار تراوري الأوَّل ظلَّ، ويا للعجب، شغوفًا بها ووفيًّا لها على الدوام. والحقيقة، أنَّه لم يكن يقدِّر العذابات التي تعانيها رفيقته. وكانت القصص التي تدور حول عينيْ ثيكلا تُسلِّيه.

ـ بالتأكيد! راح يؤكِّد وهو ينفجر ضاحكًا. الناس محقُّون. أنتِ مشعوَذة. أنتِ مشعوَذتي الحبيبة!

كان باباكار الصغير مغرمًا بأمِّه مثل كلِّ الأبناء الوحيدين. وقد شعر بالحزن من الفطام ومن الابتعاد المحتوم عنها عدَّة سنتيمترات. وكان يتحسَّس جوَّ الإبعاد والعزل الذي يُحيط به، ويتعذَّب. وفي الوقت نفسه، كانت ثيكلا مشكلة. لم تكن تكلِّمه إلَّا بسخريةٍ عن موطنه الأصليّ سيغو. وكان هذا يُزعجه بشدَّة. وهكذا، أليس هنالك مكانٌ يرتاح فيه؟

كانت لحظاتُه الوحيدة، إن لم تكن السعيدة، فعلى الأقلّ الهادئة، تقتصر على العُطَل المديدة التي يقضيها بين عائلة والده. كان أبوه وأمُّه يصطحبانه بسيَّارتهما المرسيدس ذات العلم الصغير إلى ميناء كوليكورو الصغير. ولقطع المسافة في النهر، يعهدان به إلى قبطان المركب الجنرال سوماري، وهو قاربٌ شهد أيَّام عزٍّ. بُنِيَ لينقل نحو مائةِ مسافر، وراح ينقلُ ثلاثةَ أضعاف هذا العدد. مع ذلك، كانت إدارة النقل النهريّ تتباهى به. وعلى الرَّغم من عمره الكبير، لم يوقفه أيُّ عُطلٍ قطّ. وحين يسمح منسوبُ المياه، يذهب بجسارةٍ حتى جاو، مارًّا بسيغو وموبتي. عندئذٍ، يصبح باباكار شخصًا مختلفًا. هو المنعزل والمهمل، يغدو ملكًا مدلَّلًا، يُحتفى به ويفرض رغباته. كان صبيًّا يسافر وحده، ويشغل مقصورةَ الدرجة الأولى قبالةَ سماءٍ زرقاء تجوبها غماماتٌ مشرَّدة. وكان الأطفال المتزاحمون في جميع الدرجات وعلى السطح يتشاحنون لقضاء بضعِ لحظاتٍ برفقته. والفتيات يقدِّمن له ما يمكنهنَّ تقديمه. في صباح اليوم الثالث، حين يصل إلى سيغو،

يلمح بفرح ظلَّ جدِّه المحدودب قليلًا على الرصيف البحريّ.

لم تكن عائلة أبيه تسكن إحدى القُلل الفاخرة ذات المسابح، التي انتشرت كالفطر بعد الاستقلال، ولا حتى منزلًا يرجع تاريخه إلى زمن الاستعمار، تُحيط به شرفةٌ ذاتُ أعمدة. كانت تشغل عقارًا قديمًا، عمارته متميِّزة، غير بعيدٍ عن السوق المركزيّ. تُزيِّن واجهتَه العالية على الطريق كواجهة المصرف، المرمَّمة بعناية بعد أضرار الشتاء، منحوتاتٌ أو رسومٌ مثلَّثةُ الشكل ومنتهيةٌ بأبراجٍ صغيرةٍ ذات ارتفاعاتٍ متباينة. يتألَّف من سلسلة باحاتٍ يعيش فيها أبوان، وأبناءُ عمّ، وبناتُ عمّ، وأعمامٌ، وعمَّاتٌ، وأبناءُ أخ، وبناتُ أخ. وكانت معرفته أنَّ كلّ هؤلاء الناس يحملون مثله اسمَ العائلة تراوري تملأه بإحساسٍ غامضٍ بالأمان. وفي سيغو، وإن لم ينسَ أمَّه الحبيبة، إلَّا أنَّ ذكراها تتلاشى. كان يتوه بتلذُّذٍ في سراديب نَسَبه. ويغدو حلقةً صغيرةً في سلسلة، وُلدت من مئة رحِم. كان جدُّه يجعله كلَّ يوم يسجد في الصلوات الخمس، تلك التي لم يهتمّ أحدٌ لأمرها حين كان في باماكو وفي يوم الجمعة، يقوده جدّه إلى المسجد وقد تزيَّن بقفطانٍ قطنيٍّ فاخر.

ـ يربِّيانك مثل كافر! كان يتذمَّر. أنتَ سليلُ أوَّلِ شهيدٍ من البامبارا في الإسلام.

ووراءه، كان باباكار يردِّد بخشوع الشهادةَ:

ـ لا إله إلَّا الله.

ثم يُصغي بشغفٍ إلى تاريخ العائلة وهو يجلس متربِّعًا في ظلِّ شجرةٍ وارفة في الباحة الأولى، شجرةٍ يُناهز عمرها المائة عام،

كانت شاهدةً كما يبدو على حياة أجيالٍ من عائلة تراوري.

ـ تذكَّرْ ذلك جيِّدًا، راح أحمد يكرِّر على مسامعه. إنَّنا ننحدر مباشرةً من تييكورو، الابن البكر من أربعة أبناء للمستشار الملكيّ دوزيكا. اكتشف لوحده الله الحقّ، وسافر للدراسة في جامعة سنكوري، وأصبح أوَّلَ متنوِّرٍ فينا. وفي سبيل الله، أُعدِمَ على بضعة أمتار من هنا، في فِناء قصر منسا. وظلَّ ضريحهُ لزمنٍ طويل مكانًا للحجِّ. كانوا يأتون إليه للتأمُّل من جميع أصقاع البلدان الإسلاميَّة، حتى من باكستان البعيدة. ثم أزال الفرنسيُّون المقبرة التي كانت تضمّ رفاته، وشيَّدوا مكانها محطَّةَ حافلات. تزوَّج تييكورو أولى زيجاتِه من عبدةٍ أصولُها من بليدوغو التقاها في تمبوكتو. كان اسمها نادية. شكَّت في حبِّه لها، فانتحرت بإلقاء نفسها في بئر. لم يتقبَّل العزاءَ فيها قطّ. هذا مثالٌ جليٌّ على العلاقات الإنسانيَّة. يفصلنا سوء فهم أبديٍّ عن أعزِّ الناس إلى قلوبنا!

قصَّ عليه جدُّه أيضًا تاريخ أمبراطوريَّة سيغو. وكان يشقّ على بابكار أن يصدِّق أنَّ هذه المدينةَ الصغيرةَ المبتذلة والقذرة، المملوءة بالمتسوِّلين، كانت عاصمةً، ومدينةً مزدهرة ومرهوبة بأسوارها الطينيَّة المهيبة.

«خلال ستَّة عشر عامًا، حكم المنسا نغولو ديارّا سيغو. وقبل موته، استشار كهنته الوثنيِّين عن سبيلٍ لتخليد ذكراه. فنصحوه أن يضع أقراطًا ذهبيَّة في خياشيم مائة وعشرين تمساح كايمان. بحيث إنَّ اسمك، كما أكَّدوا، لن يزول ما دامت تماسيح كايمان موجودة في النهر.»

وضع أقراطًا ذهبيَّة في خياشيم تماسيح الكايمان! كان باباكار يُصغي إليه، متعلِّقًا بشفتيْه، متحسِّرًا، لأنَّه لم يولد في زمنٍ كان من شأن أمورٍ خارقةٍ كهذه أن تحدث فيه. ويوم السبت، كان العجوز والولد يقصدان غالبًا الدجامب، حيث يجتمع فيه أشهرُ عازفيّ البلد فيما يشبه الفِناء الخلفيّ، ويغنُّون لساعاتٍ متواصلة. أوه.. يا لروعة الكورا! كانت أجراسُ العلامات الموسيقيَّة المصاحبة للأصوات البشريَّة ترتفع، وتملأ الليلَ بفيضٍ متناغمٍ يهزّ أركان الوجود. وكان المفضَّل لدى العجوز هو علي فاركا توريه:

ـ سيكون له شأنٌ عظيم! كان يؤكِّد.

يدلُّ ذلك أنَّه، على الرَّغم من إعتام عدستَيْ عينيْه بسبب تقدُّمه في السنِّ، كان يُبصر بوضوح. لأنَّ شهرة علي فاركا توريه ستصبح فيما بعد عالميَّة. وحين مات في عام 2006، أعلن البلد بأسره الحِداد عليه.

لكنَّه، وعلى الرَّغم من الحبِّ المتَّقد الذي يكنُّه جدُّه له، والمتعةِ التي يشعر بها لأنَّه برفقته، إلَّا أنَّ سعادته لم تصل قطّ إلى السعادة التي كان يشعر بها عندما يجد نفسه في كوخ جدَّته المظلم والفوضويّ، المزدحم بالسِّلال والقرع والطنافس والمآزر. وعلى الرَّغم من مظهرها، إذ لم تكن تتجاوز قامةَ ووزنَ بُنيَّة في عمر العشرة أعوام، كانت تُعطي انطباعًا هائلًا بالسلطة. كانت إحدى القابلات الأوائل في إفريقيا السوداء كما يسمُّونها، تأهَّلت في مدرسة روفيسك المشهورة في السنيغال. في ذاك الوقت، كانت الولادة تعني للمرأة التعرُّض لخطر الموت، بينما بلغت معدَّلاتُ وفيَّات الأطفال الرضَّع مستوياتٍ مرعبة. راحت تروي ظمأ

حفيدها، وتقصّ عليه حكاية جولاتها على ظهر حمارٍ أو بغلٍ في الأدغال إلى القرى الأشدِّ فقرًا والنائية. لم يبدُ للفتى أنَّ هنالك ما هو أكثر إثارة من تلك الصراعات التي تنتصر فيها الحياة على الموت.

ـ عندما سأصبح كبيرًا، سأفعل مثلك! يُقْسِم لها.

لكنَّها تنفجر ضاحكةً:

ـ هيّا! القبالة ليست مهنة رجل!

لماذا؟ كان يتساءل وهو محبَط. لماذا لا يمكن للرجال إلَّا أن يحملوا الموت: جنودٌ وطيَّارون انتحاريُّون وقتلة متسلسلون؟ ألا يسعهم أن يكونوا أيضًا مولِّدين للحياة؟

وفي النهاية، ظنَّ أنَّه وجد ضالَّته، وسُجِّل في قسم التوليد بكلِّيَّة الطبِّ في مونتريال. هل كانت سترضى عن هذا الخيار؟ وماذا كانت ستقول فيه؟

لم يتحدَّث جدُّ وجدَّة باباكار عن ثيكلا قطّ، ولم تطأ قدما هذه الأخيرة أرض سيغو قطّ. كأنَّه لا وجود لها بعينيْها الزرقاويْن، وأصلها الكاريبيّ، وسمعتها السيِّئة. مرَّةً وحيدة سمحت فيها الجدَّة لنفسها أن تُطلق حُكْمًا على كنّتها:

ـ ثيكلا، قالت بأسى، شخصٌ لا يؤمن بشيء. وهذا أمرٌ رهيب بالنسبة لها!

وحين بلغ باباكار عامه الرابع عشر، انتهى كلّ ما عاشه في طفولته دفعةً واحدة، لأنَّه فَقَد في بضعة أشهر متباعدة أعزّ ثلاثة أشخاص إلى قلبه في العالم. في البداية، تعرَّضت جدَّتُه لنوبةٍ

قلبيَّة وقضت نحبها. ولم يعش جدُّه بعدها، فمات هو أيضًا بعد ثلاثة أشهر. وفي النهاية، رحلت أمّه. لم يعرف أحدٌ قطّ إن كانت ثيكلا ماتت موتًا طبيعيًّا أم انتحرت، حتى لو بدا الافتراض الأخير ضعيفًا، لأنَّها كانت أشدّ تعلُّقًا بابنها وزوجها من أن تتركهما. وبالنسبة لحالات صداعها النصفيّ، راحت تمضغ أغلب الأحيان جذور الفيغارا، وهو نباتٌ ينمو على ضفاف البُرَك والمستنقعات. وفي عصر أحد الأيَّام، لبثت في غرفتها إلى ما بعد ساعة القيلولة، وحين دخلت خادمة لتوقظها، وجدتْها متصلِّبة، يغطِّي زبدٌ أبيض شفتيْها. وباءت جهود إنعاشها بالفشل.

ولأنَّها كانت اعتنقت الإسلام في ذلك الحين، إرضاءً لزوجها، فقد دفنوها بحسب الشريعة الإسلاميَّة. وحملوا جثمانها الملفوف بكفن أبيض ودفنوه في التراب. عندئذٍ، انطرح باباكار أرضًا، هامدًا، وظلَّ ثلاثة أشهر لا يتكلَّم ولا يفتح عينيْه. وفي نهاية المطاف، التفت إلى الحياة لأنَّها الأقوى دائمًا.

عاش الباباكاران تراوري، الأب والابن، غريبيْن أحدهما عن الآخر، صامتيْن، كلٌّ واحد منهما منطوٍ على نفسِه في منزلٍ فسيح تعمُّه الفوضى. لم يحبّ الابنُ في حياته الأب الذي يغار منه. حمَّله مسؤوليَّة نهاية ثيكلا. وبعد فترةٍ قصيرةٍ من موت أمّه، عثر وهو يفتِّش في أغراضها على سلسلة مخطوطات يدويَّة ممهورةٍ بعناوينَ برَّاقة، أعادها ناشرون فرنسيُّون مع رسائل مفعمة بعبارات المديح المرائية. وهكذا، علم أنَّها حلمت في أن تصبح كاتبة. وبالتالي، آمنت بشيءٍ ما! بالأدب. لكنَّه لم يؤمن بها...

مع ذلك، ولعلَّه هنا يكمن الأكثرُ إدهاشًا في هذه القصَّة

الغنيَّة بكلِّ أنواع الاحتمالات مثل الحياة، لم تتخلَّ عن ابنها. ظهرت له في فترة نقاهة وهو ينام نومًا محمومًا. في أبهى جمال لها، جمالٍ لم يرَها فيه قطّ.

ـ لا تصدِّق أنَّني تخلَّيتُ عنك، همستْ له. هذا مستحيل. لن تفقدني أبدًا حتى وإن لم أعد أظهر لك إلَّا تحت جنح الظلام، في أحلامك. الأحلامُ حقيقيَّةٌ أكثر من الواقع. بالتأكيد، أنت تعرف أنَّ الوقائع الوحيدة هي الوقائع التي تولد من الخيال.

لذلك، اعتادت أن تسكن أحلامه. راحت تظهر كلَّ ليلةٍ تقريبًا، عمومًا في ساعات نومه الأولى، ممزِّقةً حُجُب الظلام المتراكمة حول جبهته. وطفقت تساعده على حلِّ مشاكله، وتلقِّنه قراراته. باختصار، كانت تتدخَّل في أيِّ فعلٍ من أفعاله كمستشارة. وفي الصباح الباكر، حين تجبره الشمسُ على فتح عينيْه، يبكي لأنَّه سيفارقها من جديد. في الحقيقة، حاجته إليها لم تهدأ.

في الشهر التالي، وقع حدثان لا رابط لأحدهما بالآخر. في البداية، مات هيغو مورينو. فجأةً، ومن دون سابق إنذار، جاءت بوبيت المضطربة لتخبر باباكار الذي يتأهَّب للذهاب إلى عيادته. توفِّي العجوز أثناء نومه. ظاهريًّا، من دون معاناة، لأنَّ وجهه ظلَّ هادئًا؛ وليس عليه سوى التجاعيد وآثار الشيخوخة. ونحو منتصف الليل، وصل ابنه أنطونيو، مستعجلًا، ليُعيد جثمان والده إلى وطنه الأمّ. ضمَّ إلى صدره باباكار الذي دُهِشَ من تألُّمه إلى هذا الحدِّ، كأنَّ والده هو من مات فعلًا!

ـ كان يحبّك مثل ابنه. لم يتفاهم معي قطّ.

استطاعت بوبيت أن تجمع الجيران، وارتجلت صلاةً مسائيَّة مع أزهار بيضاء، ونساءٍ يرتدين ثيابَ الحِداد السوداء، ومسابحَ في الأيدي، ودنَّ نبيذ. ولأنَّ الطقس كان جافًّا على غير العادة في ذلك اليوم، استطاع الجيران أن يُضيئوا سريرًا من الشموع أمام دار الميِّت؛ وجاء جانكي كوزاك، الحكواتيّ، يندب «يي كريك» (هل تنام المحكمة) و«يي كراك» (لا، المحكمة لا تنام)، لأنَّه لا يجوز عدم احترام الموت حين يعبر.

بعد بضعة أيَّام، احترق منزلُ موقار في عزِّ الليل مثل ورق لُفافات التبغ. لم يستطع المسكين أن ينقذ سوى سرواله الداخليّ الذي كان يرتديه للنوم.

أثَّر موت هيغو على باباكار تأثيرًا مرعبًا. ورغم البهجة التي استمدَّها من وجود آناييس، ازداد شعوره بالوحدة، والوحشة والهجران. وظلَّ ينزل كلّ يوم إلى الخليج الصغير كما اعتاد أن يفعل مع هيغو، ويحدِّق في شاهدة ضريح البحر الواسعة. وأُضيف إلى ألمه، أنَّ زُبُنَه تضاءلوا على نحوٍ مقلق. وقد كتب أحدهم على باب عيادته مسروقة. ونثروا حاوياتِ قمامةٍ مملوءةً بالنفايات أمام منزله. وراحوا يرمون الحجارةَ كلّ مساءٍ على بوَّابة بيته. وأخيرًا، أكَّدت له كارمن أنَّ مسؤول العلاقات العامَّة ريكاردو دو سوزا اعتلى المنبر ليفضح تجَّار المعبد، أي الرجال من أمثاله.

لذلك، فعل ما لم يسبق له أن فكَّر بفعله من قبل: بحث عن

عائلة أمِّه، آل مينيرف. ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن. ونظرًا للاضطرابات التي تُميِّز عصرنا، المجبول على الهجرات، وحالات التشرُّد والنفي بحثًا عن البقاء على قيد الحياة، تراكض الناسُ ذات اليمين وذات اليسار مثل نملٍ مُبَاغَت، ولم يعد معظم آل مينيرف يعيشون في البلد. وتشتَّتوا مثل الكثيرين غيرهم. يوجد العديد منهم في سارسل، رمزها البريدي 95، وطبعًا هناك فرعٌ في مرسيليا يعيشون قرب دير سان ـ ماكلو، وفرعٌ آخر في لِيل عند آل شعتي. وفي غوادلوب، من قبيلة أخطبوطيَّة، لم يبقَ سوى دزِّينتيْ رجال ونساء، وكذلك عددٌ كبيرٌ من الأولاد. لأنَّهم، والحمد لله، ظلُّوا يتناسلون. طحن باباكار شبكة الأنترنت، وعثر على أثر امرأةٍ تُدعى روزا مينيرف إكسلزيور، بصَّارة في دوبليسي، وظلَّت الرسالة التي وجَّهها إليها بلا ردٍّ.

ولأنَّ دوبليسي لا تبعد سوى خمسين كيلومترًا تقريبًا، قصدها على درَّاجة عاديَّة. ومع أنَّه وصل إلى أمام المنزل الصغير المطليّ بالأزرق بحسب التقاليد، لم يطاوعه قلبه على الجلوس بين الزبائن الذين ينتظرون في الرِّواق، وقفل راجعًا أدراجه.

في اليوم التالي من احتراق منزل موڤار، جاء يرنّ جرس باباكار، مرتديًا لباسًا غريبًا، بدا واضحًا أنَّه ليس له: سترة أديداس فضفاضة على جسده النحيل لونها أخضر زيتونيّ. أخبره بما حدث قبل أن يعتذر منه بشدَّة. للأسف، جميع أبناء بلده يتضوَّرون جوعًا مثله. وفي المزرعة النموذجيَّة، رفضوا أن يعطوه سلفةً على راتبه، رغم المصيبة التي أصابته. ولم يجد إلَّا باباكار ليقرضه بضعة يوروهات. أعطاه باباكار المبلغ التافه الذي طلبه،

وجعله يوافق على النوم عنده مجّانًا.

وحين استقرَّ موقار في المنزل الجديد، شعر بشيءٍ من الراحة، وقال في سرِّه إنَّه فقد أبًا، لكنَّه كسب أخًا شابًّا لطالما حلم به!

وسرعان ما أثبت موقار أنَّه ليس جاحدًا. أخذ بالعمل، وحوَّل النطاق الذي تنمو فيه عشوائيًّا الأعشاب الضارَّة وأعشاب غينيا إلى روضٍ حقيقيٍّ من رياض الله. وجاء الناس من أماكنَ بعيدةٍ مثل فيوهابيتان لمشاهدة أزهار الأوركيد. وعلاوة على ذلك، زرع الخضراوات، وجنى الطماطم والقرع والجزر والباذنجان الثقيل كنهود النساء. وعلى الأخصّ، ساعد كلوي رانغيان، وتكفَّل بجميع المهامّ غير المحبَّبة التي تتطلَّبها رعاية طفلة رضيعة. كانت آناييس مولهةً به. بالتأكيد، كان باباكار معبودها بلا منازع. حين يكون حاضرًا، لا تنظر إلَّا إليه، ولا تقبل أحضانًا غير حضنه. لكنَّها كانت تخاطب موقار بمناغاة وهمهمات متواطئة، كأنَّها تشعر أنَّهما مجبولان من الطينة نفسها. وإزاء غضب كلوي العارم التي كانت تطلب ألَّا يتحدَّثا أمامها إلَّا بالفرنسيَّة الفرنسيَّة، راح يكلِّمها باللغة الكريوليَّة، ويُغنِّي لها طقطوقات من بلده. وفي الليل، كان يُبقي بابَ غرفتها مفتوحًا، لأنَّه غالبًا ما راودت الصغيرةَ أحلامٌ توقظها. وهو وحده من يفلح في إعادتها إلى النوم.

«هل تفكِّر في أمِّها؟» كان هذا السؤال يرهق باباكار حين يلفيان نفسيْهما عند رأس آناييس المحمومة وعينه تلمع.

يحقّ لنا أن نتساءل ماذا لدى رجليْن على هذا القدر من الاختلاف، أحدهما يحمل شهادةً من كلِّيَّةٍ مرموقة في طبِّ التوليد، والآخر أُمِّيّ، ليتحدَّثا به. كانا يجلسان كلّ مساءٍ بعد تناول العشاء، وآنايِيس في سريرها، أمام *إبريق من شراب الأعشاب المجفَّفة* في ركنٍ من الرواق قبالةَ ستارة الليل المعتمة، ويتحدَّثان مطوَّلًا. موقار يُصغي، وباباكار يتحدَّث عن اثنيْن. كان يبوح بأشياءَ لم يبح بها لأحدٍ في حياته. كان يحبّ صمت موقار، بقدر ما يعبِّر عن تفهُّمٍ يُغني عن أيَّة إجابة.

ـ حين كنتُ صغيرًا، كنت أقلق باستمرار، وأخاف خوفًا شديدًا من الليل. كانت أمِّي تأتي وتضعني في السرير، ثم تحكي لي حكاية. وحرصتْ على ألَّا تروي لي إطلاقًا حكايات كريوليَّة من بلادها، ولا حكايات البامبارا. كانت تذهب وتجلب *أليس في بلاد العجائب* للكاتب لويس كارول أو *بائعة الكبريت الصغيرة* للكاتب هانس كريستيان أندرسن، أحد كُتَّابها المفضَّلين. وعندما تنتهي القصَّة، تطبع قبلةً على جبيني، وتنسحب. وأظلّ وحيدًا أبكي في الظلام. وذات مساءٍ، شعرتُ بألمٍ شديد لأنَّها لم تبقَ معي، فمشيتُ إلى الغرفة التي تشغلها في الطابق الأوَّل. ولمَّا وصلتُ إلى هناك، سمعتهما يتحدَّثان. ميَّزتُ صوت أبي الجهوريّ، وألصقتُ أذني بقوَّة على خشب الباب.

«حبيبتي، أنا أعبدك!» كان يزمجر.

وردًّا عليه، راحت تضحك ضحكًا لم أسمعه منها قطّ، ضحكًا من القلب، مفعمًا بالشهوانيَّة. نزلت السلّم، محطَّمَ القلب، ينتابني شعورُ أنَّني تماديتُ.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت أكره أبي، وأغار منه. صرتُ أعتبره غريمًا، ووضيعًا.

وذات مساء كان القمر فيه مكتملًا، أخذ باباكار يروي قصَّةَ حياته. لم يكن قد كشف من قبل إلَّا شذراتٍ منها لموقار. تحدَّث بتجرُّدٍ غريب، وحتى بسخرية، كأنَّ هذه الآلام والمِحَن أصابت شخصًا آخر غيره!

حكاية باباكار

لو أنَّ أمِّي عاشت زمنًا أطول، لاختلف مسار حياتي تمامًا. أنا واثق من ذلك. لكنَّها تخلَّت عنِّي باكرًا، وتركتني بهذا القلب الخَلِيّ الذي لم يشغله أحدٌ قطّ، رجلًا أو امرأة. لم يكن أوَّل خطأٍ ارتكبَتْه هو أنَّها «مشعوذة» كما كان يُشاع، وإنَّما هو أنَّها بارعةُ الجمال. يكره الناس الجمال، فهو يُخيفهم ويُزعجهم. وحين يصادفونه يتناولون حجارةً في أيديهم ليرجموه. لذلك، ظلَّت أُمِّي جريحةً على الدوام.

خطأُها الثاني هو أنَّها لم تُقِم وزنًا للقِيَم التي يتمسَّك بها البشر، ويستخدمونها «حجر الزاوية» في حياتهم. وحتى إنَّها راحت تسخر منها علنًا. المفارقة أنَّها عانت من عزلتها، ومن الضجر.

رغبتُ بالموت حين رحلتْ عن هذه الدنيا. وإذا كان أبي قد عاش بعدها من دون حزن كبير، فذلك لأنَّه انهمك في أنشطةٍ

عديدة لم تعطِ معنًى لحياته، لكنَّها ملأتها. ولأنَّه لم يزل شابًّا، فقد حدث أحيانًا، عند مغادرتي إلى المدرسة، أن صادفتُ نساءً دفع لهنَّ من أجل قضاء ليلةٍ معهنَّ، وهذا ما كان يغضبني ويزيد احتقاري للجنس. أنا، لم أكن قبيحًا أو مشوَّهًا. ومع ذلك، لم تكن الفتيات يهتممن بي. ولم يكن لي مغازلاتٌ، ولم أحظَ بعشيقات. لم أكن أعرف القُبَل والمداعبات والملامسات. وبدا لي عضوي الذكريّ عضوًا زائدًا ومزعجًا لا نفع منه، لا سيَّما حين كان ينتصب ولا أفلح في التحكُّم به. كنت أشعر بالخجل من ذلك، وأخفيه على قَدْر ما أستطيع تحت جلبابي. كانت الدراسة ملاذي الوحيد. في السابعة عشرة من عمري، حصلتُ على الشهادة الثانويَّة بتفوُّق. وقد أكَّد أساتذتي أنَّني موهوبٌ وفي غاية الذكاء. وبعد بضعة أشهر، أخبرني أبي أنَّه نظرًا إلى كشف علاماتي، حصلتُ على منحة في جامعة مونتريال في كندا. ويوم مغادرتي، أقلَّني أبي بنفسه إلى مطار موديبو كيتا. كان المطار غاصًّا بالحجَّاج، يعتمرون عمائمَ بيضاء، ويمسكون أباريق وضوئهم في أيديهم. كانوا يتأهَّبون للحجِّ إلى مكَّة المكرَّمة. وكانوا يعرفون أنَّ العديد منهم لن يعودوا إلى ديارهم، وقد يموتون تحت الأقدام في أثناء حالات التدافع المحتومة التي تحدث عامًا بعد عام. وعزاؤهم في ذلك، هو أنَّهم يفوزون بجنَّة الله من دون عناء.

فجأةً، أخذني أبي بين أحضانه:

ـ تذكَّر دومًا أنك من آل تراوري! أوصاني بانفعالٍ لم يكن من بين عاداته.

ماذا كان يقصد؟ وعلى ماذا حضنني فجأةً؟ لم يهتمّ قطّ بتربيتي، ولم يعلِّمني قطّ أيّ شيء يتعلَّق بالماضي أو الحاضر. بادلته العناق وأنا مندهش. كانت آخر مرَّة رأيته فيها. ومات بعد بضع سنين بسكتةٍ قلبيَّة، بسبب إفراطه في تجرُّع المنوِّمات. ولم أرجع إلى مالي لحضور الدفن.

لم أكن أعرف مدنًا أخرى غير باماكو وسيغو وتيغويري ـ ولكنْ هل تستحقّ هذه الأخيرة اسم مدينة؟ ـ وتوزَّعت حياتي بينها حتى ذلك الحين. في سنِّ العاشرة، اصطحبني والداي إلى كوناكري في غينيا، لأنَّ الحكومة كلَّفت أبي بمهمَّة هامَّة. وبينما انهمك في حضور اجتماعات متواصلة على مستوى القمَّة، استقلَّيتُ أنا وأمِّي الباخرة المتَّجهة إلى أرخبيل جزر لوس، والغاصَّة بنساءٍ وأطفالٍ من الجالية الروسيَّة ذاهبين للتنزُّه فيها. اغرورقت عينا أمِّي بالدموع. ذكَّرتْها هذه الشواطئ ذات الرمل الأبيض وأشجار جوز الهند المائلة ببلدها الأمّ الذي أمضت عمرها تذمّه، كما سبق وذكرت. أثارني انفعالها أكثر ممَّا ساءني التناقض.

وباستثناء هذه النزهة اليتيمة، لم أغادر مالي قطّ، ولم أسافر إلى أيِّ مكان إطلاقًا. فاجأتني مونتريال مثل صفعة. بدت لي المدينة فسيحةً ومكتظَّةً وحيويَّةً أكثر ممَّا تخيَّلتُ. رحتُ أتوارى لساعاتٍ في مراكزها التجاريَّة المبنيَّة تحت الأرض اتِّقاءً من البرد القارس. وتلاشيتُ في دهاليز المترو، تحت الأرض أيضًا. أربكتني هذه الحياة تحت الأرض التي ما كنت لأصدِّق أنَّها ممكنة!

سكنتُ في حيٍّ برجوازيّ، يُدعى أوترمونت، عند معارف أبي. زوجان من السينمائيِّين أخرجا للتلفزيون الكنديّ سلسلةَ أفلام وثائقيَّة حول إفريقيا. وفي كلِّ شهر، راحا ينظِّمان سهرةً للطلَّاب الأفارقة حتى يساعدوهم في مكافحة العزلة.

وأثناء إحدى تلك السهرات، تعرَّفت إلى حسن. وسرعان ما أصبحنا متلازميْن. ولم أزل حتى اليوم، لا أفهم أيّ فائدة جناها شابٌّ مثله من معاشرة شخصٍ كئيب ومملٍّ مثلي! لعلَّه كان راضيًا بالإعجاب المفرط الذي كنت أكنُّه له. وهل هنالك شيءٌ أكثر إبهاجًا للمرء من أن يرى نفسه محطَّ تبجيلٍ في نظر غيره؟

«آه، ما أجملني في هذه المرآة!» يقول لحن فاوست.

من المجحف القول إنَّ حسن كان وسيمًا. كان إلٰهًا. كان الرجال والنساء يتهافتون عليه. هل وقعتُ في غرامه؟ سيكون تأكيدُ ذلك تبسيطًا مفرطًا. لم تعذِّبني أيّ رغبة في الاستحواذ الماديّ. سأقول بدلًا من ذلك أنَّني رغبتُ أن أكون هو. كان يجسِّد ما تمنَّيت أن أكونه. كان أصله من شمال بلدٍ يتاخم بلدي.

ـ من الشمال! كان يحدِّد. لأنَّ الشمال ليس الجنوب. إنَّه الأرض المتمرِّدة. الأرض التي لا يركع الناس فيها إلَّا لله.

كان ينتمي من جهة أبيه إلى عائلةٍ ملكيَّة في دولةٍ صغيرة لم تنسَ شيئًا من ألَقها القديم، مع أنَّها أصبحت إقليمًا في مجموعةٍ معاصرة. في القرن الرابع عشر، وتحديدًا عام 1328 ميلاديَّة، قصد وليّ العهد، أفلاموي، مكَّةَ للحجِّ، ووزَّع ذهبًا وفيرًا، فانخفض سعر المعدن الثمين في جميع الأسواق. وكان حسن

يتحدَّر من جهة أمِّه من سلالة مقاوم مشهورٍ للاستعمار، يُدعى «المناضل الأخير»، أرسله الفرنسيُّون ليموت في المنفى في مدينة ڤيكتوريا في أرخبيل جزر سيشيل. كان تاريخ حسن، آخرُ سلالةِ الحكماء المجيدة، يمثِّل ملامح تاريخي ذاته. لكنْ عند هذا الحدِّ يتوقَّف كلُّ تشابهٍ بيننا. ليس فقط أنَّني لا أشعر بأيِّ فخر بأصولي، لكنَّني لا أتمتَّع بأيِّ إحساسٍ بالهويَّة العرقيَّة. كنتُ ماليًّا، لأنَّني وُلدتُ في مالي، وهذا كلّ شيء. بامبارا ومالينك وسونغاي، من الشمال، من الجنوب، من الشرق، لا يهمّ! بالتأكيد، لا بدَّ من أن يؤخذ بعين الاعتبار تأثيرُ أمِّي التي ربَّتني بمعزلٍ عن أيَّة نزعة تبجيلٍ لما كانت تصفه خرافاتٍ مزعجة.

وفي نواحٍ أخرى كثيرة، كان حسن نقيضي. ولأنَّ أباه كان سفيرًا، فقد ترعرع بين لندن وباريس ونيويورك ومدريد. كان يتكلَّم أربع لغات غربيَّة، إضافة إلى العربيَّة، ونحو عشر لغات إفريقيَّة. وكان على الأخصّ موسيقيًّا بارعًا، ومولَّهًا بالموسيقيّ توريالي هاشيمي، عازف آلات الإيقاع الأفغانيّ، وقد تعرَّف إليه حين كان يعيش في كابول في مرحلة مراهقته. اصطحب الجاهلَ الذي كنته إلى حفلٍ موسيقيٍّ أحياه مغنُّون من آسيا الوسطى، كشفوا لي عن سحر فنٍّ لم يكن لي سابقُ معرفةٍ به. وإلى جانبه، سرعان ما وجدت دورًا على مقاسي، وأصبحت منفِّذًا لأعماله المنحطَّة. كان يشعر بالحاجة الدائمة لجسد الفتيات، ويضاجعهنَّ في فراشه اثنتيْن أو ثلاث في آنٍ معًا. خدمتُهُ كجالب زبائن. ورحتُ أتقرَّب من اللواتي يثرن رغبته قبل اعتزالهنَّ. ومن وراء ظهري، كنت أعرف أنَّ الجميع يحتقرونني، ويلقِّبونني السمكة أو

«القوّاد»، بحسب اللغة الدارجة. هذا لا يهمّني. ما يهمّني هو أن أخدمه كعبد.

وبسبب حسن، قرَّرتُ المجيء والعمل في بلده، في إبيرنيا. كانت العيادة التي استأجرت خدماتي لأحد أصدقائه، شخصٌ شماليٌّ هو أيضًا، الدكتور سوماورو. لم يعد أبي على قيد الحياة، ولا أمِّي المعبودة، ولا جدَّاي الحبيبان. وأصبحتْ مالي، التي لم ترق لي قطّ، مقبرةً تضمّ حفنةً من القبور.

بدأت إبيرنيا دورها كعاصمةٍ إفريقيَّةٍ على شكل تجمُّع مضجر كثير الأمطار، ووجدتْ فيها مراكب الفرنسيين مرفأً مناسبًا، وراحت تشحن منتجات الألبان التي اغتنت بفضلها. حين وصلتُ إليها، كانت في أوج ازدهارها، وكان الأفارقة من جميع الجنسيَّات يتوافدون إليها. كانت تتألَّف تقريبًا من حيٍّ مركزيٍّ يُدعى «البلاتو» تتجمَّع فيه مراكزُ إداريَّة، وأبنيةٌ تجاريَّة وأحياءٌ سكنيَّة، بعضها برَّاقة وفاخرة، وأخرى قذرة ومزدحمة، وثالثة أيضًا فقيرة. وفي الحقيقة، كانت سلسلةَ مدنٍ مرصوفةٍ الواحدة بجانب الأخرى، بلا قاسم مشترك بينها، ومن دون أن يعيش فيها البشر ذاتهم. ولأنَّني لم أعقد صداقات، ما عدا حسن، رحتُ أتناول وجباتي على انفراد في «مطاعم الماكيز»، كما كانت تُسمَّى تلك المطاعم الرخيصة التي تقدِّم الطبخ المحلِّيّ. كنت أُلفي نفسي بين شبَّانٍ من عمري، لكنَّهم منفصلون عنِّي في كلِّ شيء. التربية، والوضع الاجتماعي، والطموحات المستقبليَّة. كانوا ينادونني «البترون» متظاهرين بالاحترام، ويقترضون منِّي بلا خجل فرنكاتٍ يحتاجونها.

ارتبطتُ بعلاقةٍ مع علي الذي يحرس مدخل مطعمي الماكيز المفضَّل، لاباش بلو، مرتديًا سترةً صينيَّة حمراء. كان مثلي من أصل مالي، ليس من سيغو، وإنَّما من كايس. ليس ثمَّة مستشارٌ ملكيٌّ في شجرة عائلته، ولا شهيدٌ في الإسلام. ينتمي إلى عائلةٍ قرويَّة هربت من البؤس بشكلٍ مشرذم. كان أحد أخوته يعيش في الكويت، وآخران في دبي، ورابع في القدس. وفي إبيرنيا، تأكَّدتُ إلى أيِّ درجة صدقت أمِّي في هذه المسألة على الأقلّ. ليست إفريقيا تلك ـ الأمّ ـ للجميع ـ ذات ـ الثدي ـ السخيّ التي يتباهى بها كلّ واحد. ليس ثمَّة أرضٌ أكثر لامساواةٍ منها ولا عديمة الشفقة على الضعفاء مثلها. واكتشفتُ، من دون أن أعرف ذلك، أنَّني جزءٌ من عالمٍ ضيِّقٍ من المحظيِّين. كان علي يروي لي طفولته، وحياته اليوميَّة، ونحن نحتسي الشايَ الأخضر بالنعناع. قبل ذلك ببضعة أشهر، وبتكلفةٍ باهظة، أقلّه مهرّب في شاحنة إلى موريتانيا. ومن هناك، سار على قدميْه حتى مليلة في المغرب على أمل الوصول إلى إسبانيا بالمركب، ومنها إلى فرنسا، الهدف النهائيّ لرحلته. واأسفاه! باغته رجال الشرطة المغاربة. أركبوه في شاحنة، ثم تركوه وسط الصحراء. رأى في بقائه على قيد الحياة وعدم موته بسبب ضربة الشمس، أو بسبب كثرة حروقها، برهانًا على سعة رحمة الله. لم تفتر همَّته على الإطلاق، وظلَّ يخطِّط للمغادرة نحو أوروبا حين يدَّخر القليل من المال. وحتى لا أصدمه، لم أجرؤ على التشكيك بسعة رحمة الله. واكتفيتُ بسؤاله:

ـ لماذا تريد الذهاب إلى فرنسا؟

ـ لأنَّه يوجد عمل هناك! يُجيبني بنبرةٍ ملهمة، كأنَّه يتحدَّث عن الله.

ـ وهناك أيضًا توجد العنصريَّة! أُجيبه.

لم يهتمّ بذلك، لأنَّ العنصريَّة ليست شيئًا جديدًا. توجد في كلِّ مكان.

كان مستوصف الدكتور سوماورو فخمًا فخامةً مذهلة. ولو أنَّه كان فندقًا، لحصل بلا عناء على تصنيف الخمس نجوم. تلد فيه زوجات وعشيقات وبنات أو كنّات كبار المسؤولين في النظام والأثرياء المغتربين، وزوجات الدبلوماسيِّين أو الموظَّفين الأمميِّين. ومن يعملون فيه يعتبرون أنفسهم محظوظين. ورغمًا عنِّي، نفخت أمِّي فيَّ كرهها وازدراءها للمال، فشعرتُ هناك بضيقٍ شديد. فضلًا عن ذلك، راحت المريضات يبادلنني النفور، ولم يتردَّدن في رفض متابعتي لهنَّ. وفهمتُ فيما بعد أنَّ كراهية الأجنبيّ موجودة هناك أيضًا.

لكنْ إن كنتُ أنا متميِّزًا، فماذا نقول عن حسن! كان ربيب السراي يشغل منصبًا رفيعًا في وزارة الخارجيَّة. ولم يراود أحدًا شكٌّ أنَّه سينافس عمًّا قريب أباه الذي أصبح الآن عجوزًا ومريضًا، ويعيش منزويًا مستبدًّا على أملاكه. راح البعض يتهامسون أنَّ اسمه يلمع كاسم رئيسٍ قادمٍ للجمهوريَّة. فقد خطب منذ فترةٍ قصيرةٍ ماري ابنة أخت الرئيس، وكانت مثله من الطائفة الكاثوليكيَّة. عمومًا، هذا يشكِّل مشكلة. سألتُ حسن عن هذا الأمر، فزجرني بعنف:

ـ أنت من يتكلَّم على هذا النحو؟ اعلم أنَّ الله هو الله، اسم الله. الواحد الجبَّار. أيًّا كان الاسم الذي يُطلقه الناس عليه.

انتهيت إلى معاشرة امرأة. حكايةٌ طويلةٌ للغاية وصادمة. وحسبي أن أقول إنَّ إيرينا، الخلاسيَّة المتحدِّرة من أمٍّ يونانيَّة وأب إثيوبيّ، كانت عشيقة حسن. حاولتِ الانتحار عندما هجرها. وبسبب مبالغتي في مواساتها، انتهيْت إلى مشاركتها فراشها. قَرَّبنا حبّنا المشترك الخائب لحسن، أحدنا من الآخر. وتفاهمنا على أكمل وجه، لأنَّ جسدي، على دهش منِّي، تذوَّق طعم الحبّ. لكنَّني كنتُ أنساها فور مغادرتي فراشها، وأنا واثق أنَّها كانت تنساني هي أيضًا.

في المستوصف، كان الدكتور سوماورو يقدِّرني كثيرًا. وعلى الرَّغم من إفراطه في حبِّ المال، لم تنقصنا القواسم المشتركة. كان رجلًا مثقَّفًا. ولم ينفكّ يأسف على عدم متابعة مسيرته في السينما، لأنَّه أثناء دراسته في لوس أنجلوس، أدَّى أدوارًا صغيرة عدَّة كرجل عصابات في أفلام الدرجة الثانية. ومن دون أن نصل إلى درجة الحميميَّة، رحنا أغلب الأحيان نشرب معًا القهوة أو عصير البرتقال، على شرفة حانة بيبيرازاد العصريَّة.

ـ آه! كان يتحسَّر. لو أنَّني أصبحتُ ستيفن سبيلبرغ الإفريقيّ! إنَّ سينمائيِّينا لا ينفكُّون ينتجون أفلامًا عن المَهر والزواج بالإكراه، أو عن ختان الإناث التي تُضجر كلّ العالم. لا يعرفون أن يبتكروا ويخلقوا شخصيَّاتٍ جديدة: مثل فيلم ماكس المجنون على سبيل المثال.

كنتُ أقدِّم أسماءَ محترمة كالسينمائيّ السنغاليّ سيمبين عثمان، والمخرج الماليّ سليمان سيسيه، والمخرج الماليّ شيخ عمر سيسوكو الذين لم أشاهد أفلامهم. فيهزّ كتفيْه، ويؤكِّد بلهجة جازمة:

ـ بالله عليك! كلّ هذا سخيف!

في نهاية العام، تزوَّج حسن ماري. وازدحم ثلاثمئة مدعوّ في القاعات الفخمة لفندقٍ استُئْجِر لهذه المناسبة، بعضهم بلباس البوبو الطويل، وآخرون ببزَّات جيورجيو أرماني من أحدث صيحات الأزياء. راح البعض يشرب الشمبانيا الورديَّة، وآخرون عصير البيزاب. كانت الغاية هي تجسيد وحدة ثقافتَي البلد، الإسلاميَّة والكاثوليكيَّة، الشماليَّة والجنوبيَّة، التقليديَّة والعصريَّة. باختصار، لم تكن الرموز غائبة.

كان والد حسن قد نزل من قريته. بدا هزيلًا وقد وضع قدمًا في الدنيا وقدمًا في الآخرة، ولم تكن ترافقه زوجته الأخيرة، وهي حسناءُ بعمر حفيدته، وعارضةُ أزياءٍ سابقة في داكار، كما نُمي إليّ. لم يمتعض أحدٌ من ذلك. وراح الجميع ينحنون أمامه. وحتى لا ينسى أحدٌ الروابط التي توحِّدهم، جاء الرئيس يحتفي بحضوره، واحتضن صديقه القديم بين ذراعيْه. كان الرجلان متشابهيْن. وجهان مستبدَّان مقدودان من جلدٍ مزخرف.

كان هذا الزواج أيضًا مناسبة للاستماع إلى حفلة موسيقيَّة رائعة. جاءت فرقة طنجير ـ تو من قيرغيزستان تلبيةً لدعوته بشكل خاصّ. لذلك، بدا كلّ شيءٍ يسير على أكمل وجه، كما قال

كانديد. مع ذلك، سيكون في غاية السذاجة من يظنّ أنَّ بوسعه التكهُّن سلفًا بالمستقبل، سواءٌ مستقبلُ كائنٍ إنسانيٍّ أو مستقبلُ بلد.

مات الرئيس الحالي فجأةً. ولم يكد يرقد في قبره حتى تدهورت الأوضاع. أوَّل انقلابٍ عنيفٍ ودمويّ، قاده أحد أبنائه غير الشرعيِّين الذي اعتبر أنَّه أُقصي ظلمًا عن السلطة. وسرعان ما تبعه انقلابٌ ثانٍ، انقلاب عسكريّ، أعنف وأكثر ضراوةً، دبَّره ضبَّاط جنوبيُّون لم يؤيِّدوا ابنًا غير شرعيّ. ونصَّب هؤلاء الجنود دقلديانوس على رأس البلاد، رجلٌ مدنيٌّ، وطالبُ إكليريكيَّة سابق، اختاروه لشهرته كمغفَّل ولخلفيَّته المباركة. وبأمر منهم، نظَّم دقلديانوس انتخاباتٍ على وجه السرعة، ليُعطي حكومته وجهًا شرعيًّا. وعلى ما يبدو، لم يتحقَّق هذا الهدف، لأنَّ اضطراباتٍ داميةً اندلعت في كلِّ مكان تقريبًا، خاصَّة في الشمال. وعندها، راحوا من دون سببٍ واضح يطردون «غير المواطنين»، بحسب تعبيرٍ سرعان ما شاع في كلِّ الأحاديث. وخوفًا من التجاوزات، اضطرَّت حشودٌ من بوركينا فاسو وغينيا والكونغو، وحتى من رواندا، يقيمون في البلد منذ أعوام، للتوجُّه نحو محطَّات الحافلات، وهربوا. وذات مساء، بحثتُ عن علي في باش بلو، فلم أجده. أخبرني ربُّ عمله أنَّه غادر ليحاول من جديد الوصول إلى أوروبا. وواسيت نفسي بهذا الرحيل قائلًا في سرِّي لعلَّ أوروبا تكون أكثر ترحيبًا بالأجانب من إفريقيا! للأسف، بعد وقتٍ قصير، أخبرتنا الصحف أنَّ زورق إنقاذٍ يحمل مهاجرين أفارقة غرق بسبب سوء الأحوال الجوِّيَّة في عُرض البحر قبالة جزيرة

لامبيدوزا. خلتُ أنَّ عليًّا من الغرقى، وأحسست أنَّني مسؤولٌ عن مصيره. وراحت ذكراه تلاحقني. وطفقتُ أرى منكبيْه العريضيْن المتناقضيْن مع ابتسامته الطفوليَّة. ألم يكن خليقًا بي أن أحميه كما يحمي المرء أخاه الصغير؟ فعلًا، لم أكن أصلح لشيء.

خلال تلك الفترة، ازداد الوضع السياسيّ اضطرابًا. سقطت الأقنعة عندما دُعيَ الشماليُّون فجأةً ليبرهنوا أنَّهم وطنيُّون مثل الجنوبيِّين. وبات واضحًا أنَّ كلّ هذه الدسيسة تستهدفهم فقط. وكردّ فعل، أعلنت الأقاليم الشماليَّة الانفصال. حاولتُ بلا جدوى أن أفهم شيئًا من هذه الأحداث غير المفهومة. ورحتُ أقول في سرِّي إنَّ الأمر يتعلَّق بأزمة نموّ، فظيعةٍ كشبيهاتها، لكنَّها قد تكون أقصر. في تلك الأثناء، جرى تكسير رتبة حسن في مناصبه الرفيعة بفظاظة. واتَّخذ الوزير على عاتقه عناء شرح الأمر على التلفاز موضِّحًا أنَّ الأمر عبارة عن عقوبةٍ تأديبيَّة، سببها عنجهيَّته كشماليّ. وهذا ما فجَّر الموقف. والأسوأ هو أنَّني لم أستطع قطّ مناقشة حسن لأستوضح الأمر منه: فقد توارى عن الأنظار. ومع أنَّني قصدت مكتبه وبيته، لكنْ بلا جدوى.

ذات صباح، وجدتُ المستوصف مضطربًا. هرب الدكتور سوماورو من البلد، ولجأ إلى نيجيريا. علمتُ مذهولًا أنَّه خشي على حياته. كان متواطئًا مع مدبِّر الانقلاب الثالث، الفاشل آنذاك. في منتصف الفترة الصباحيَّة، وبينما كنَّا نؤمِّن الفحوص والولادات قدر المستطاع، وصل جنودٌ يعتمرون الخُوَذ وينتعلون الأحذية العسكريَّة كأنَّهم يوشكون أن يخوضوا معركة. أخلوا بقسوة النساء النفساوات ومواليدهنَّ، وختموا المكان بالشمع

الأحمر. وبين ليلةٍ وضحاها، وجد الكادرُ الطبِّيّ نفسه في الشارع. شعرتُ بالصدمة. فقد تناولتُ القهوة مع الدكتور سوماورو قبل يوم أو يوميْن من اختفائه. لم تكن هيئته تشي بشيء. وسخر بتشاؤمه المعتاد من الفيلم الأخير لسينمائيٍّ كاميرونيٍّ. هرعتُ إلى بيت حسن، لأعرف رأيه في هذا الرحيل. وكالعادة، لم يكن موجودًا. أمضيتُ الليل بلا نوم، يتملَّكني توجُّسٌ رهيب.

لم أكن مخطئًا. علمت في اليوم التالي من برنامجٍ تلفزيونيٍّ أنَّ حسن هرب بدوره. إلى أين؟ كانت إبيرنيا تضجّ بشائعاتٍ متناقضة. البعض يؤكِّد أنَّه غادر ليلحق بالدكتور سوماورو في نيجيريا، وآخرون يرون أنَّه لجأ إلى عند أبيه في الشمال. ورحتُ أتساءل هل ترك ماري لوحدها! وخوفًا عليها، هرعتُ من جديد إلى بيته. ومع أنَّ الوقتَ صباحيّ، كانت الڤيلَّا مكتظَّة بالناس. وثمَّة حشدٌ حقيقيّ يتزاحم حول المسبح. استقبلتني ماري، بعينيْن جافَّتيْن، وقدح شمبانيا في يدها. بدت القلوبُ منشرحةً ومبتهجةً للغاية، والوجوهُ ضاحكة. وحتى كان هناك عازفُ غيتار ومغنٍّ.

ـ ماذا تريد؟ سألتني ماري بنبرة زاجرة.

لم تكن علاقاتنا حارَّة قطّ، وكنتُ أغار منها، وتغار منِّي. لكنَّها لم تُظهر لي من قبل مثل هذه العدائيَّة.

ـ عرفتُ من الأخبار أنَّه هرب! قلتُ متلعثمًا.

ـ لحسن الحظّ! قالت ببرود. كنَّا على وشك اعتقاله.

ـ اعتقاله؟

ـ كلبٌ شماليّ، شَتَمَتْ، لن يفلت من العقاب. سنحضره أينما اختبأ. وسنستأصل طغمته من أوَّلها إلى آخرها.

لاحظتُ حينها أنَّ جميع الأنظار اتَّجهت نحوي بقسوة.

ـ من أين أنت؟ سألني فجأةً أحد الرجال.

ـ أنا من مالي! قلتُ بسرعة.

ـ أنتَ مسلمٌ إذًا؟

ـ بحكم التربية، أجل. لكنَّني لا أمارس الشعائر.

ـ أيّ لغة تتكلَّم؟ ألحَّ.

ـ البامبارا، أجبتُ. في الحقيقة، أتكلَّمها بركاكة. أمِّي من جزر الأنتيل... ولم تكن تتكلَّم معي بلغتها أيضًا، فتصوَّر! ولا أعرف لغة الكريول كثيرًا.

كان واضحًا أنَّه لا أحد يريد أن يشغل رأسه في الاستماع إلى توضيحاتي.

ـ البامبارا والديولا، هما الشيء ذاته! قال شخص مقاطعًا.

كانت جميع العيون تحدِّق فيَّ بعدائيَّةٍ فظيعة. وأنا مضطرب، انسحبتُ بلمح البصر. ماذا حدث بين حسن وماري؟ يبدو أنَّ زواجهما لم يعد قائمًا. في بيتي، كانت تنتظرني رسالة. أرسلها مالك منزلي، ويطالبني فيها بإخلاء المكان في أقرب وقت. أصبح هذا الرجل، المهذَّب عمومًا، الذي وَلّدْتُ زوجته قبل بضعة أشهر، فظًّا. لم يعد يعتزم، كما كتب لي، أن يؤجِّر مسكنه لكلبٍ غريبٍ مثلي. وفجأة، رأيتُ العالم يترنَّح حولي. لم يعد لديَّ عمل. ولا سكن. وأصدقائي هربوا.

الأيَّام التي عشتها فيما بعد تشوَّشت في ذهني. لم أفهم شيئًا ممَّا يجري حولي. ولم أكن أجرؤ على الخروج. فضلًا عن ذلك، لماذا أخرج؟ وإلى أين أذهب؟ ليلة بعد ليلة، راحت أحياء المدينة تشتعل. وأخذت عصاباتٌ من الشباب بلا زيٍّ موحَّد، يرتدون أسمالًا، ومسلَّحون ببنادق الكلاشينكوف، تنزل بسرعة إلى الشوارع هاتفة بشعارات غامضة بالنسبة لي. كانوا يُدعون بالوطنيِّين، وأعتقد أنَّهم يشكِّلون ميليشيا خاصَّة بديوكليتيان. لم أعرف قطّ هل كان جنود الجيش النظاميّ، المميَّزون بلباسهم الكاكيّ، يعادونهم أم يشجِّعونهم على خلق الفوضى. وفي النهار، لم يكن الحال أفضل. فإذا ما تهوَّرنا وخرجنا، فيجب علينا أن نُبرز عند كلِّ مفترق طريق أوراقنا الثبوتيَّة للدوريَّات العسكريَّة أو الوطنيِّين. وإذا ما اكتشفوا بعضَ الشماليِّين، يكدِّسونهم في شاحنات، ويقودونهم إلى جهةٍ مجهولة. بعض الشائعات أكَّدت باختصار أنَّهم يُعدمون. وعلى الرَّغم من رسالة مالك منزلي، لم أفكِّر في البحث عن مسكنٍ آخر، واكتفيتُ بالانزواء في بيتي، أتابع في التلفاز أحداثًا لا أفقه منها شيئًا. ومع مرور الأيَّام، تعدَّدت الأهداف على ما يبدو. لم يعد الأمرُ يتعلَّق بأفارقة من بلدانٍ أخرى أو شماليِّين. لكنَّه طال جميع الأجانب، حتى الفرنسيِّين الذين كان وجودهم كبيرًا منذ أعوام. وفي بعض الأيَّام، اسْتُهْدِفَ اللبنانيُّون أو اليونانيُّون. وذات مساء، إيرينا، التي لم أعد أعاشرها منذ بداية الاضطرابات، وأعترف أنَّني قلَّما فكَّرتُ فيها، أرسلت لي رسالة، لأنَّ الهاتف لم يعمل منذ وقتٍ وطويل. ومثل آلاف الأجانب، قرَّرتْ مغادرةَ البلد واللحاق بشقيقتها أو

صديقتها الودودة، لم أعد أدري، في داكار. كانت ترجوني أن أقلَّها إلى المطار الذي أُعيد فتحه للتوِّ، لأنَّها لا تجرؤ على الخروج من بيتها بمفردها. لذلك، ركبتُ سيَّارتي، وذهبت لملاقاتها على طريق بوسورا، حيث كانت تقطن، مدينةً سُمِّيَت بلا تهكُّم مدينة الفردوس. كانت تنتظرني في ردهة عمارتها، حولها زوج وزوجته وأطفال عديدون، خلاسيُّون مثلها.

ـ قالت لي: منذ ليالٍ، لم أعد أنام في منزلي، كنت أشعر بخوفٍ شديد. وجدتُ ملاذًا عندهم. إنَّهم أصدقاء طيِّبون.

ـ سنغادر غدًا، قال لي الرجل وهو يصافحني. استطعنا أخيرًا الحصول على تذاكر. عن طريق الرشوة. طريقة قديمة ناجحة. وأنت؟

اعترفتُ أنَّني لا أفكِّر بالمغادرة، ونظروا إليَّ كأنَّني مجنون!

كان تدفُّق المرشَّحين للمغادرة يفوق التصوُّر. راح بعضهم يبكي، لأنَّهم عاشوا في البلد منذ سنوات، تزوَّجوا فيها وأنجبوا أطفالًا. كانوا في حالة انهيار وقد تركوا وراءهم كلّ أملاكهم. حين وصلنا إلى المطار، كان يسود مظهرٌ من مظاهر النظام. الطائرات تهبط وتُقلع في مواعيدها تقريبًا. قبَّلت إيرينا، وفوجئتُ بعينيَّ تغرورقان بالدموع في تلك اللحظة.

ـ اعتنِ بنفسكَ جيِّدًا! همستْ بالتأثُّر ذاته. ماذا تنتظر لتعودَ إلى ديارك؟

دياري؟ لم أكن أعرف أين هي دياري! لطالما اعتقدتُ أنَّها قرب حسن. وبعيدًا عنه، كنتُ بلا وطن.

كانت إيرينا ترتدي فستانًا برتقاليًّا يناسبها على نحوٍ رائع، ولم يسبق لي أن رأيتها بهذا الجمال. نظرتُ إليها تتوارى مع إحساسٍ عميق بالفراق. شعرتُ أنَّ فصلًا من حياتي انتهى، ولم أعرف كيف أستفيد منه. وأنا مضطربٌ، عدتُ ببطءٍ نحو سيَّارتي. جلستُ وراء المقود، وأقلعتُ بهدوء. كان الوقت ليلًا حينها. الطقس باردٌ. وفي الأعلى، راح القمر يحدِّق بعيْنه البيضاء الواسعة في جنون البشر.

آنذاك، ظهر شُبَّان مسلَّحون برشَّاشاتٍ وسواطيرَ وهراواتٍ أمام مصابيح السيَّارة، وأشاروا لي أن أتوقَّف. من كانوا؟ وطنيِّين؟ كلّ ما يمكنني قوله هو أنَّهم كانوا شُبَّانًا صغارًا في السنِّ، في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم على الأكثر. بعضهم ارتدى بزَّاتٍ عسكريَّة، وبعضهم بناطيلَ جينز وقمصانًا، وآخرون سراويل قصيرة رثَّة.

ـ أوراقك! زعق أحدهم.

سحبتُ جواز سفري من سترتي، وناولته إيَّاه. في تلك اللحظة، سدَّد فتًى آخر بلا سبب ضربةً غادرة بأخمص البندقيَّة إلى وسط وجهي. جعل الألمُ الشرر يتراقص أمام عينيّ. وفي الوقت نفسه، تبوَّلتُ دمًا حارقًا.

ـ تراوري؟ يا لك من صرصور! أنت إذًا من الشمال؟ نبح الفتى الأوَّل.

استطعتُ أن أُجيبه بهدوء أنَّ أصلي من سيغو في مالي.

ـ إنَّها الحثالة ذاتها! أكَّد واحد ثالث. وحتى يطفح الكيل، بصق في وجهي.

بعد ذلك، سحبتني عشراتُ الأيدي من سيَّارتي، وألقوني على الإسفلت، وأوسعوني ضربًا. ولم أزل أتساءل لماذا لم يقتلوني، وتركوني على الطريق، مضعضعًا، معذَّبًا، لكنْ على قيد الحياة! وبعد بضع ساعات، على ما أظنّ، استطعت أن أفتح عينيّ من جديد. ليست المرَّة الأولى التي أكون فيها ضحيَّةَ أعمال عنفٍ أعمى. حينُ كنتُ في المدرسة في باماكو، كان التلاميذ الكبار يُمسكون بخناقي ويضغطون على عنقي، ويأمرونني: «اعترف أنَّ أمّك مشعوذة.» لم أكن أعترف بشيء كهذا. لذلك، كانوا يضربونني بوحشيَّة. لكنَّني لم أعرف في حياتي مثل هذه الموجة من العنف. استطعتُ أخيرًا النهوض، وقدتُ سيَّارتي بحذر حتى المكان الذي أسكن فيه. بدت المدينة بكاملها فريسةَ كرنفال مزدحم وصاخب، حلَّ فيه مطلقو النار الطائشون مكان مدارس السامبا المسالمة. ضمَّد حارسُ قصري العجوز جروحي بعجلة؛ ثم نجح في العثور على طبيب على الرَّغم من الفوضى المحيطة، فخاط جراحي بسلسلةٍ من القُطَب. كان يرفض تسميات شماليّ وجنوبيّ:

ـ نحن جميعًا أفارقة، راح يكرِّر. يا صديقي المسكين، ها أنتَ على قيد الحياة! عليكَ أن تتقدَّم بشكوى إلى الشرطة! أنتَ لا علاقة لكَ في نزاعاتنا العبثيَّة.

إلى الشرطة! هل كان يمزح؟

في الأيَّام التالية، تسارعت الأحداث. أعلن التلفاز أنَّ جيشًا يحمل اسم «قوَّات الشمال الجديدة» تشكَّل لتوِّه، ويقع مقرُّه العام في ضاحية دانيمبي. هدفه بسيطٌ: التوجُّه نحو الجنوب، والسيطرة

عليه مدينةً تلو مدينة، وتشكيلُ حكومةٍ مؤلَّفة حصرًا من الشماليِّين. وذات مساء، أحضر لي رسولٌ مدجَّجٌ بالسلاح ويقود درَّاجة ناريَّة قويَّة رسالةً من حسن. مزَّقتُ المغلَّف بيدٍ مرتعشة. كان حسن يُخبرني أنَّه تسلَّم قيادة «قوَّات الشمال الجديدة»، ويطلب منِّي الالتحاق به في دانيمبي. يكفي أن أقصد عنوانًا معيَّنًا. ومن هناك، سيقودني مبعوثون موثوقون إليه.

«... الآن، النصر هنا، في متناول أيدينا، كتبَ. أرى مستقبلًا مشرقًا ينتظرنا.»

هل أصبح مجنونًا؟ عمَّا يتحدَّث؟ ماذا يريد، هو من سبق أن حَظِيَ بكلِّ شيء؟ أيّ انتصار؟ وأيّ مستقبل مشرق؟ ماذا يريد أكثر ممَّا حَظِيَ به؟ شعرتُ أنَّني متورِّطٌ في نزاعٍ لا يعنيني ولا أفهمه. وعلى الرَّغم من ذلك، لم أتردَّد ثانيةً واحدة، وقرَّرتُ أن أغادر فورًا إلى دانيمبي.

في تلك الليلة، تشاجرتُ فعلًا لأوَّل مرَّة في أحلامي مع أمِّي:

ـ أنتَ تدخل المعركة بلا عصا، كما يقول مثلٌ عندنا، قالت بغضب. بل لا تعرف لماذا يتقاتل هؤلاء الناس.

ـ وهل هذا خطئي إن كانت هذه هي حالي؟ وإن لم أفهم شيئًا من شيء؟ لم تُخبريني في حياتِكِ ما يعتبره الناس أساسيًّا، أجبتُ.

ـ السلطة! قالت بازدراء. أساس المشكلة هو السعي إلى السلطة. كلّ البلاء يأتي منها.

ـ لم أذق طعمها، قلتُ بحَنَق. لعلَّها تستحقّ العناء على كلِّ حال!

هزَّت كتفيْها، واختفت، وهي في أوج الغضب. وخلال كلّ إقامتي في دانيمبي، استاءت منِّي، وطفقت تظهر لي صامتة، وترفض أن تسمح لي باحتضانها أو لمسها.

وابتداءً من مساء اليوم التالي، دفعتُ أجر ثلاثة أشهر لحارسي، وأقفلتُ بالمفتاح بابي، وقصدتُ المكان الذي حدَّده لي، ڤيلَّا تبدو هادئةً في ضاحية إيبورنيا. كان هناك رجلان مسلَّحان. يبدو أنَّهما يعرفاني، فلم يطرحا أيَّ سؤال. وبعد أن تناولتُ عشاءً خفيفًا ونمتُ بضع ساعات، جاء ثلاثة شبَّان مسلَّحين أيضًا، وأركبوني في شاحنةٍ صغيرة مغلقة. لم يكونوا أكبر سنًّا من أولئك الذي تركوني بين الحياة والموت على طريق المطار. شعرتُ معهم أنَّني ألعب لعبة الحرب. لكنَّني كنتُ أعرف أنَّ الخطر حقيقيّ. كانت رشقاتُ رشَّاشٍ تدوِّي بلا توقُّف. وحرائق تستعر في كلِّ مكان! وأحياءٌ بكاملها فريسةُ ألسنة اللهب. وكان مشهد الخراب ينوء برائحة جيفةٍ كريهة. جثثٌ، بعضها مقطَّعٌ بفظاعة، تعفَّنت في الشوارع. ولمَّا شارفنا على الابتعاد عن المدينة، كانت أرتالٌ من الرجال والنساء الحاملات أطفالًا من كلِّ الأعمار، يتقاطرون على طول الطريق هربًا من المعارك. انقبض قلبي لرؤيتهم.

لماذا كلّ هذه المعاناة؟ مَن المستفيد منها؟

وبحثًا عن مقاتلين آخرين ينضمُّون إلى القوَّات الجديدة،

توقَّفنا في غامايل، مسقط رأس الرئيس الراحل. ماذا يُفترض أن يكون رأيه بالفوضى التي غرق فيها بلدٌ أداره لمدَّة ثلاثين عامًا؟ لكنَّه ربَّما كانَ مسؤولًا عنها في نهاية المطاف؟ وعلى الرَّغم من المظاهر، هل ترك لأحفاده ميراثًا مسمومًا؟

لدى الخروج من الضاحية، أدهشتني الغابةُ التي لم يسبق لي أن اجتزتها. وضايقتني رائحةُ إبطها الواخزة. أرعبتني الأشجار: كانت تُشبه حيواناتٍ ضخمة خُيِّل إليَّ أنَّها تنقضّ عليّ. لحسن الحظّ، اختفت وأفسحت المكان لأعشاب السافانا.

الشمال هو أرضٌ أخرى. ولا عجب أنَّهم يعيشون فيه بشكلٍ مختلف.

انتهت رطوبة الغابة ونداوتها. وتلاشت أيضًا الأهوار والمستنقعات، الطافحة بمياهٍ آسنةٍ خضراء. تستعيد الطبيعة ألوانها المبهجة، وتنشر الشمس أشعَّة ضيائها، وتتماوج الهضاب المكسوَّة بأعشابٍ كثيفة على مدِّ النظر. وتزيِّن المشهدَ أكواخٌ تجمَّعت حول مسجدها، مثل جِراءٍ حول بطن أمِّهم...

كانت دانيمبي قريةً بلا رونق، منحتها الحرب الأهمِّيَّة فجأةً. العنصر الجماليّ الوحيد فيها، محطَّتها ذات العمارة الاستعماريَّة، والزخرفة الفاخرة، ينطلق منها قطارٌ إلى واغادوغو ثلاث مرَّات في الأسبوع. لدى وصولي، عرفتُ أنَّ حسن اضطرَّ للذهاب إلى كوريه على بعد عشرين كيلومترًا تقريبًا، لأنَّ أباه مات. أقلَّتني شاحنةٌ عسكريَّة إلى هناك.

كان جدَّاي من الناس البسطاء، مُسْلِمَيْن مؤمنيْن. من التراب

خُلقا، وإلى التراب عادا بكلِّ تواضع. لم أكن مستعدًّا لما ينتظرني. شعرتُ كأنَّنا عدنا سنينًا إلى الوراء. من مدخل القرية، كانت مجموعة موسيقيِّين مؤلَّفة من قارعي طبول، وعازفي آلة البلافون وأبواقٍ من قرون الحيوانات، يُحْدثون ضجيجًا صاخبًا، بينما رجال يرتدون ملابسَ غريبة من جلود الحيوانات، يطلقون من بنادقهم أعيرةً ناريَّة راعدة في كلِّ الاتِّجاهات. وبعض النسوة يتمرَّغن في تراب الشوارع وهنَّ يصرخن. وأخريات يلطمن وجوههنَّ أو ينتفن شعرهنَّ، بينما يقرع شعراءٌ وموسيقيُّون طبولهم، وقد تمركزوا على جميع المفارق مستذكرين نَسَب الفقيد ومعدِّدين مناقبه. وجدتُ حسن في كوخ والده المملوء بالرجال والنساء. كان الكوخ ينتصب وسط أرضٍ فسيحة، لأنَّ العجوز، كما لقَّبوه دلالة على الاحترام، عاد في السنوات الأخيرة من حياته إلى نمط السكن التقليديّ، بعد أن سكن القصور الغربيَّة. كان حسن جالسًا بجانب الجثمان المسجَّى على حصيرة قشّ، ويضع على ركبتيْه نسخة مفتوحة من القرآن. بدا لي أجمل من أيِّ وقت مضى، مرتديًا بزَّةً عسكريَّةً بلا زينة.

وبينما راح الخدم يحضرون أطباقًا كبيرة من الدواجن والخراف المشويَّة والكسكس، ما سبَّب تدافعًا مزعجًا بين الحضور، نجحتُ أن أسأله:

ـ لماذا لم تُخبرني من قبل أنَّك تهتمّ بالسياسة؟

ـ وكيف لك أن تجهل ذلك؟ سألني. لطالما دارت حياتي كلُّها حولها.

همستُ محرَجًا:

ـ لم ألاحظ هذا قطّ. بالنسبة لي، كنتَ مولعًا بالجمال، تحبّ النساء والموسيقى.

هزَّ كتفيْه:

ـ لا يحول أحدهما دون الآخر.

ثم أضاف بسخرية:

ـ وماذا تلاحظ أنتَ؟ لا شيء! إنَّك تعيش في فقَّاعتك، ولا تُبالي بكلِّ ما ليس أنت.

أنا لا أُبالي؟ هل يجهل اهتمامي به؟ أهانني هذا اللوم الظالم.

ذهبتُ إلى الحجرة المجاورة لأقدِّم التعازي إلى الأرامل. كنّ موجوداتٍ هناك، خمستهنَّ جميعًا، جالساتٍ في صفٍّ واحد بحسب مكانتهنَّ، يرتدين ثياب الحِداد ذاتها. الأولى، لابارا ميزو كما يسمُّونها، عمرها زهاء الستِّين عامًا، يمكنها أن تكون جدَّة الأخيرة. كيف عاشت هؤلاء النساء؟ كيف كانت علاقاتهنَّ فعلًا؟ علاقات كراهية أم على العكس، تسامح؟ يا له من سرٍّ مقدَّس تعدُّد الزوجات!

كانت أمِّي تحبّ أن تروي في هذا الشأن قصَّةً تعتبرها عبرة. حين كنتُ صغيرًا، سكنت، قبالتها في تيغويري، أسرةٌ متعدَّدة الزوجات: الزوج سيكو، وهو تاجر تمر وملح ثريّ، وزوجاته الأربع، فاتو ومريم وبينتو وعليا. وإذا كانت الزوجات الثلاث الأوائل متشابهاتٍ في المظهر، فإنَّ الزوجة الأخيرة الأصغر سنًّا،

عليا، القادمة من موريتانيا، كانت ذات جمال عربيّ، بشرتها فاتحة، وعيناها لوزيَّتان، وشعرها الأسود الحريريّ ينسدل حتى خصرها. وعلى الرَّغم من هذه الاختلافات، لم يظهر شيءٌ في سلوكهنَّ. كنَّ يحضرن معًا الاحتفالات ذاتها وهنَّ يرتدين مآزر متشابهة، وربطات عنق تلميذات، ويلهون بالتسالي ذاتها، ويقمن بالزيارات نفسها. وحين أثار مظهرُ التآلف فضولَ أمِّي، طفقت تسأل أبي، فراح يندفع في واحدةٍ من تلك الخطابات الرنَّانة التي يحبّها حُبًّا جمًّا:

ـ الضرائر أخوات. وتعدُّد الزوجات قديم قِدَم أفريقيا، ولم ينظر إليه كمشكلة في أيِّ مكان. لا تعرف نساؤنا هذا الشعور بالتملُّك الذي يسبِّب الكثير من الأضرار في الغرب. يحببن، لكنَّهنَّ يعرفن التشارك. بل سأقول إنَّ حبَّهنَّ هو دليلٌ على حسِّهنَّ بالمشاركة.

كانت ثيكلا تحتفظ باعتراضاتها لنفسها.

وعصر يوم من الأيَّام، كان الحيّ يغطّ في قيلولته، حين استيقظ على صراخٍ يجمّد الدم في العروق. بينما كانت عليا نائمة، سخَّنت ضرّاتها ملء طست من زيت الفول السوداني، ثم اقتربن خلسةً من المسكينة، وسكبنَ محتوى الطست عليها. وبرأي أمِّي، ماتت عليا بسبب الآلام الفظيعة؛ وأمضت فاتو ومريم وبينتو بقيَّة حياتهنَّ في السجن، فيما اتَّخذ سيكو زوجةً خامسة. لكنَّ أمِّي لم يكن ينقصها الخيال. وتساءلتُ إن كانت هذه القصَّة، الأروع من أن تُصَدَّق، صحيحة!

حين عدتُ إلى المعسكر، لم ألبث أن لاحظتُ أنَّ حسن

يعيش مع امرأةٍ شابَّة، شماليَّةٍ طبعًا، تُدعى مابولا. وأنا مذهول، علمت أنَّهما تعارفا في إبيرنيا حيث تركتْ مكتب المحاماة الذي تُديره لتلتحق بالمعارك. ماذا عن هذه الواجهة الجميلة لحبِّه بماري؟ فعلًا، أين كان عقلي؟ كان حسن محقًّا، لم أكن أرى شيئًا، كنت أعمى!

على الرَّغم من اسمه الرنَّان، لم يكن مظهر المقرّ العامّ لقوَّات الشمال الجديدة يوحي بالثقة. إنَّه عبارةٌ عن سلسلة مبانٍ متداعية، مبنيَّةٍ من موادّ بدائيَّة، تأوي مئات الجنود، ألفًا على أبعد تقدير، معظمهم من فتيانٍ لم يكادوا يتجاوزون سنَّ المراهقة. لكنَّهم كانوا مجهَّزين تجهيزًا لافتًا، بفضل مساعدة دولٍ صديقة، ومزوَّدين بأسلحةٍ وافرة متطوِّرة للغاية. من كان يموِّنهم؟ لن أعرف ذلك معرفة يقينيَّة أبدًا. وما خلا بعض المحظيِّين المقيمين في فيلَّات في المدينة، ومنهم حسن، كان الجميع سواسية، وينامون في مهاجع، على قواطعَ خشبيَّة غير مريحة. ويتناولون الوجباتِ أيضًا معًا في الخيام. وسبق أن ذكرتُ أنَّ الفرصة لم تسنح لي لأنفرد بحسن، ورحتُ أتساءل أحيانًا لماذا طلب منِّي المجيء لأنضمّ إليه في دانيمبي! وكم بدت بعيدةً أيَّامنا في مونتريال حين لم نكن إلَّا واحدًا وحتى كائنًا واحدًا! كنَّا نأكل وندرس معًا، ونذهب سويَّةً لنستمتع بكنوز ألحان الفرقة الجبليَّة القرغيزيَّة.

كان حسن مُعتدًّا بنفسه على الدوام، ومقتنعًا بسبب أصوله أنَّه ينتمي إلى سلالةٍ استثنائيَّة. لكنَّه كان يتمتَّع، من قبل، بروح الدعابة، ونوعٍ من السخرية. من الآن فصاعدًا، حدث الأسوأ، لأنَّ الجميع راحوا يعاملونه بخضوعٍ تامّ. لقَّبوه «المامي الثاني» في

إشارةٍ إلى جدِّه الشهير، مؤسِّس الأمبراطوريَّة، الذي تُزيِّن صورته، والعمامةُ على رأسه، كلّ جدران المعسكر. . .

كنت أعمل في المستشفى العامّ. وباعتباري طبيبًا، لم أكن عسكريًّا بالمعنى التقنيّ. مع ذلك، كنتُ أرتدي، أنا أيضًا، البزَّة الموحَّدة لقوَّات الشمال الجديدة. ورحتُ كلَّ صباحٍ ألبس هذه الثياب، يراودني انطباع أنَّني أرتدي هويَّةً ليست غريبةً عنِّي تمامًا وحسب، وإنَّما أضحت مقيتةً بالنسبة لي. ماذا كنتُ أفعل هناك؟ في دانيمبي، لم أكن أزاول التوليد، بالتأكيد. فليس الهدف هو تسهيل الدخول إلى الحياة، وإنَّما مساعدة التعساء على فتح الأبواب الثقيلة المفضية إلى المجهول. رحنا نعالج من الفجر إلى الليل الجرحى الذين أُعيدوا من ميادين القتال. كانت الدعاية الإعلاميَّة الرسميَّة تؤكِّد أنَّ قوَّات الشمال الجديدة هزمت الجيوش الجنوبيَّة شرّ هزيمة، وتسرد بالتفصيل أسماءَ المدن التي وقعت تحت سيطرتها، والأسرى الذين وقعوا في قبضتها. وراحت تعلِّق بيانات النصر في كلِّ مكان تقريبًا. لعلَّ تلك كانت هي الحقيقة. وعلى أيَّة حال، لم نكن نرى في مكان وجودنا هنا سوى الآلام، والأجساد النازفة والممزَّقة والمقطَّعة الأوصال بشكلٍ فظيع التي يعذِّبني صِغَرُ سنِّها. كان جيلٌ بكامله يُحصد. لماذا؟ وكانت تحدوني الرغبة في أن أصرخ غضبًا وتمرُّدًا. في هذا العمر، يمارس المرء الجنس؛ وليس الحربَ بالتأكيد.

وعلاوةً على ذلك، بينما كان العسكر مجهَّزين بأحدث الأسلحة، كنَّا نحن الأطبَّاء نفتقر إلى الحدِّ الأدنى من الموادّ الأوَّليَّة: القطن والكحول والمخدِّر والضمَّادات والكمَّادات. كنَّا

نُجري العمليَّات الجراحيَّة من دون تخدير. ومثل جزّارين، نبتر أذرعًا أو سيقانًا. نفتح صدورًا. ما كان يدهشني، هو أنَّ زملائي، على الرَّغم من هذه البيئة وهذا العمل الشاقّ، كانوا يجدون القوَّة، عند انتهاء العمل، للذهاب إلى حاناتٍ رخيصة واحتساء البيرة، وعلى الأخصِّ، ملاحقة الفتيات. وفي كلِّ مساء، كانت هؤلاء الفتيات يملأن صالة الاستقبال في المعسكر بعطورهنَّ وضحكاتهنَّ ووضعيَّاتهنَّ المغرية، ثم يتواريْن في الغرف مع زبائنهنَّ. أمَّا أنا، فكنتُ أنام وحيدًا، حزينًا ومنهكًا.

وفي نهاية أسبوع شاقٍّ بصورةٍ استثنائية ـ انتشر وباءٌ غامضٌ عقَّدَ مهمَّتنا ـ رأيت احتضار أحمد بسبب آلامٍ فظيعة، وهو جريح عمره سبعة عشر عامًا، أُعيدَ من جبهة ماني. كان ذلك أقسى من أن أستطيع تحمُّله. ثارت ثائرتي، ودفعتُ باب مكتب حسن. كان يخوض حديثًا غراميًّا مع مابولا، الجالسة أو بالأحرى المسترخية في أريكة. لاحظتُ حينها أنَّها حبلى. التناقض بين هذين الزوجيْن السعيديْن وآلام أولئك الذين أخالطهم بدا لي مشينًا.

ـ ما معنى هذه الحرب؟ صرخت غاضبًا. أيّ معنى لها؟ متى ستنتهي؟ بعد كم قتيل؟

رازني حسن ببرود، وقال بجفاف:

ـ من حسن حظِّك أنَّك لستَ عسكريًّا، وإلَّا كنتُ سأضطرُّ لاعتقالك حالًا.

صرختُ بقوَّة أكثر أيضًا:

ـ أخبرني، أخبرني ما معناها! أخوة يقاتلون أخوتهم!

حدَّجتني مابولا بنظرة استهجان، زادت من غضبي، وأيضًا من خجلي الذي شعرت به جرَّاء فقدي رباطة جأشي، وجعلي من نفسي فُرجة.

ـ أنتَ تسأل عن سبب الحرب؟ قال حسن بسخرية. أنتَ أعمى إذًا؟ منذ الاستقلال الذي توصَّل إليه الفرنسيُّون مع حلفائهم من الجنوبيِّين، استطرد محتدًّا، نحن الشماليِّين، عوملنا كمواطنين من الدرجة الثانية في بلدنا الأمّ. هل تريد إحصاءَ عدد من كان منَّا في السلطة المركزيَّة؟ لم تنفكّ الأحوال تتدهور. تعديلٌ دستوريٌّ جائر جعل منَّا أجانب. أذلُّوني بلا سبب. وتسأل لماذا امتشقنا السلاح؟

ـ هذه حربٌ مقدَّسة! زاودت مابولا بلهجةٍ مداهنة.

انتهى هذا التدخُّل إلى تسعير غضبي. أشرت بإصبعي نحو صور أجداده، من جهة أبيه وجهة أمّه، المعلَّقة بشكلٍ ظاهر على الجدران:

ـ لا تقارن نفسك بهم.

ـ يا لك من ساذج! هل تظنّ إذًا أنَّ ألدّ أعدائنا يأتون من الخارج؟ إنَّهم أخوتنا المزعومون!

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم أحر جوابًا. وفجأةً، اندفع نحوي:

ـ اخرج من هنا! أمرني. وفورًا.

ولأنَّني لم أطع أمره بالسرعة الكافية، فتح الباب، وبركلة رماني إلى الخارج. ألفيت نفسي مثيرًا للسخرية، ومؤخّرتي على الأرض في الممرِّ.

دقَّ هذا المشهد المخزي إسفينًا في علاقاتنا. ومنذ ذلك الحين، تجاهلني حسن. كنت ألمحه من بعيد، في مطعم المعسكر، في المطعم الرخيص، يجتاز باحةَ المقرّ العامّ. وفي كلِّ مرَّة، كنت أحاول أن أهرع نحوه، وأمسكه من كتفيْه: «لنتوقَّف، لن نتخاصم مثل الصِّبْية بسبب بعض الكلمات، ربَّما الطائشة من جانبي!» لكنَّني كنت أخشى طبعه الصارم. كان خوفي من أن يزجرني يجعلني أُحجم. وذات يوم جمعة، صادفته وهو عائدٌ من المسجد. كان محاطًا بمجموعةٍ من المرافقين. حين رآني، همس ببضع كلمات إلى مرافقيه، وانفجروا جميعًا ضاحكين. شعرتُ أنَّ نظراتهم المركَّزة عليَّ لم تكن فقط هازئة، وإنَّما مشحونةٌ بالعداء أيضًا. واعتبارًا من تلك اللحظة، شعرتُ أنَّني ممهور بختمٍ غامضٍ ينبذونني بسببه. ولاحظت أنَّه لم يعد يدعوني أيّ زميلٍ إلى الطعام في مطعم رخيص. ولم يعد أحد يلقِّبني على سبيل المزاح «الوجه ذو النَّدبة». أصبحتُ «رجل السلوفان» كما في الكوميديا الموسيقيَّة الأميركيَّة المشهورة. ولم يعد أحدٌ ينظر إليّ. حينها فكَّرتُ في مغادرة دانيمبي، والعودة إلى إبيرنيا، حيث لا يمكن لحياتي فيها أن تكون أسوأ. هنا كما هناك، ليس لديَّ صديقٌ ولا عشيقةٌ ولا أهل. لم يكن أحدٌ يهتمّ لأمري. مع ذلك، لم يكن بوسعي أن أُدافع عن نفسي إزاء شعوري كهارب. ومع أنَّني ردَّدتُ في سرِّي أنَّني جُررتُ إلى هذه الحرب جرًّا، من دون أن أفقه منها شيئًا، ومن دون أن أنتمي إلى أيِّ حزب، ببساطة امتثالًا لإرادة حسن، لكنَّ ذلك لم يرحني. قضيتُ ساعاتٍ في كتابة رسالة إلى هذا الأخير، أودِّعه فيها،

وأشرح له الأسباب الوجيهة لمغادرتي. ماذا تريدون، لم أكن إنسانًا مثاليًّا. برأيي، لا يوجد اعتقاد أو إيمان أو إيديولوجيا يستحقّ أن يموت أحدٌ لأجله. ومهما تدهورت حال الحياة، فإنَّها تظلّ الأثمن. لعلَّني كنت أستحقّ الشفقة، لأنَّني أنظر إلى الأمور على هذا النحو! على أيَّة حال، قرَّرتُ العودة إلى حياتي من دون مثلٍ أعلى. كنتُ فعلًا ابن ثيكلا.

ذات ليلةٍ، تخلَّصتُ من بزَّتي العسكريَّة كأنَّها لباسٌ مسموم، وارتديت ثيابي الشخصيَّة، وغادرتُ إلى الأبد المقرّ العامّ لقوَّات الشمال الجديدة بعد أن أمضيتُ فيها سبعة أشهر. في تلك الساعة المتأخِّرة، كان كلّ شيء صامتًا في المعسكرات، بنات المتعة غافياتٌ بعد الجنس، أو عدنَ إلى بيوتهنَّ. لم أكن أتوقَّع أنَّ القمر بدرٌ، وأنَّه يمكنني أن أرى فيه كما في عزِّ النهار. كان ظلِّي يبرز عملاقًا على الجدران المحيطة بالباحة الواسعة المكتظَّة بسيَّارات الجيب والمركبات العسكريَّة. راح قلبي يخفق خفقانًا شديدًا. لكنَّ الحرَّاس عند السياج كانوا غائبين. تجوَّلتُ في مركز المدينة لأضعَ رسالةَ الوداع في صندوق بريد حسن. كانت نوافذ الطابق الثالث الذي يقطنه ما تزال مُضاءة. ماذا سيغدو هذا الرجل الذي ظننته أخًا؟ أيُّ مصير ينتظره؟ كان الناس في المعسكر يتهامسون أنَّ عرّافي والدِهِ تنبَّأوا أنَّه سيصبح رئيسًا. فقد هوى نجمٌ من السماء ليبلغهم الخبر.

تابعتُ طريقي إلى محطَّة الحافلات، وراح وقعُ خطاي يتصادى في الشوارع الغافية. حالفني الحظّ نسبيًّا. ومقابل مبلغٍ فلكيّ، وافق الحجِّي، سائقُ شاحنةٍ ينقل جوز الكولا إلى بيكي ـ

المدينة الثانية في البلاد، أن يقلّني على متنها. لم يطرح عليَّ أيّ سؤال. وبعد أن عدَّ بعناية الأوراق الماليَّة التي سلَّمته إيَّاها، أعطاني مكانَ مساعده. ولم نلبث أن انطلقنا على الطريق. وهو يقود بثقةٍ وثبات، لم يتوقَّف الحجِّي عن التذمُّر والشكوى.

ـ هذه الحرب ألحقت ضررًا فادحًا بجميع الناس، شماليِّين وجنوبيِّين. اضطرَّ عشراتُ الآلاف من المغتربين أن يغادروا البلد. الفرنسيُّون، غير المأسوف عليهم، هم خصوصًا، لم أحبّهم قطّ. بل أحببتُ الآخرين. كلّ الآخرين. وها هو البلد يُحتضر اليوم. لم تعد توجد فيه يدٌ عاملة للزراعة، ولا مستثمرون في الصناعة. واضمحلَّت التجارة إلى العدم.

غلبني النوم وهو يثني على الرئيس الراحل، بطله، رجلِ الجنوب الأصيل الذي كانه. وبين الفينة والأخرى، توقظني الارتجاجاتُ، فأسمعه يتابع تذمُّره المنفرد. اجتزنا الغابة. وراحت القرى تتقاطر سجاجيدَ في الظلمة. فجأةً، أحرقت أنوارٌ أجفاني. ثمَّة مصابيح يدويَّة سلَّطها علينا جنودٌ يرتدون بزَّات قوَّات الشمال الجديدة، وأمرونا أن نترجَّل من الشاحنة.

ـ البطاقات الشخصيَّة! نبحوا.

استبدَّ بي الذعر. من يدري! ربَّما يبحثون عنِّي، أنا الفارّ من الجنديَّة، بعد تعميم بطاقة بحث؟ تراءى لي أنَّهم يقتادونني إلى السجن بعد حكمٍ خاطف، بالسجن المؤبَّد أو الإعدام الميدانيّ.

حين جاء دوري في إبراز أوراقي، بعد الحجِّي ومساعده، لم أرغب في إظهار جواز سفري الماليّ، ورويتُ حكايةً غير

مترابطة. ادَّعيتُ أنَّ أوراقي اختفت في حريقٍ التهم منزلي، ولم يسعفني الوقت لأجدِّدها. وبنظرة من الحجِّي، فهمت ما ينتظره المرتزقة. المال. وفقط المال، وليس الكلام المعسول. خلعت فردة حذائي التي خبَّأت فيها قسمًا ممَّا أملك، وناولتهم إيَّاه. بدوا راضين.

ـ كما تعرف، شرحوا لي بشيءٍ من الخجل، لم نتقاضَ رواتبنا منذ أشهر. . ولدينا نساء وأطفال. بحقِّ الله! متى ستنتهي هذه الحرب؟

افترقنا عن أعزِّ الأصدقاء في العالم، ورحنا نلعن السلطات التي تقرِّر كلّ شيء.

وصلتُ إلى إبيرنيا بعد ثلاثة أو أربعة أيَّام بلا حادثٍ آخر. اتَّبعتُ نصيحة الحجِّي، فقطعت الكيلومترات الأخيرة سيرًا على الأقدام عبر سلسلة طرقاتٍ متعرِّجة ودروبٍ ملتوية على أمل تفادي زحمة العسكر. في الواقع، كان الجنود الشماليُّون يتمركزون حول أيِّ مدينة استولوا عليها عنوةً، فيما يحاول الجنوبيُّون طردهم منها. وما زاد الطِّين بلَّة، هو إعلان إبيرنيا «منطقة سلام» إثر آخر قرار للأمم المتَّحدة. لذلك كانت القبَّعات الزرق تحمي تخومها. . .

سبقَ وذكرتُ أنَّ أحدًا لم يكن ينتظرني في هذه المدينة. ولم أعد أملك فيها لا سقفًا ولا عملًا. وأنا ألج الضواحي الفقيرة، سحقني ثقلُ الحزن والوحدة. وحين رأيتها بوضوحٍ أكبر، وأُتيح لي النظر حولي، لم أتعرَّف إلى هذه العاصمة، الغنيَّة والمزدهرة

سابقًا التي أحببتها حبًّا جمًّا. بدت شبيهة بمدينة نيو أورليانز بعد أن دمَّرها إعصار كاترينا. كانت شوارعها المقفرة، التي تسرح فيها الكلاب الشاردة المكشِّرة عن أنيابها بعدائيَّة، قذرةً ومحفَّرة، وأرصفتها مزدحمةً بالنفايات. وأصبح فندق إفريقيا الكبير مهجورًا بعد أن كان جوهرة المدينة ومفخرتها، ويزدحم بالنزلاء. لا أحد في قسم الاستقبال. لا أحد في المتاجر الفاخرة، ولا في الردهات التي كانت تخصَّص عمومًا لمعارض الفنِّ التشكيليّ أو السجَّاد. في مسبحه الشهير ذي الأبعاد الأولمبيَّة، حشدٌ من الأولاد العراة يتخبَّطون في الماء وهم يُطلقون صيحاتِ الفرح. من أين خرجوا؟

استلقيت على كرسيٍّ طويل، أحاول وضعَ خطَّة عمل، لكنَّني لم أفلح في ذلك. وبعد بضعِ ساعاتٍ من اليأس، استأنفتُ الطريق إلى بيتي القديم. تغيَّر الحيّ البرجوازيّ الذي كنت أسكنه فيما مضى تغيُّرًا لافتًا. درَّته، المدرسة الخاصَّة ذات المنزلة الرفيعة المسمَّاة رمزيًّا «الباب الضيِّق»، أُحْرِقَتْ واغْتُصِبَتْ راهباتها، على الرَّغم من كِبَر سنِّ بعضهنَّ، أكثر من ثمانين عامًا، قبل أن يُذْبَحْن. كان سياجٌ خشبيٌّ يُحيط بما تبقَّى منها: حطامٌ محترقٌ. واحتلَّ البؤساء القادمون من مدن الصفيح الڤيلَّات الفخمة المُحيطة بها. وكانت تنتشر في الجوِّ رائحةُ دجاجٍ مشويّ. بعض النسوة، وأطفالهنَّ الرضَّع على ظهرهنَّ، يسعِّرن نارَ الحطب في الحدائق التي اجتاحتها الأعشاب الضارَّة. لاحظتُ أنَّ عائلةً تشغل مسكني القديم، وأدركتُ أنَّه من الأفضل عدم إزعاجها. لذلك ذهبتُ لأقضي الليلة في فندق الريف الذي بقي مفتوحًا،

ولم يزل يؤجِّر على نحوٍ غريبٍ الغرف. عرفني صاحبه، وحدَّق فيَّ بذهول:

ـ أنتَ؟ قيل إنَّك التحقتَ بقوَّات الشمال الجديدة!

ـ لكنْ لا! كذبتُ، عدتُ إلى منزلي بمدينة سيغو في مالي. كيف تسير الأمور هنا؟ أضفتُ بحذر.

بدا متفائلًا:

ـ منذ أن أُعْلِنَتْ إبيرنيا «منطقة سلام»، ابتعد شبحُ تقسيم البلد. وبالتدريج، تعود الحياة إلى طبيعتها.

أغلقتُ الأبواب والنوافذ، وأمضيتُ الليل أتقلَّب وأتلوَّى في فراشي محاولًا أن أحدِّد استراتيجيَّة عمل. وطفقتُ أوبِّخ نفسي. كان يكفيني القليلُ من الشجاعة والإقدام، يا للعار! لدرجة أنَّني في اليوم التالي، دخلتُ بجسارةٍ إلى أحد المكاتب العقاريَّة النادرة المفتوحة. وخرجت منه بعد ساعة أخشخش برزمة مفاتيح. وجدتُ ڤيلَّا في الحيِّ السكنيّ نفسه الذي كنتُ أقطنه سابقًا. ودفعتُ بعد ذلك باب وكيل سيَّارات ساب، لأنَّني كنتُ أتحرَّق شوقًا لاقتناء سيَّارة ساب، حلمٌ قديم، أنا من لم أقد قطّ إلَّا سيَّاراتٍ قديمة. عدتُ إذًا إلى بيتي الجديد الواقع على مسافة قصيرة من بيتي القديم. لكنْ لم يعد هنالك شيء كما كان من قبل. أصبحت الڤيلَّا المقابلة لڤيلَّتي مقرًّا للوطنيِّين، وإلى يميني، تعيش عائلةٌ شغلت منزلًا شاغرًا: رجلٌ وزوجاته الثلاث وأولاده العشرة. لم يكادوا يرون الفرنسيِّين الذين خدموهم بإخلاص منذ أعوام يفرُّون، حتى تركوا كوخهم الحقير في أتوبوكبريه ليستقرُّوا

في عشر حجراتٍ مريحة أصبحت شاغرة. وهذا دليلٌ على أنَّ مصائبَ قوم عند قوم فوائد! وإلى يساري، كان الشاغلون أكثر إزعاجًا. مراهقون مردٌ، شكَّلوا ميليشيا مؤلَّفة من عناصرَ جاؤوا من ليبيريا أو سيراليون، درَّبتهم سنوات الحرب الأهليَّة الفظيعة، وتخصَّصوا في «العمليَّات الخاصَّة». كانوا كلّ صباح يقفزون إلى سيَّارات الجيب، الحزينة كعربات الموتى، وينطلقون في حملات سرِّيَّة لا يرجعون منها إلَّا ليلًا.

لكنَّني وعلى الرَّغم من حياتي المتقشِّفة، شارفتْ مدَّخراتي الهزيلة على النفاد، وقرَّرتُ البحث عن عمل.

خطرت ببالي فكرة. حين كنتُ أعمل في مستوصف الدكتور سوماورو، كان مكتبي يجاور مكتب الدكتور لويس زورو، رجلٌ مبتسمٌ وبشوش. الأمر الهامّ هو أنَّه كان متزوِّجًا امرأةً من غوايانا تعرف موطن أمِّي الأصليّ. وحين كانت تأتي لإجراء فحوصٍ في العيادة، لأنَّها تظلّ حبلى على الدوام، تُعطيني دروسًا في اللغة الكريوليَّة. وشعرتْ بالصدمة لأنَّ أمِّي لم تهتمّ قطّ بتعليمها لي.

ـ حقًّا! لم تحدِّثكَ باللغة الكريوليَّة قطّ؟ كانت تكرِّر، مستاءةً. إنَّها لغتنا.

وذات مرَّة، دعتني إلى الغداء في مطعم فندق إفريقيا الكبير، وحدَّثتني بإسهاب عن مشاكل المقاطعات الفرنسيَّة ما وراء البحار. كنتُ مقتنعًا أنَّ الدكتور زورو لم يُغادر المدينة، لأنَّه جنوبيّ، وينتمي إلى إثنيَّة ديوكليتيان ذاتها.

بدا مندهشًا وهو يقول لي:

ـ أنت! ألم تعد موجودًا في الشمال، مع أصدقائك المتمرِّدين؟ الجميع يقولون إنَّك انضممت إلى القوَّات الجديدة.

وكما أنكر بطرسُ يسوعًا في بستان الزيتون، أنكرتُ حسن وصداقتنا المرحومة.

ـ يا لهذه الفكرة! اعترضتُ. ذهبتُ إلى بلدي في مالي. الآن وقد تحسَّنت الأوضاع، رجعتُ.

ـ تحسَّنتْ! سنرى!

وبناءً على ذلك، ذَمَّ الشماليِّين الذين لا يطمحون، على الرَّغم من خطبهم المثاليَّة، إلَّا إلى السلطة والسيطرة على ثروات الجنوب. ودعاني في النهاية إلى العشاء في منزله.

في المساء المحدَّد، أخرجتُ سيَّارتي الساب من المرآب. وبهيئةٍ متوعِّدة، تابع بعض الوطنيِّين المنتشرين حول مقرِّهم بتحفُّظ السيَّارةَ بنظرهم.

عشقتُ دومًا عتمة الليل فوق البحيْرة. ما إن تأوي الشمس إلى منازلها السرِّيَّة، حتى يُخيِّم عليها ظلٌّ كامدٌ بأردانٍ مكشكشة، في البداية مثلَّمةً ببقايا هالةٍ أرجوانيَّة، لا تلبث أن تصبح بلون الحبر الصينيّ. وتفوح رائحةٌ من المياه الراكدة، مثل رائحة مهبل. تهبّ بعد ذلك النسمةُ وتُظهر روائحُ اليود العفونةَ السائدة. ابتلعتْ سيَّارة الساب بضع كيلومتراتٍ تفصل مسكني عن مكان سكن الدكتور. أدهشني هدوء الحيّ. على الأرصفة، راحت النسوة يبعنَ بطمأنينة الموز المقليّ فوق الرصيف. وطفق الأولاد يلعبون مع كلابٍ فرحةٍ ومطيعة مثل الحيوانات الدمى. وكان بعض

الرجال يعزفون بانسجامٍ على آلات البالافون، تُحيط بهم حلقةُ مشاهدين من جميع الأعمار. لا أثر للكلاشينكوف أو السواطير. كأنَّ الحرب لم توجد قطّ.

كان لويس زورو رجلًا قصيرًا بسحنةٍ ضاربةٍ إلى الحمرة، ووجهٍ مغربلٍ بالشامات. ضمَّني بحرارة إلى صدره. لكنَّني شعرتُ أنَّ عناقه شكليٌّ. لم يكن متفائلًا:

ـ فهم الشماليُّون أنَّنا لن نركع أمامهم أبدًا. إنَّهم يتراجعون؛ وفي كلِّ مكان ينسحبون منه، تعود الحياة إليه. وفي هذه الأثناء، يا للفوضى!

وألقى خطبةَ مديحٍ في ديوكليتيان، ابن خالته من الدرجة الأولى، كان يؤكِّد.

ـ إنَّه ابن الأخت الصغرى لأمِّي، من الأب ذاته، والأمِّ ذاتها!

وفي غمرة حزنه البالغ، انتقدت الصحافة الدوليَّة ديوكليتيان، هذا الإنسانيّ، الكاثوليكيّ المؤمن والشاعر في أوقات فراغه، وقدَّمته كهمجيٍّ متوحِّش.

ـ لا نفهم أنفسنا إطلاقًا، نحن الأفارقة الآخرين، قال متذمِّرًا. كان البيض يعبدون الرئيس الراحل ويعتبرونه حكيمًا، لأنَّه لم ينفِّذ سوى رغبات الفرنسيِّين الأربع. والآن، يكرهون هذا الرئيس الذي لا يفكِّر إلَّا في شعبه.

أخبرني أنَّه افتتح عيادةً تسير على ما يرام.

ـ الحمد لله! بحربٍ أو بلا حرب، النساء تلد. إنَّهنَّ درَّاجات الطرق الوعرة.

وبينما راح يضحك من طُرفته، انتهزتُ الفرصةَ لأسأله عن أخبار عائلته. هزَّ كتفيْه بطريقةٍ فلسفيَّة.

ـ هجرتني زوجتي. تركتني مع ثمانية أطفال، ثمانية صبيان. أنت تفهم، شرح، كانت جميع هذه الشعارات على الجدران «أيُّها الفرنسيُّون ارحلوا»، «أيُّها الفرنسيُّون، اخرجوا من هنا» تُفقدها صوابها. إنَّها غوايانيَّة. ومع الغوادولوبيين والمارتينيك، يصبح هؤلاء فرنسيِّين أكثر من الفرنسيِّين. ولكنْ لنتحدَّث عنك.

عنِّي؟ ليس ثمَّة ما يستحقّ الذكر. كنتُ بلا عمل. وعمَّا قريب، لن يبقى من مدَّخراتي سوى الذكرى. حدَّجني الدكتور زورو بعينيْه:

ـ سمْعَتُكَ سيِّئة. يُقال إنَّك الصديق الصدوق لنصف المجنون حسن، الذي لا يروده إلَّا حلمٌ واحد: أن يصبح رئيسًا لبلدنا، وينصِّب أعوانه في المراكز القياديَّة.

خيانة أخرى، أقسمت أنَّ هذا غير صحيح:

ـ كنَّا طلبة معًا في مونتريال، هذا كلّ ما في الأمر.

كشَّر لويس زورو تكشيرةَ اشمئزاز، ثم اقترح عليَّ اقتراحًا. عرض عليَّ العمل في مركز التأهيل الاجتماعيّ الذي أُنْشئ لإيواء النساء ضحايا الحرب. كان يوجد سابقًا مركزان من هذا النوع في العاصمة.

ـ لا أحد يتطرَّق بما فيه الكفاية إلى هذه الإنجازات الإنسانيَّة، استنكر.

أخذ على عاتقه أن يؤمِّن لي هذه الوظيفة، لأنَّ الوزير كان ابن خالته الشقيقة أيضًا:

ـ لا يمكنه أن يرفض لي شيئًا.

قبلتُ بامتنان.

عندئذٍ دَخَلَتْ. أوه! لم تكن الإطلالة الصارخة لنجمة، لكنَّه دخولٌ هادئٌ كالنسيم. انسابت فوق حذاء نايكي فَقَد رونقه، يُحيط بها أبناءُ زورو الذين كانوا جميعًا أطول منها، ترتدي طقمًا من قطعتيْن مزركشًا بنباتاتٍ وعصافيرَ غايةً في البساطة. وضعت على الطاولة طبقًا فوَّاحًا برائحةٍ شهيَّة، وقالت بصوتها العذب:

ـ الطعام جاهز، يا أخي الكبير!

أعترف أنَّني لم أُعِرْها أيّ اهتمام حتى عرَّفنا الدكتور زورو أحدَنا بالآخر. عندها رفعتْ ناظريْها نحوي. عينان مائلتان، بلونٍ أسمرَ ذهبيٍّ مدهش. وبسبب الضوء، لا يعرف المرء لونهما. زرقاوان! بنفسجيَّتان! رماديَّتان! توقَّف قلبي عن الخفقان، ووقع أسيرًا على الفور.

ـ أزيليا، أختي الصغرى، آخر العنقود، شرح زورو. نحن خمسةٌ وعشرون ولدًا. تزوَّج أبي ستّ نساء، ولا أدري ما عدد خليلاته!

في حياتي، وقد أخبرتكم بذلك، لم أهتمّ البتَّة لأمر أيِّ امرأة. ولم أحبّ قطّ إلَّا أمِّي. هل حدث هذا بسبب هاتيْن

العينيْن اللتين ظننتهما شبيهتيْن بعينيْ تلك التي لم أنفكّ أبكيها؟ لقد جعلتا هذا الوجه الفتيّ المجهول مألوفًا. راح الدم يغلي في جسدي كأنَّه تحت نوبة حمًّى. في غرفة الجلوس المفروشة بلا أناقة، باستثناء لوحةٍ لألفريد تيغبيتي، الرسَّام الجنوبي الذي كان الجميع يتسابقون لاقتناء لوحاته، وجدتُ من جديدٍ معبودتي ثيكلا.

ـ اجلسي وتعشِّي معنا! أمرها زورو بينما راح الأولاد يجلسون بصخب ويملأون صحونهم بنهم.

جلستْ قبالتي. شرح لويس زورو، الذي راح يتحدَّث عن اثنيْن وحتى عن ثلاثة، أنَّها بدأت دراسة الأدب. ولسوء الحظّ، منذ بداية الحرب، تعيَّن إغلاق الجامعة. ولأنَّه ليس لديها الإمكانيَّة لمتابعة الدراسة في الخارج مثل الكثيرين غيرها، تنتظر أن تفتح أبوابها من جديد. وريثما يحدث ذلك، تُدير منزله ببراعة، وتهتمّ على أكمل وجهٍ بأولاده الكثر.

ـ من دونها، لا أدري ماذا كنتُ سأفعل! هي تنظِّم كلّ شيء، وترعى الجميع. زوجتي ذاتها لا تساوي قلَّامة ظفرها.

يجب أن أعترف أنَّني لم أُصِخ إلى هذه الثرثرة، فقد استغرقتُ في تأمُّلي.

آه! كم آلمني، وقد عرفتُ بقيَّة القصَّة، أن أفكِّر في فتنة ذلك اللقاء الأوَّل، وأن أصف تلك اللحظات التي شعرتُ فيها بالنشوة والسعادة! لم يشعر كريستوف كولومبوس، وهو واقف على مقدِّمة السفينة الشراعيَّة *سانتا ماريّا*، بالحدْس السعيد أكثر منِّي.

عرفتُ ذلك، لم يكن لدى أزيليا شيءُ من ثيكلا. وسرعان ما أصبحت عشيقتي. اكتشفتُ أنَّ الدكتور زورو يقود صبيانه إلى مدرسةٍ كاثوليكيَّة قرب عيادته من الساعة السابعة صباحًا ولا يرجع إلى بيته إلَّا ليلًا. وطوال النهار، وبالتالي تظلّ أزيليا وحدها طوال النهار، ترتِّب المنزل وتغسل وتكوي الغسيل، وتعدّ وجبة العشاء. وذات صباح، حضرتُ فجأةً واستغلَّيتُ عدم خبرتها، وضاجعتها. بكتْ أمام منظر الدم القرمزيِّ الجميل المنتشر على الأغطية الذي ما كان لأيِّ عذراء أن تتباهى وتفخر به أمام عائلتها. فشلتُ في إقناعها ألَّا نُبقي حبّنا سرِّيًّا:

ـ يجب بصورةٍ خاصَّة ألَّا يعرف لويس بهذا الأمر! ردَّدت بشكلٍ محموم. فهو مثل جميع أفراد عائلتنا، يكره الشماليِّين كرهًا شديدًا.

وذات يوم، استبدَّ بي الغضبُ أخيرًا:

ـ لستُ شماليًّا! اعترضتُ. إنَّني مالي، نصفي بامبارا، ونصفي الآخر أنتيلي...

هزَّت كتفيْها:

ـ إنَّه الشيء ذاته!

اعترضتُ من جديد:

ـ ليس الشيء ذاته على الإطلاق! بعض المناطق الإفريقيَّة، شمال هذا البلد، وشمال ساحل العاج، ومالي، وجزء من غينيا هي مناطق الماندينغ. هذا كلّ شيء. سكَّانها يتكلَّمون لغاتٍ متشابهة.

لم تهتمّ لما يمكن اعتباره درسَ حذلقةٍ في التاريخ.

وفى الدكتور زورو بوعده. وبعد بضعة أيَّام، أخبرتني رسالةٌ رسميَّة أنَّني عُيِّنت مديرًا لمركز التأهيل الاجتماعيّ. ونظرًا إلى الأجر الذي تقاضيته، فهمت لماذا كانوا يبحثون عن رئيس أطبَّاء منذ أشهر من دون جدوى. كان المركز يقوم على طريق غران بوبو، في مباني مجمَّع فندقيّ مغلق بسبب فرار السيَّاح. كانت الأجنحة المُصانة جيِّدًا فيما مضى، ولم يعد فيها الآن ماءٌ ولا كهرباءُ ولا دوراتُ مياه، متناثرةً على امتداد شاطئٍ يتقيَّأ البحر عليه باستمرار جثثًا، بعضها مقطَّعة الأوصال بشكلٍ فظيع. كان يُشاع أنَّها جثثُ المعارضين لديكليتيان. لأنَّه سرعان ما خلع ملابس الأبله، ورمى براءة المؤمن المبارك، ليكشف عن جشعه للسلطة.

في المركز، تُقيم نحو عشرين شابَّة اغتصبهنَّ جنودٌ من الطرفين، شماليُّون وجنوبيُّون. بعضهنَّ يحملن رُضَّعًا على ظهرهنَّ، ثمارَ تلك الاعتداءات. وبالمقارنة معه، كان مستشفى دانيمبي مجهَّزًا بشكل رائع. لم يكن بوسعي أن أصف لجميع الأمراض إلَّا الكينين أو الغانيدان.

وسرعان ما لاحظتُ أنَّني عثرتُ على موهبتي الحقيقيَّة هناك. لم أُخلق لأكون طبيبَ توليد في مستوصفٍ فخم للغاية، وإنَّما لأبقى قريبًا من البؤس الإنسانيّ. كان يمكن لهؤلاء الضحايا الشابَّات أن يكنَّ أخوات علي. ولأجلهنَّ، حاولتُ أن أفرض شيئًا من النظام حولي، لأنَّه كان يسود في المركز سوءُ إدارةٍ حقيقيّ. كان الجهاز الطبِّيّ يختلس الأدويةَ النادرة المُرسلة من

الصليب الأحمر، ويبيعها لمن يدفع أكثر. ساورني الشكّ في دناءاتٍ أشنع أيضًا، لكنَّني قرَّرتُ إغماضَ عينيَّ. ولو لم تُفسد أمِّي كلّ شيء، لاستطعتُ أن أنعم بسعادةٍ نسبيَّة. أصبحتْ منغِّصًا حقيقيًّا لكلِّ لياليَّ. وراحت تستشيط غضبًا:

ـ لا تقل لي إنَّ هذه الفتاة تشبهني. إنَّها غبيَّة!

صحيح أنَّ أزيليا، وإن كانت لها عينان تشبهان أحيانًا عينيْ أمِّي، لكنَّ الشبه يتوقَّف هنا. لم تكن مثقَّفةً تؤرِّقها مشاكل العالم الكبرى. ولم تكن أيضًا مثل جدَّتي، امرأةً مؤثِّرة التزمت التزامًا راسخًا بتحسين حياة قومها. كانت إنسانةً خجولةً يمكن نعتها بالسلبيَّة. تحمل هذا الاسم لأنَّ كاهنًا شابًّا عائدًا من سيفين أعطى لأمِّها، الحبلى، التي تنظِّف كلّ أسبوع الأرضيَّات الخشبيَّة لبيت الكاهن، نبتة الأزالية. راحت تذبل حين غرستها وتأخَّرتْ في الاخضرار. ولمَّا جاءت أمّها لترويها، لاحظت أنَّ النبتة أزهرت. وفي الصباح ذاته، فقدت ماء الجنين، ووُلدت الفتاة الصغيرة.

ـ ليس لهذه القصَّة أيّ معنى! كانت أمِّي تسخر. هل هنالك علاقةٌ بين الماء الذي روت به الأمّ نبتة الأزالية والماء الذي فقدته بعد ذلك بفترةٍ قصيرة؟ ماذا تعني هذه الاستعارة؟ القولُ إنَّك ستكابد آلامًا كثيرة بسبب شخصٍ تافه!

أيَّة آلام؟ ألم أكابد ما يكفي منها؟ ولأوَّل مرَّة، شككتُ ببصيرتها. كنتُ واثقًا أنَّ زمن السعادة وُلِد وعمَّا قريب سيولد زمن السلام. واقتنعتُ أخيرًا أنَّ أمِّي تغار من أزيليا، هي مَنْ لم تُقاسم أحدًا قلبي من قبل.

وذات صباحٍ انبلج كغيره من الصباحات، وجدتُ أزيليا راكعةً أمام حوضِ غسيل، تبكي بحرقة. ولمَّا ألححت عليها بالأسئلة، أخبرتني أخيرًا أنَّها تنتظر طفلًا. قفز قلبي في صدري. طفل! لم أتصوَّر قطّ سعادةً غامرة مثل هذه السعادة. غمرني شعور بالامتنان لا نهاية له، فأخذتها بين أحضاني. لاحظتُ حينها أنَّها ترتعش ومتجمِّدة. عاتبتها بحنان:

ـ لا تبكي! ما يحدث لنا في غاية الجمال! إنَّنا نضاهي الله!

لم تبدُ أنَّها تسمعني.

ـ أنا خائفة! همست.

ـ ممَّن؟

ـ منهم، من العائلة! لن يتقبَّلوا أبدًا أن أَلِد طفلًا من شماليّ. سيقتلونني أوَّلًا أو سيقتلونه.

ـ سبق وقلت لكِ إنَّني لست شماليًّا، كرَّرتُ مغتاظًا.

جعلتُ حالةَ إحباطها من حديثي معها حديثًا عابثًا. فلم أُلِحَّ.

ـ الآن، علينا أن نتزوَّج! قرَّرتُ.

هزَّت رأسها بحزن.

ـ لماذا تريد أن تتزوَّجني؟ ماذا سأُضيف إلى حياتك؟

لم أكلِّف نفسي عناء الردّ عليها.

في اليوم التالي، قصدتُ الدكتور زورو. كانت عيادته الجديدة تقع في حيٍّ شعبيٍّ، قذارته منفِّرة. تحاشيتُ بقدر ما أستطيع الكلاب الشاردة التي تتسكَّع على الأرصفة. في الفِناء،

كانت القابلات بمآزرهنَّ القذرة ينقلن دلاءً مخصَّصة للتبوُّل والتغوُّط، ويفرغنها في حفرةٍ نتنة، مكشوفة.

ـ لا ماء ولا كهرباء منذ يوميْن! شرح لي الدكتور زورو. نفعل ما بوسعنا. أيّ ريح حملتك إلى هنا، ريح طيِّبة أم ريح مشؤومة؟

شرحت له سبب زيارتي. ولمَّا سكتُّ، حدَّقَ فيَّ بعينيْن تمتلئان حقدًا، حقدًا باردًا وحازمًا وقاتلًا. حقدًا يتجاوزني، أنا، الفردَ البسيط. شعرتُ أنَّ حقده ينصبّ على عِرقي وثقافتي وأصولي، ومفاهيمَ لم أكن أنا نفسي أؤمن بها، ولكنْ لا يهمّ!

ـ وهكذا، قرَّعني. شماليّ مثلك، فتحتُ لك منزلي. ووجدتُ لكَ عملًا. وأنتَ، جعلتَ أختي الصغرى حبلى، هي البريئة التي لم تعاشر رجلًا في حياتها!

لم أعرف كيف أدافع عن نفسي.

ـ أنتَ وأمثالك، كلاب! كال الشتائم...

تحمَّلتُ هذه الشتائم النابية. بدايةً، لأنَّني لم أكن أريد أن تسوء الأمور. بعد ذلك، رحتُ أقول في سرِّي، رغمًا عنِّي، أنَّ الأمر يستحقّ. استطرد الدكتور زورو بهدوءٍ أكبر:

ـ في هذا الموضوع، رأيي لا يُعتدّ به، كما تعرف. وحده العجوز يمكنه أن يأذن بزواجك.

ـ لماذا سيعترض على ذلك؟ هتفتُ متعجِّبًا. إنَّني رجلٌ شريف.

أجابني باحتقار:

ـ في أيَّامنا هذه، من يرغب بتزويج ابنته لشخصٍ من الديولا؟

ـ لستُ من الديولا! صرختُ للمرَّة الألف. إنَّني بامبارا. في النهاية نصفي بامبارا!

لكنَّني كنتُ أعرف أنَّ المحاججة في هذه النقطة غير مجدية.

ـ عليك أن تذهب لتراه في قريتنا في تامب.

كانت تامب عاصمة إقليم ساحليّ. كان قساوسةٌ كاثوليك قد وطأوا في وقتٍ مبكر هذا الشريط من الأرض الذي سُمِّي على نحو غريبٍ «لسان بربريّ»، وقاموا بحملات تبشيرٍ ضخمة، وشيَّدوا كنائسَ ومدارسَ من الأخشاب. ومن هناك انطلقت طلائع «الموظَّفين الأفارقة». كان جان، والد أزيليا، خادمَ قساوسة أبرشيَّته. غسل لهم سراويلهم الداخليَّة المتصلِّبة بسبب السائل المنويّ والبراز، وكوى أثوابهم وسلَّمهم سرًّا في الليل صبيانًا أو فتيات لم يبلغوا سنَّ المراهقة. وحاليًّا، جعلت منه قرابته بالرئيس الجديد نبيلًا فوق مستوى الثرثرات.

بعد بضع كلمات منمَّقة مخصَّصة لطلب يد ابنته رسميًّا، دسستُ في يده مغلَّفًا محشوًّا بأوراق ماليَّة أحضرته له بناءً على نصيحة أزيليا.

ـ هذا عُرْفنا! أصرَّتْ. وعليكَ احترامه حتمًا!

لم أكن أشاطرها هذا الرأي. وباعتباري ابن أمِّي البارّ، كنت أرى أنَّ الأعراف تشبه أغصانَ الشجر. فإن تجاوزت زمنها وتعفَّنت، يجب قطعها.

فتح جان زورو المغلّف الذي سلّمته إيّاه، وأحصى محتواه بوقاحةٍ على مرأى من الجميع، ثم أغلقه ودسّه في جيبه. لم يكلِّف نفسه عناء شكري، وغادر الحُجرة وهو يصافحني على عجل. انتهت المقابلة.

صعدنا السيّارة، أنا وأزيليا. كان الليل يرخي ثقله فوق مزارع زيت النخيل، وعددٌ كبير من الخفافيش تنقضُّ نحو السماء. ولون البحر يستحيل هو أيضًا إلى الأسود. شعرتُ بالخوف لأوّل مرّة. خوفٌ شديدٌ لن يسعني تفنيدُ أسبابه. بدا لي أنَّ المستقبل يتربَّص بي مكشِّرًا عن أنيابٍ شبيهةٍ بأنياب الكلاب، وأنّه سينقضّ عليَّ وينهش حنجرتي.

ـ لا تعودي إلى منزل لويس هذا المساء. ابقي معي! طلبتُ من أزيليا.

وعلى دهشٍ منِّي، هي، الجبانة للغاية وغير المهتمَّة بإرضائي عمومًا، وافقت وابتداءً من تلك اللحظة، أقامت عندي. كتبتُ إلى أبيها وإلى لويس، واقترحتُ عليهما تاريخًا للزواج. لكنَّ أيًّا منهما لم يردّ. لذلك أُقيم العرس من دونهما عصر يوم سبت مع شاهديْن صديقيْن لأزيليا.

وعلى الرَّغم من هذه الظروف، فالسعادة التي تذوَّقتها في تلك الفترة اتَّسمتْ بغبطةٍ لا يسعني وصفها. أصبحتْ أزيليا كلُّها لي، أكثر ارتياحًا، وأقلّ فزعًا ممَّا كانت عليه في السابق. لكنَّني شعرتُ أنَّ ذلك لن يدوم. كنتُ مثل ملَّاحٍ في البحر يشعر أنَّ عاصفةً رهيبة، وربَّما قاتلة، تتهيَّأ للانقضاض عليه. إذًا، بانتظار

ذلك، رحتُ أضمّ حبيبتي إلى صدري بشغف، وأرْغِم نفسي على عدم التفكير في الأمر. وإذا كانت أزيليا تفتقر إلى الخبرة بالجنس عند لقائنا، فإنَّها امتلكت حسًّا باللذَّة سرعان ما أدهشني. كانت الليالي تبدو قصيرةً جدًّا. وطفقنا نمارس الجنس مثل مهووسيْن حتى انبلاج الفجر على نوافذنا. تلاشى الزمن. والحرب أيضًا.

واأسفاه! سرعان ما وصلت هذه الهدنة إلى نهايتها.

ذات صباح، بعد وصولي إلى العمل بقليل، اقتربت نصفُ دزِّينة سيَّارات شرطة من المركز، وهي تُطلق صفَّارات الإنذار بكلِّ قوَّة. تسمَّر المارَّة على الأرصفة، وهم يتشمَّمون رائحةً، بينما راح العسكريُّون ينزلون من مركباتهم. فتحوا بابَ السياج الشبكيّ بعنف وهُرعوا نحو مكتبي. سألتهم بدهشة عن سبب انتشار هذه القوَّة. وردًّا على ذلك، صفعني أحدُهم بقسوة وهو يصيح:

ـ أنتَ من جئنا لأخذه.

رموْني أرضًا بعنف. وأخيرًا، تحت أنظار الموظَّفين والنزلاء المذهولة، أنزلني العساكر الدَّرج بسرعةٍ فائقة، ودفعوني بفظاظةٍ في إحدى سيَّارات الجيب. اقتادوني من المركز إلى سجن توه بوه نل الشهير، على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا من المدينة.

كان صيت توه بوه نل يطبق الآفاق. في زمن الاستعمار، تعفَّنت وراء جدرانه الضخمة الرؤوسُ العنيدة في الاتِّحاد الفيدراليّ لإفريقيا الغربيَّة الفرنسيَّة، وجميعُ من كانوا يحلمون بالعدالة والحرِّيَّة لشعوبهم. وفيه نظم الشاعر المشهور أريبا أروزو قصيدته: «رغمًا عنكم، ستولد إفريقيا» التي كتبها على ورق

المراحيض، وعهد بها إلى حارسٍ لطيف. عرفتُ سببَ اعتقالي: اتَّهموني بالتجسُّس لصالح قوَّات الشمال الجديدة. لم يتطلَّب الأمر ذكاءً منِّي لأُخَمِّن من وشى بي. ولأيٍّ هدف؟ تقويض زواجي مع أزيليا.

أمضيتُ أيَّامي الأولى في الاعتقال، منهكًا فوق قاطعٍ خشبيٍّ، لا أفكِّر إلَّا بالمرأة التي افترقتُ عنها. كان عددُ رفاقي في الزنزانة ثلاثة. إسحق ومارك، بلطجيَّان ادّعيا أنَّهما من الوطنيِّين لترهيب حيِّهما، واغتصبا فتياتٍ، وقتلا غرماءَ لهما. الثالث، جيروم دانيي، لم يُعْتَقَل لأسبابٍ سياسيَّة. رجلٌ مميَّز يرتدي بأناقةٍ لباسَ السجن الموحَّد الخشن الأزرق، نصّابٌ، ومهرِّب مخدّرات من الدرجة الأولى، ورجلُ أعمالٍ فاسد جمع ثروةً مشبوهة. وكما هو معروف، الحياة مدهشة. فرغم اختلافِ أحدِنا عن الآخر، سيصبح جيروم واحدًا من أعزّ أصدقائي. نتهامس بالكثير من الأمور الفاحشة عن السجون. إنَّها بؤرٌ للعلاقات المثليَّة الجنسيَّة. في زنزانتي، لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل على الإطلاق. الشذوذ الوحيد، نجح جيروم في تخبئة أوراق لعبة التاروت، وراح يحاول من الصباح إلى المساء أن يقرأ المستقبل فيها.

ـ أنت مثلي، لن يطول بك المقام هنا، أكَّد لي. وأرانا قريبًا خارج السجن، حرّيْن كطيريْن.

وطفقت أمِّي تردِّد الشيءَ ذاته كلّ ليلة.

ـ ستكون فترةُ سجنك قصيرة.

مع ذلك، لم تُرِحْني هذه التكهُّنات. كنتُ مقتنعًا أنَّني لن أرى أزيليا ثانيةً أبدًا. حبيبتي أزيليا. ولو لم يكن جيروم موجودًا ليرفع معنويَّاتي باستمرار، ويراهن في اللحظة المناسبة، لأصبحتُ ميِّتًا.

ذات مساء، وقُبَيْل موعدِ النومِ بقليل، فتح الحرَّاس بابَ الزنزانة بعنف. أُعيد جيروم بعد تبرئته إلى عمليَّات احتياله واختلاساته من كلِّ الأنواع وإلى تهريب المخدّرات.

اعتبارًا من ذلك اليوم، أصابتني بلادةٌ حقيقيَّة. كان يُفترض أن أخضع لمحاكمة. لكنَّني لم أَرَ قطّ أيَّ محامٍ. ولم يدرس أحدٌ ملفِّي. وفي أيَّام الثلاثاء، ألتحق بالسجناء الآخرين، والرفش على كتفي، ونذهب لعزق الأعشاب الضارَّة في بستان زيت النخيل إيتا دو غنوسوماب. كنَّا نجتاز قرًى عديدة. وكان السكَّان يخرجون من أكواخهم ليشاهدوا مرورنا، ويكيلوا لنا شتائمَ مقذعة. ومع ذلك، خمَّنتُ أنَّ قلوبهم مفعمة بالشفقة علينا، وأنَّهم لا يتصرَّفون على هذا النحو إلَّا لإرضاء حرَّاسنا.

ولأنَّه ليس للزمن أيّ مفهوم في السجن، لا أدري إن مرَّت أيَّام أو أسابيع أو أشهر! وذات ليلة، ظهرت لي أمِّي:

ـ انتهى الأمر! همست مع تنهيدةِ ارتياح.

لكنَّها أضافت:

ـ سيبدأ الآن الأقسى بالنسبة لك.

استيقظتُ على صرير أبواب الزنازين الثقيلة تنفتح. أمسكنا الحرَّاس من أكتافنا، ودفعونا نحو الفناء حيث تنتظرنا شاحنات،

واقتادونا إلى مقرِّ الشرطة المركزيّ في إبيرنيا. وأصبحنا أحرارًا.

كان ذلك بدايةَ شهر أيّار، بدايةَ موسم الأمطار الكبير. كانت سماءٌ رماديَّةٌ مكفهرَّة تُرخي بثقلها على المدينة. وراح المطر يملأُ المزاريبَ بدفقٍ كريه، ويحوِّل التربة إلى طمْيٍ ضاربٍ إلى اللون البنِّيّ.

كنت قد أمضيت عشرةَ أشهرٍ من حياتي في سجن توه بوه نل، فترةً أطول بقليل من فترة معسكر دانيمبي. إنَّها في آنٍ معًا فترةٌ مديدة وفي غاية القصر. سيقول البعض إنَّ الحظّ حالفني في الخروج حيًّا من ذاك الجحيم. وسيؤكِّد أخرون، وقد اقتنعوا ببراءتي تمامًا، أنَّني كنت ضحيَّة.

كدتُ لا أعرف جيروم، الذي فاجأني بانتظاره لي. كان في أحسن حال، يرتدي ملابسَ بيضاء بالكامل، ويتوسَّط وجهه شاربٌ عريضٌ كمغنٍّ كوبيّ. كان قد بدأ حياةً جديدة، وتزوَّج امرأةً جديدة، أليس، واشترى ڤيلَّا في باسورا، وسط بساتين النخيل. لكنَّه ظلَّ وفيًّا لأوراق لعبة التاروت. وخلال الكيلومترات التي كانت تفصلنا عن باسورا، شرح لي التغيِّرات الكبيرة التي طرأت على البلد.

ـ لم يعد ثمَّة حرب! بعد مصالحة كبيرة بين الشمال والجنوب، أصبح صديقك حسن نائبًا للرئيس، وظلَّ ديوكليتيان رئيسًا. إنَّها تفاهةٌ حقيقيَّة. لا يمكن لرجلَيْن مختلفَيْن بهذا القدْر أن يتفاهما أبدًا على الحكم. وقريبًا، سيتغلَّب ديوكليتيان على خصمه بسهولة.

تلقَّيتُ هذه الأخبار بلامبالاة تامَّة. كان كلّ ذلك ينتمي إلى عالم لم يعد عالمي، ولم يكن كذلك قطّ. كان سؤالٌ واحد يؤرِّقني: أزيليا! أين هي؟

ـ كنُ شجاعًا! سمعتهم يقولون إنَّها... ماتت، همس جيروم.

ـ أزيليا ماتت! تلعثمتُ. مستحيل! وطفلتنا؟

تنهَّد:

ـ أظنَّها لم ترَ النور قطّ. ماتت في رحم أمِّها.

انهرتُ.

لو كان ذلك صحيحًا، لكنت شعرتُ به في أعماقي. ومن ثم، لكانت ثيكلا أخطرتني في الحلم، على الرَّغم من عدم مودَّتها لأزيليا. لكنَّها لم تُشاركني في هذا الخبر الرهيب. وفي الليل، لم أنم، مع أنَّني نسيتُ الراحة في فراشٍ وثير. وفي اليوم التالي، على الرَّغم من أنَّ الطقس ظلَّ أسوأ من ليلة أمس، هُرعتُ إلى عيادة الدكتور زورو. لم تعد موجودة. بدا البناء الذي كانت تشغله فيما مضى مهجورًا. وحين حاولتُ أن أسال حفنةً من المشرَّدين، المنتشرين على الرصيف، لاذوا بالفرار كأنَّ صعلوكًا بائسًا رثّ الثياب مثلي أرعبهم. أخذتني سيَّارةُ أجرةٍ عامَّة إلى ڤيلَّاه. لم يعد يسكن فيها. أكَّد لي بعض الخدم أنَّهم لم يسمعوا به قطّ. لماذا كنت متيقِّنًا أنَّهم يكذبون ويسخرون منِّي؟ أرشدوني إلى معلِّمهم، مدير الصيدليَّة الواقعة على بعد شارعيْن. لسوء الحظِّ، لم يكن الصيدلانيّ فيها. وكان المستخدَمون عنده يجهلون متى سيعود.

رجوتُ سائق الأجرة أن يقلّني إلى تامبا. احتفظت من هذه القرية، على الرَّغم من الرياح القويَّة التي تهبّ عليها القادمة من عُرض البحر، بذكرى رائعة. بدت لي في هذا اليوم الماطر قريةً أخرى تمامًا. فالبحرُ بلونه الرصاصيّ يزمجر كوحشٍ في موسم الشبق. صار والد أزيليا يسكن الآن منزلًا حجريًّا، الأوسع في تانب. أثار وصولي المفاجئ ذعرًا حقيقيًّا، فتوقَّفت الزوجات والخليلات عن تنقية خضار الوجبة. أدخلوني إلى صالة الطعام، المكتظَّة بمفروشات من آخر طراز، وانضمَّ إليَّ الأب زورو بعد فترةٍ مديدة. ومع أنَّه بدا أنضر من السابق، ممتلئ الخدَّيْن وسمينًا، لكنَّ الشيخوخة داهمته، كما يُقال في العامِّيَّة.

ـ مسكينة، مسكينة يا أزيليا! ماتت، انتحب منذ البداية. حبيبتي الصغيرة ماتت.

وانهال بسيلٍ من التوضيحات:

ـ بعد اعتقالك، لم تقوَ على تحمُّل الحياة. أُجهضتْ في البداية. ولولا عناية زوجة أبيها، لماتت.

وبكى بكاءً مريرًا:

ـ حين تمكَّنتْ من المشي، راحت تهرب وتذهب مشيًا إلى توه بوه نل. وهناك، أخذت تتوسَّل للحرَّاس حتى يعطوها الإذن برؤيتك. وطفقت تقسم أنَّه ليس هنالك شيءٌ تُلامَ عليه، وأنَّك بريءٌ براءة الأطفال. كان الحرَّاس يأمرونها ألَّا تعود. لكنَّها كانت ترجع. وذات يوم، انزعجوا منها انزعاجًا شديدًا فانهالوا عليها ضربًا حتى قتلوها.

لماذا تولَّدت لديَّ قناعةٌ راسخةٌ أنَّ ذلك الرجل يكذب أيضًا؟ لقد اختلق هذه القصَّة في كلِّ تفاصيلها. ورفضتُ تقبُّل هذا الأمر بكلِّ كياني:

ـ أين دُفنتْ؟ تلعثمتُ. أريد رؤية قبرها.

اشتدَّ بكاؤه:

ـ لم يسلِّمونا جثَّتها إطلاقًا. نظنّ أنَّهم رموها في التراب في مكانٍ ما حول توه بوه نل. يبدو أنَّه توجد هناك مقبرةٌ جماعيَّة.

وراح يذرف دموعَ التماسيح، أنا واثقٌ من ذلك!

ـ لويس؟ قال ردًّا على أسئلتي.

نفخ أوداجه:

ـ عيَّنه ديوكليتيان سفيرًا في جنوب إفريقيا، في بريتوريا. ومع جميع هؤلاء الأولاد، ما كان بمقدوره أن يتولَّى منصبه لو لم ترجع زوجته.

ـ زوجته عادت؟ قلتُ مندهشًا.

ـ أجل! أكَّدَ، عادت إليه.

وعندها، اندفع في خطبةٍ لاذعةٍ عنيفة عن جشع النساء اللواتي لا همَّ لهنَّ سوى المال والمناصب الفخريَّة. ومرَّةً أخرى أيضًا، تيقَّنتُ أنَّه يكذب.

في الأسابيع التالية، ثابرتُ بتصميم أكبر على فكِّ رموز الحقيقة. وأخذتُ أشعر أنَّني ضحيَّةُ مؤامرةٍ. لقد سلبني آل زورو ابنتي وخطفوا أزيليا، وبتُّ واثقًا أنَّ هذه الأخيرة على قيد الحياة.

لذلك، رحتُ أخال أنَّني أراها وأنا أمشي على غير هدى في الشوارع. كنتُ أركض وراء نساءٍ مجهولاتٍ يشتمنني أو يبتسمنَ لي ابتسامةَ ترحيب. وفي نهاية بحثي العبثيّ المستمرّ، حين أعود منهكًا إلى المنزل، كان جيروم يرجوني:

ـ واجه الأمر! لستَ أوَّل رجلٍ حطَّم القدرُ آماله. انظر إليّ. ألم أبنِ حياتي من جديد؟

في الليل، كانت أمِّي أكثر حزمًا أيضًا:

ـ اقلب الصفحة. كانت تأمرني. أرى السعادة تزهر لأجلك هناك، هناك، في نهاية ممرٍّ طويل. في مكانٍ آخر.

لم أصغِ إلى أحد. وأبديتُ استعدادًا لكلِّ التجاوزات. كان يكفيني أن أسمع اسمَ عرَّافٍ لأقرِّر استشارته. لذلك، راح المشعوذون يبتزُّونني بالدجاج والماعز وبعجولٍ أُلْبِسَتْ أثوابًا لا تشوبها شائبة، وأمتارًا من القماش الأبيض ثمنًا لتكهُّناتهم. وبعد أن تحدَّث أحدُهم أمامي عن الكاهن أورو شوكو، المعصوم، الذي يقرأ عِبَر الماضي ويكشف خيوط المستقبل، حاولتُ الذهاب إلى نيجيريا. لكنَّ السفير رفض منحي الڤيزا، لأنَّه اكتشف أنَّني خرجتُ من سجن توه بوه نل. لقد ارتكبتُ أفعالًا قد تكون خطيرة. وهكذا عدتُ ذات يوم إلى سجن توه بوه نل، وكان قد أُخْلي من سجنائه السياسيِّين، ولم يعد يُحتجز فيه إلَّا سجناء الحقّ العامّ. صعقني قبحُ المكان الفظيع. كيف استطعتُ أن أقضي ما يقارب العام من عمري فيه؟ كان هذا دليلًا على أنَّ الإنسان حيوانٌ عنيدٌ فعلًا. سخر الحرَّاس منِّي:

ـ طاب يومك، أيُّها الشماليّ! هل اشتقت لنا إلى هذا الحدِّ حتى عدت بهذه السرعة لترانا؟

رويتُ سبب زيارتي:

ـ هذا غير معقول! هتف أحدُهما متعجِّبًا. صحيحٌ، لدينا مقبرة جماعيَّة. لكنَّها تُستخدم في دفن المعتقلين الذين يموتون بالسيدا، أو السلِّ، أو الزُّحار أو أمراضٍ أخرى حين لا تطالب العائلات بالجثث، وهو أمرٌ نادرُ الحدوث.

وإزاء إصراري، ذهب أحد الرجال وأحضر السجلّ الذي دوَّنوا فيه أسماء الوفيَّات. وعلى الرَّغم من أنَّنا بحثنا من الاسم الأوَّل، إيميل أديافي، حتى الاسم الأخير، زكريا زوكبو، لكنَّنا لم نعثر على أثرٍ لاسم أزيليا زورو.

كان كلّ فشل يزيدني إصرارًا على قراري. عُدْتُ إلى حيِّي القديم. ماذا كنتُ آملُ من هذه الزيارة؟ لا أدري كيف أقول ذلك. لم يزل الوطنيُّون والميليشيا موجودين. وفي المقرّ، حدَّجني الوطنيُّون بنظراتٍ غاضبة:

ـ كنتُ أسكن هنا. هل تتذكَّرونني؟ رجوتهم. أبحث عن زوجتي. إنَّها في ريعان الشباب. رشيقةٌ. خجولةٌ. هل رأيتموها؟

لم يرها أحد. هل تذكَّروا أنَّني عشتُ في جوارهم؟ المؤكَّد هو أنَّهم لم يتذكَّروا سحنتي. أمَّا عند الميليشيات، فالأمر اختلف تمامًا. استقبلوني استقبالًا ودِّيًا. أجلسوني وقدَّموا لي شاي لبتون. تذكَّروا أزيليا تمامًا. روى لي أحدُهم بلغةٍ فرنسيَّةٍ ركيكة أنَّه بعد اختفائي بقليل، في يومٍ غزيرِ المطر، ساعد سائق شاحنةٍ

صغيرة تنقل أثاثَ منزل. كانت الشاحنة قد غاصت، وراح جميع الناس يدفعونها، ما عدا أزيليا التي لم ينسَ سحنتَها الشاحبة وبطنَها الكبير.

ـ أين اتَّجهت تلك الشاحنة الصغيرة؟ تلعثمتُ.

لم تكن لديه أيَّةُ فكرةٍ عن ذلك. حين أقلعت الشاحنة أخيرًا، تتبعها سيَّارة أجرة مكتوبٌ على جنبها كلمات «تانبي ـ إبيرنيا»، انعطفتْ إلى اليسار، وكأنَّها تتَّجه إلى جادَّة الجنرال ديغول. ظلَّت الڤيلَّا غير مسكونة حتى جاءت عائلةٌ وضعت يدَها عليها وأقامت فيها.

قد لا يسعني أن أصف أثر هذه المحادثة عليّ. ماذا فعلوا بزوجتي؟ وماذا حدث لطفلنا؟ استولى عليَّ يأسٌ أكبر من المعتاد، فبحثت عن سيَّارة أجرة، واصطدمتُ بمجموعةٍ من رجال الشرطة. راحوا يوقفون السيَّارات ويدفعون المارَّة بوحشيَّة نحو الأرصفة. وتقدَّم موكب سيَّارات مرسيدس. ولدى مروره، أخذ الناس يصفِّقون ويهتفون بأعلى صوتهم ويرفعون قبضاتهم:

ـ عاش ديوكليتيان! عاش حسن! مرحى! مرحى!

مع ذلك، ظننتُ أنَّ حماسهم مصطنعٌ، وأنَّهم يريدون فقط إرضاءَ رجال الشرطة. في سيَّارة المرسيدس الأولى، خلتُ أنَّني لمحت حسن متَّكئًا على الوسائد. أوحت لي هذه الحادثة بفكرة طلب مقابلته لأشرح له مأساتي. فما فائدة أنَّني أحدُ أصدقائه؟

لذلك قصدتُ مقرّ الرئاسة، عبارة عن حصنٍ حقيقيّ يحرسه الجنود. فوجئتُ أنَّهم لم ينظروا حتى إلى أوراقي، وتركوني أمر.

وحين صرتُ في الداخل، اختلف الأمر. جعلني الموظَّفون أملأ أكداسًا وأكداسًا من الاستمارات، وعاملوني مثل كرة الطاولة. دامت هذه الحال لأسابيع.

ـ ارجع الخميس.

ـ ارجع الاثنين.

كنت أعود في اليوم المحدَّد. وكان واضحًا أنَّهم يتسلُّون بي. أخيرًا، وعلى دهش منهم، وافق نائب الرئيس على استقبالي.

وجدتُ حسن مرتديًا البزَّة العسكريَّة لقوَّات الشمال الجديدة. كان قد سمُن وعلى نحوٍ غريب يرتدي قناع ديوكليتيان ذاته، كأنَّ السلطة تُعيد تشكيل الرجل! أظهر تعبيرًا مبالغًا في السماحة مثل بابا أو سفيرٍ بابويّ. فتَّشت في داخلي عن بقايا صداقتنا القديمة كمن يحرِّك رمادًا بعصا، وأدهشني أن أرى حزمةَ شررٍ حارق تنبثق منها.

ـ يا لمظهرك! قال وهو يحدِّق فيّ بشفقة.

ـ أنتَ، بالعكس، تبدو في أحسن حال. ماذا ستفعل الآن وقد أصبحتَ على رأس البلد؟

ـ ما أشاء... قال حالمًا.

ثم اتَّخذ هيئةً ليِّنة، وبدأ يروي درسًا تعلَّمه بصعوبة:

ـ سأعمل مع ديوكليتيان...

ـ وهل هذا ممكن؟ قاطعته. يصفونه بالجاهل، وشبه الأُمِّيّ، والعنيد والفظّ.

ـ هذا ليس صحيحًا، أكَّد. نحن متفاهمان تمامًا. اتَّفقنا على جميع النقاط تقريبًا. سنستعيد عظمة الماضي الإفريقي، وسنؤسِّس من جديد المساواة والعدالة في هذا البلد بالتسامح. لا شماليُّون، ولا جنوبيُّون، ولا أجانب أيضًا. نحن جميعًا أفارقة. علينا أن نعمل معًا لمستقبل قارَّتنا والعالم أجمع.

خلتُ أنَّها عظةٌ تُلْقى في الأمم المتحدة، ذاك المعبد للأماني الطيِّبة. كتمتُ شكوكي وحكيتُ قضيَّتي. أصغى إليَّ بانتباه، وهو يدوِّن ملاحظاتٍ على مفكِّرة. حين سكتُّ، أعلن متأمِّلًا:

ـ آل زورو هم أتباع ديوكليتيان، هذا معروف. وهم يهتمُّون بجميع أعماله القذرة. لكنْ ما مصلحتهم ليكذبوا عليك في شأن زوجتك؟ لماذا ترفض تصديقهم؟

ـ أعرف، أشعر أنَّها على قيد الحياة. وهي تنتظرني في مكانٍ ما، لا أعرف أين! طفلتي أيضًا تنتظرني.

ـ أحلام عاشق لا يريد أن يتقبَّل الواقع! قال وهو يهزّ كتفيْه.

ساد صمتٌ، ثم استأنف:

ـ اعتمد عليّ. سآمر بالتحقيق. وحين أعرف شيئًا، سأُخبرك.

فهمتُ أنَّ المقابلة انتهتْ، فنهضتُ. رافقني حتى المدخل. وعلى عتبة الباب، اختلجتْ بقيَّة عاطفة بيننا. ضمَّني إلى صدره. عانقته بحرارة، ثم انفجرتُ بالنحيب وهربتُ خجلًا.

عدت إلى باسورا.

بعد أن تعبت من العيش عالةً على جيروم، استلمت بعد فترةٍ

وجيزة عملًا كطبيب نسائيٍّ في دار التوليد. وجدتُ جوًّا سرعان ما استمتعت فيه. أصبحتُ واحدًا من فريق أطبَّاءٍ صغير جميعهم أجانب، ليتوانيُّون وتشيك ورومان، تشرَّدوا من ديارهم بسبب تدنِّي الأجور الكبير في مهنتهم. وطفقنا نعمل فوق طاقاتنا في أقسى الظروف. عقدتُ صداقةً مع فالدا، وهو ليتوانيّ راح يحاول في موعد الجري أن يثير شفقتي وهو يثرثر بلغة فرنسيَّة ركيكة عن عذابات حبِّه لشابَّةٍ تكره عائلتها ذوي البشرة البيضاء. ما أقسى الحياة التي نعيشها! البعض لا يحبّ البيض، وآخرون لا يحبُّون السود. وهؤلاء لا يحبُّون الشماليِّين، وأولئك لا يحبُّون الجنوبيِّين.

في دار التوليد، كنتُ الوحيد بين الأطبَّاء من يتكلَّم لغة البلد. هذا يعني أنَّني كنت الوحيدَ القادرَ على التواصل مباشرةً مع المريضات، أمَّا الأطبَّاء الآخرون فاضطروا إلى الاستعانة بمترجمين. ولم ينفكّ الأطفال يولدون مثنًى وحتى ثلاثًا، لأنَّ القدر يحبّ حبًّا جمًّا أن يعوِّض بهذه الطريقة عن حالات العجز الشديد. إنَّها أرضٌ غنيَّةٌ وخصبةٌ بقدر البؤس!

ذات مساء، بينما أنا مستغرق في لهفتي، وذهني محموم بالانتظار والتخيُّلات، وقد جافاني النوم، طرق جيروم باب منزلي بعنف.

ـ انهض! أمرني. تعال بسرعة.

هرعتُ معه إلى الشرفة. في الناحية الأخرى، يُغرِقُ الزبد بساتين النخيل، كانت إبيرنيا تحترق كما في أسوأ لحظات الحرب الأهليَّة. كانت ألسنة اللهب تقتحم بوحشيَّةٍ عنان السماء. مكثنا

في مكاننا، بلا كلام، وقد استبدَّ بنا القلق. ماذا يحدث أيضًا؟

نحو الساعة الرابعة صباحًا، ومن فرط الضغط على أزرار الراديو، أخبرتنا إحدى المحطَّات أنَّ انقلابًا جديدًا حدث منذ قليل. اغتيل ديوكليتيان. وحدة رجالٍ مغاوير مقنَّعين وصلوا على درَّاجات ناريَّة، وفجَّروا فيلَّا عشيقته المفضَّلة، خلاسيَّة برازيليَّة، حين كان يتلذَّذ كعادته كلّ يوم جمعة بتناول الفيجوادا، الطبق الذي يحبّه. وقُتِلَ في الضربة ذاتها، الخليلة وبناتها الصغيرات الثلاث اللاتي أنجبتهنَّ من زوجٍ هجرته، ومربِّيتهنَّ المخلصة، وسائق ديوكليتيان، وشخصٌ راونديّ هربَ من بلاده خوفًا من التطهير العرقيّ، الدليل، إن كانت هناك حاجة لذلك، على أنَّ الموت يدركنا أنَّى كنَّا، ومرافقوه الشخصيُّون، إضافةً إلى عددٍ لا يُحصى من الزَّوار، والأقارب المتطفِّلين، والخدم. مذبحةٌ حقيقيَّة! وعلى الرَّغم من أنَّه لم يخامر أحدٌ أدنى شكّ في مسؤوليَّة حسن عن هذه المجزرة، لكنَّه ظهر على التلفاز مبديًا تأثُّرًا عميقًا. لم يرتدِ أيضًا البزَّة العسكريَّة، وإنَّما بزَّةٌ رئاسيَّة رسميَّة ناعمة، وألقى خطابًا الساعة الرابعة على محطَّة فيدل. ندَّد بفظاعة هذه الجريمة، وكال المديح للفقيد، وأمر بالحِداد سبعة أيَّام تُقام خلالها مراسم الجنازة الوطنيَّة لمجمَّع الكنائس في كاتدرائيَّة غامايبل. أعتقد أنَّني لم أتألَّم في حياتي إلى هذا الحدّ، إلَّا حين ماتت أمِّي. فصديقي، وأخي، وكياني الآخر أصبح قاتلًا! لماذا؟ ما الذي قاده إلى ذلك؟ هل هي الرغبة في منافسة جدِّه، مؤسِّس الأمبراطوريَّة؟ بالنسبة لي، راح كلُّ شيءٍ يتداعى. وانهارت أسوار سيغو التي خضَّبها مجرمٌ بالدم. هذا ما قادتنا إليه الغطرسة

المتعصِّبة للأصول وهَوَس استعادة أمجاد الماضي. علاوة على ذلك، تذكَّرتُ هيئته المداهنة، ووعظه المتكرِّر، فتملَّكني حَنَقٌ مُهين. أيُّ مغفَّلٍ حسبني؟ آه أجل! لقد سخر منِّي بمهارة! ولم تواسني تكهُّنات جيروم:

ـ سيكون الانتقام مريعًا، راح يكرِّر. وقريبًا، سترى. سيردّ عليه شخصٌ جنوبيّ بالطريقة ذاتها.

سمَّرنا الفضول أمام الشاشة لساعاتٍ ونحن نتابع على التلفاز مراسمَ الجنازة الوطنيَّة. وإن كانت الجنازةُ تستحقّ اسم «مجمَّع الكنائس»، فذلك لأنَّها جمعت، إضافة إلى رؤساء ووزراء البلدان المجاورة، رجالُ دينٍ من أديان مختلفة. أحصينا عددًا كبيرًا من الشخصيَّات البارزة الكاثوليكيَّة الكونغوليَّة، بينهم رئيس أساقفة مدينة غوما الذي ترك رعاياه يقتتلون لبضعة أيَّام. ثم أئمَّة أكبر مساجد المغرب وحتى إمام سلوڤيني. مع ذلك، كان الشخص الأبرز في الجنازة أبرص من نيجيريا، مليونير نفط، أنشأ مؤسَّسةً لاستقبال وتربية المواليد البرص، الناجين من سكِّين المضحِّين. كان مُحاطًا بنحو عشرين طفلًا، جميعُهم بُرْصٌ بشكلٍ واضح، رتَّلوا قدَّاساتٍ بأصواتهم الملائكيَّة. وهو من اعتلى المنبر وألقى العظة الدينيَّة: *إنَّ عصر التجهيل والتعصُّب ولَّى. ونحن الآن ندخل حقبة سلام ومحبَّة وأخوَّة من أجل تنمية الصالح العامّ.*

خلال الشهر التالي، وعلى الرَّغم من هذه العبارات المطمئنة، اجتاحت البلد موجةُ قمعٍ اكتشفنا هولَها من مطالعة الصحف الأجنبيَّة التي كان جيروم ينجح بالحصول عليها بعد عناءٍ كبير. لم يزل بعض الجنوبيِّين معزولين عن مناصبهم، ومرميِّين في

السجن أو مكرهين على النفي. واستدعي سفراءُ جنوبيُّون من مراكزهم وأُدينوا بالخيانة. وذات يوم، قرأت أنَّ سفيرًا شماليًّا حلَّ مكان لويس زورو في بريتوريا. هذا الرجل هو مفتاح اللغز الذي أتخبَّط فيه. وعليَّ أن أتحدَّث معه بأيِّ ثمن.

وفي أثناء محاولة حلَّ عقدة الشائعات، تارةً جعلته ميِّتًا، اغتيل مع جميع أفراد عائلته، وتارةً هرب إلى الخارج، مرَّت أسابيع.

خلال هذه الفترة العصيبة، تمثَّل العمل الإيجابيّ الوحيد للرئيس الجديد بإعادة إعمار إبيرنيا. ومن الصباح الباكر، اسْتُخْدِمَ متطوِّعون مجنَّدون بالقوَّة في الشمال في كنس الشوارع والأرصفة، وتدعيم وطِلاء الصروح والمباني العامَّة، بينما طاردت فرقٌ أخرى الكلابَ الشاردة، وجمعتها ودفعتها إلى المحارق الموضوعة على مفارق الطرق. وانتشرت رائحةٌ كريهة.

آنذاك، تلقَّيتُ رسالةً من الرئاسة. مغلَّفٌ رقيقٌ قلَّبته وقلَّبته بين يديَّ قبل أن أفتحه، توجُّسًا من جسامة المصيبة التي يُخبرني بها. أعلمتني الرئاسة أنَّ الدعوى 007، باباكار تراوري ضدَّ عائلة زورو، حُفِظَتْ. كان المغلَّف يحتوي فوق ذلك على شهادة وفاة أزيليا زورو، الميِّتة بالتهاب السحايا في مستشفى تانب، قبل عام.

ـ هذا مستحيل! صرختُ. ادَّعى والدها أنَّها قُتلت على يد حرَّاس سجن توه بوه نل!

تصدَّع شيءٌ في داخلي كما في يوم وفاة أمِّي، وسقطت أرضًا.

عندما استعدت وعيي، كان قد مرَّ أكثر من شهر. هذيتُ، وألهبتني نوباتُ حمَّى شديدة. كنتُ بين الحياة والموت. والآن، بعد أن زال كلّ خطر، لم يعد لديَّ من القوَّة أكثر من طفلٍ صغير.

ـ إنَّهم يكذبون. جميعهم يكذبون! طفقتُ أصرخ معاندًا فور أن استعدتُ وعيي، متأهِّبًا لاستئناف معاركي العبثيَّة.

تدخَّلتْ حينها أمِّي بحزم:

ـ عليك مغادرة هذا البلد. إن بقيتَ في إبيرنيا ستغدو مجنونًا هنا، أعلنت.

قلتُ ساخرًا:

ـ سبق للبعض أن اعتبرني مجنونًا. أين تريدين أن أذهب؟

ساد صمت.

ـ إلى دياري! استأنفتْ. أُريدك أن تذهب إلى بلدي.

اعتقدتُ أنَّني أسأتُ الفهم:

ـ هل تريدين المزاح؟

هزَّت رأسها، وأكَّدت:

ـ لم أكن في حياتي جدِّيَّة أكثر من الآن.

أبيتُ أن أفهم:

ـ أخبرْتِني دومًا أنَّ بلدكِ ليس بلدًا!

ـ إنَّها مقاطعة ما وراء البحار، وليست بلدًا. لكنْ هذا بالتحديد ما يلزمك في الحالة التي أنتَ عليها. في دياري لا

يحدث شيء. لا حربٌ أهليَّةٌ ولا ديكتاتورٌ دمويّ ولا انقلاب. الناس ينظِّمون إضرابات لا تنتهي من أجل سعر النفط أو البيض. يضعون لوائح بالموادّ الضروريَّة الأوَّليَّة، ويطالبون بتخفيض أسعارها. لكنْ توجد الفطرة البديهة التي لم يفلح عناد المروِّجين والمطوِّرين في تشويهها. هل تتذكَّر هذه الأبيات للشاعر الرومانسيّ؟

«حين يتغيَّر كلّ شيء من حولك، تظلّ الفطرةُ على حالها،

فارقد في أحضانها المشرَّعة لك على الدوام.»

يوجد جزءان: الشمال والجنوب، شبيهان بأرضيْن مختلفتيْن، ليس في اللغة أو الدِّين كما أوحيت للتوِّ في قصَّتك، وإنَّما في النوعيَّة والجمال. إحداهما جافَّة وكاوية، موطن شواطئ الرمال البيضاء، ومزارع قصب السكَّر المنبسطة كراحة اليد، وبينهما هنا وهناك تنتصب عرائش نبات الدباء. والأخرى، رطبة وضبابيَّة، مرتع الجبال والمستنقعات الكبريتيَّة الصفراء.

ـ وماذا سأفعل هناك؟ هل تريدين أن أقوم برحلاتٍ وألتقط الصُّوَر كسائح؟

ـ ولِمَ لا؟ قالت ضاحكة. عالمنا هو عالمُ متلصِّصين. افعل مثل الآخرين. نسيتُ، بلدي هو فردوس نوادي ميد.

وبجدِّيَّةٍ أكثر، استأنفت ثيكلا:

ـ ستمارس مهنتك، وهي من أجمل المهن في العالم. وكالمعتاد، لن تهتمّ بجني المال، وإنَّما بفعل الخير. وهناك يتلاشى دور العقل.

هل كانت تسخر؟ لم يجذبني اقتراحها. مع ذلك، أين أذهب؟ ثم إنَّني لم أستطع في حياتي أن أرفض شيئًا لأمِّي.

إنَّ الأيَّام الأخيرة التي نقضيها في مدينةٍ تشبه الأيَّام التي تنهي الحياة. سلسلةُ صُوَرٍ وذكريات تتوالى في الذاكرة. رحتُ أرى نفسي صبيًّا صغيرًا في تيغويري، أنعم بسعادة الطفولة بجانب أمِّي الحبيبة من دون سبب. ثم في سيغو، بين جدَّيَّ العزيزيْن والمبجَّلَيْن. وطفقتُ أتذكَّر وصولي إلى إبيرنيا حين لم يكن يشغل بالي إلَّا صداقتي مع حسن، ولم أتصوَّر للحظةٍ واحدة أنَّ مصائرنا ستفترق لا محالة: هو تربَّع على قمَّة السلطة، وأنا بقيت مواطنًا نكرة. كم من الوقت سيبقى على رأس هذا البلد؟ ومقابل كم من الجرائم؟ أثبتَ فعلًا أن لا شيء يثنيه عن عزمه. فإلى أين سيمضي؟

فكَّرتُ في علي، المسكين علي، نقيض حسن. لعلِّي أخطأتُ، ولم يزل على قيد الحياة؟ أين يوجد في هذه اللحظة؟ وهل نجح في تحقيق حلمه بالذهاب إلى فرنسا؟

عشتُ مرَّةً أخرى أيضًا أشهري المديدة في دانيمبي، ثم في توه بوه نل، يتملَّكني انطباعٌ غريب أنَّ تلك التجارب عاشها شخصٌ آخر، شخصٌ حسبوه أنا. وعلى الأخصِّ، فكَّرتُ في أزيليا. إنَّها ضحيَّة مجزرة تتجاوزنا. نتحمَّل مسؤوليَّتها ـ شماليُّون وجنوبيُّون. فالنساء مجرَّد تفصيلٍ في تاريخنا. بعد أن أخذها لويس زورو معه إلى بريتوريا لتكون مجرَّد خادمة صغيرة، عادت أزيليا إلى إبيرنيا حين أُقيل من منصبه، ورُميت في السجن معه، وربَّما أعدمها رجال حسن معه. وفي نهاية المطاف، يمكن القول

إنَّ أخي وتوأمي ساهم في تحطيم أعزّ ما لديَّ في العالم. ماذا لو كنتُ هربتُ مع أزيليا إلى بلادٍ نتمتَّع فيها بحرِّيَّة الحبِّ والعيش على هوانا؟ لكنْ هل توجد مثل هذه البلدان؟ وأين هي؟

جئتُ إلى هنا طاعةً لأمر أمِّي. ولا بدَّ من أن أعترف أنَّني لم أقع في غرام البلد كما تمنَّت. بالنسبة لي، الفطرةُ ليست سوى تعميةٍ كبيرة. ما يهمّني هو هل الإنسان ساخطٌ وتعيسٌ ومحبط. أمَّا هنا، فالإنسان ليس سعيدًا لأنَّه لا يستطيع أن يعيش خاضعًا.

مع ذلك، ها هي سعادةٌ غير متوقَّعة هبطتْ عليَّ: ظننتُ أنَّني وجدتُ طفلتي. ابنتي. لذلك كنتُ على وشك أن أضع حدًّا لتيهي وأستقر. في تلك الأثناء، أنت يا موقار، أقنعتني أنَّني كنت أسبِّب أذًى بالغًا لآناييس. في أن أحرمها من أرضها ومعرفة أصولها. تركتني أمِّي دومًا أفهم أنَّ أماكن الولادة هي نتائج الصدفة. فالأصل قد يكون ثمرةَ حادثٍ عَرَضيٍّ.

من سيُخبرني إن كان ذلك صحيحًا أم خطأً؟

عندما سكت باباكار، كان لونُ قبَّةِ السماء يستحيل إلى الرماديِّ الفاتح. شعرنا أنَّ الشمس تتهيَّأ لتسطع بين الغيوم وفي الحديقة، ترفرف العصافير الطنَّانة المخبولة حول مدقَّات الأزهار. تحدَّثَ لساعات. أمسك موقار يده، وضمَّها إلى وجنته، ثم أسند شفتيه عليها. وبعد ذلك، وكأنَّهما شعرا بالخجل من هذه الحركة الحميميَّة جدًّا، توجَّه الرجلان إلى غرفتيْهما.

حلَّ أخيرًا موعد الصَّوْم الكبير، كاويًا وجافًّا بقدر ما كان الشتاء ممطرًا. كان بعض الملاعين الصغار يبيعون قوارير مياه من النبع، وفي الحقيقة معبَّأة من الأنهار النادرة التي لم تجفّ. وكان الأطفال والشيوخ الذين يشربون هذه المياه يشارفون على الموت من المغص الفظيع. في هذا الجوِّ المحموم، سَرَت شائعاتٌ في غاية الغرابة. في مقبرة ترونيل، نُبِشَتْ الحفرة المتواضعة التي دُفِنَ فيها جثمان «الهاييتيَّة غير الشرعيَّة»، وسُحِبَتْ جثَّة المتوفَّاة في

الطين، ونَهَشَتْ وحوشٌ ضارية غير معروفة نصفها. عثروا على رأسها في ناحية، وأعضائها في ناحية أخرى. وأكَّد آخرون بالعكس أنَّ جثَّتها بكاملها اختفت، وأنَّ القبر كان فارغًا مثل قبر إليعازر الذي بُعث من بين الأموات. بعد الحريق الغامض للكوخ الذي تقاسمته مع موڤار، زاد هذا الأمر من حالة القلق. من كانت تلك «الهاييتيَّة غير الشرعيَّة» في الحقيقة؟

حين نُمي ذلك إلى باباكار، لم يعر أيّ انتباه إلى تلك الأراجيف. لكنَّه لدى عودته إلى بيته، وجد موڤار فريسةَ حالة ذعر. شرح له بصعوبة ـ مازجًا اللغة الكريوليَّة بالفرنسيَّة، لأنَّ باباكار كان سجَّله في دورات محو الأمِّيَّة في البلديَّة ـ أنَّه لو كان أحدٌ قد لمس جثَّة رينيت، لما استطاع العثور عليها حين بحث عنها. بالنسبة لعقلٍ ديكارتيّ، ستبدو هذه الأقاويل محضَ هذياناتٍ ساذجة. لكنْ لم يكن باباكار يتمتَّع بعقلٍ ديكارتيّ، والحمد لله!

ـ العثور عليها! استفهم. ماذا تهرف؟

اتَّخذ موڤار هيئةً وقورة:

ـ هاييتي، قال باللغة الكريوليَّة، ليست مكانًا كبقيَّة الأمكنة. الأحياء والأموات يبقون فيها معًا. فضلًا عن ذلك، يُدْفَن الموتى إلى جانب الأحياء. أنت ترى أشخاصًا في الشارع، موجودين ويتكلَّمون ويمشون. في الواقع، توفُّوا منذ زمن طويل.

ـ إذًا، كيف نفرِّق بينهم؟ سأل باباكار بشيءٍ من السخرية هذه المرَّة.

ـ لا نستطيع! أجاب موقار بمنتهى الجدِّيَّة. أشخاص مميَّزون فقط ينجحون في ذلك. إذا فقدتَ شخصًا تحبُّه حبًّا جمًّا، تُخبرهم مشكلتك، فيبحثون. وذات يوم، يقولون لك وهم يظهرون شخصًا: «وجدناه. ها هو ذا!» وتأخذه معك إلى بيتك.

عند هذه الكلمات، أشرق وجهه. وطفق باباكار نفسه يحلم. وماذا لو كان هذا حقيقةً؟ لو كان ممكنًا العثور عليهم جميعًا: ثيكلا وأزيليا وجدَّته وهوغو مورينو، هؤلاء الذين فقدهم؟ للأسف، كان يعرف أنَّ الموت هو حدٌّ لا يتخطَّاه أحدٌ مرَّتين.

وحتى يهدِّئ روع صديقه، وافق باباكار أن يذهب إلى كنيسة ترونيل فاستقبلهما الخوري ر. ب. تامسير بين اعترافيْن. كان خوريًّا كونغوليًّا، جاء حديثًا إلى الجزيرة، ولم يزل يحتفظ بذكرى الفظائع التي كان شاهدًا عليها في بلده. رفض باباكار أن يدع الحربَ تقحم نفسها في المحادثة كما يطيب لها أن تفعل، وركَّز على رينيت. ما مدى صحَّة الشائعات التي تنتشر بشأنها؟

ـ صحيحة! أرعد الكاهن. أنا بنفسي من أخطرتُ الدرك. كان النعش فارغًا.

ـ *كان فارغًا*! ناح موقار.

ـ فارغًا!

بكى موقار طوال طريق العودة. أمَّا باباكار، فراح يبحث عبثًا عن تفسيرٍ من شأنه أن يُريحه. لم يعد يستوعب. اعتمد حرفيًّا عبارات مثل «الراحة الأبديَّة»؛ وظنَّ أنَّ أرضنا الحزينة وحدها هي مكان العنف والنزاعات. هل كان مخطئًا؟ هل كان يجب أن

يتوقَّع معارك أخرى في الغيب؟ ألن نعرف السلام أبدًا؟

بعد بضعة أشهر، لم يندهش أحدٌ حين وضع الدكتور تراوري المفتاح تحت ممسحة القشّ، وسافر. بلا طبل ولا زمر. مثلما وصل بشكلٍ مفاجئ. أين ذهب؟ إلى بورت أوبرنس، بالتأكيد. كان يُقيم علاقاتٍ غامضة مع الهايتيِّين.

تستحقّ الأسباب الحقيقيَّة لهذه الرحيل التدقيق فيها.

بدايةً، لم يعد لدى باباكار عمليًّا فلسٌ واحد. بالتأكيد، لم تحدث ملاحقةٌ قضائيَّة ضدَّه. ولم يكن أمام أريستوفان وزمرته إلَّا التلويح بأذرعهم مودِّعين. لكنَّ زبائنه كانوا قد ذابوا مثل الشمع في النار، ولم يعد لديه عمليًّا مريضات. ولم يجدِّد عقده مع مركز رعاية الأمومة والطفولة. في الحقيقة، الطبيب مثل زوجة قيصر، يجب أن يكون فوق الشبهة.

بعد ذلك، كانت علاقته مع موڤار تُثير الفضول وتصدم، وتخلق الوشوشة. فأن يقيم مع رفيق «الهايتيتيَّة غير الشرعيَّة» بدا أنَّه يعني أنَّ ماضيًا مشوَّقًا بعض الشيء وُجد بين الثلاثيّ. تقاسم الشريكان المتواطئان رينيت، والآن يواسي أحدهما الآخر على غيابها! لأنَّ المثليَّة الجنسيَّة أطلَّت برأسها القبيح في كلِّ مكان، بعد أن اختبأت زمنًا طويلًا تحت مظهر «الصداقة». بل وأُقيم في العام الماضي «موكب فخر المثليِّين» الذي جذب عددًا من الناس أكبر من عرض ماردي غرا أو فيديه دو ميركرودي ساندرز. وخرجت فرقة مثليِّين مارتينيك، قادها دودو غرو ـ سيروب، من فور دو فرانس لدعم السكَّان المحلِّيِّين.

لكنَّ السببَ الحقيقيّ لهذا الرحيل هو آناييس. لم يعد باباكار يحتمل الطريقة التي تُعامل بها، وأدرك أنَّها لن تكون أبدًا إلَّا نتاجًا شيطانيًّا لثلاثيٍّ منحرف. كان يكفي أن تأتي لتتنَّسم الهواء العليل على ساحة القرية، تدفع كليو رانغان عربتها الكُرُوم حتى تحدِّق فيها جميع العيون. كانت المسنَّات الأكثر وقاحة يقتربن ويسألن بمواربة. في مثل سنِّها، ألا ينبغي أن تبدأ بقول كلماتٍ بسيطة؟ أن تنادي «بابا»؟ ما أقسى أن يكون للطفل أَبَوان من الجنس نفسه!

وعلاوة على ذلك، راح يزداد خجلًا كلّ يوم من طريقة استيلائه على الطفلة ضاربًا عرض الحائط بحقوق الدم المقدَّسة، مع أنَّ موقار لم يعد يُلقي باللائمة عليه. وبسبب هذه السرقة وهذا الاغتصاب الذي لا يُغتفر، فإنَّ الفتاة الصغيرة، على الرَّغم من جمالها، الذي بدا جليًّا، ظلَّت حزينةً، وقلَّما تبتسم، ومُدركةً لكلِّ ما سُلِبَ منها.

لم تكن ثيكلا تؤيِّد قرارات ابنها. هل شُفي جزئيًّا من عذاباته ليُهرع مولِّيًا وجهه شطر كهف هاييتي؟ حتى الصحفيِّين الأكثر تفاؤلًا كانوا يتشاءمون من هذا البلد.

أخذ باباكار يضحك:

ـ لماذا تصوِّرين هذا البلد كأنَّه فزّاعة؟ الأخطار الجسيمة موجودةٌ في أمكنةٍ أخرى. الأبراج تنهار في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. النيران تلتهم تاج محلّ وأوبروا، وتُحاصر السيّاح في مومباي. الأرض تزلزل زلزالها في سريلانكا.

راحت ثيكلا تؤكِّد:

ـ هاييتي، هي كلّ هذا معًا.

بدت مثل هذه التأكيدات مضحكةً. في الواقع، لقد حدث أوَّلُ شرخٍ في علاقات ثيكلا وباباكار. لم يضمر لها الضغينة لأنَّها لم تحبّ أزيليا. فعلى الرَّغم من كلِّ شيء، من طبع الحماوات مناكدة كنَّاتهنَّ. لكنَّه لامَها، لأنَّها لم تشاطره القلق والمشاعر التي تُثيره في كلِّ ما يخصّ آناييس. أنهى المحادثة بشكلٍ حاسم:

ـ اشتريتُ التذاكر. لا جدوى من الكلام، لقد اتَّخذتُ قراري. ونحن راحلون.

إنَّ محطَّة RFO، التي تعرَّضت كثيرًا للنقد، أدَّت مهمَّتها الإعلاميَّة على أكمل وجهٍ هذه المرَّة. فقد حذَّرت الصُّوَر التي تبثّها باباكار أحسن تحذير. كان الطريق المؤدِّي من مطار بورت أوبرنس إلى مركز المدينة، وهو طريقٌ ضيِّقٌ ومستوٍ ومستقيم، وظاهريًّا واضح. كان في الواقع شديد الخطورة. ومن يستطيعون ذلك، يحيطون أنفسهم فور نزولهم من الطائرة برجال أمنٍ مدجَّجين بأسلحةٍ ثقيلة. لا يمكن إحصاءُ عدد عمليَّات الخطف التي تحدث هناك: عمليَّاتُ خطفٍ لآخر رجال أعمالٍ من الذين لم يلتجئوا بعد إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، خطفُ سيَّاحٍ ازدادوا شحًّا، خطفُ أعضاء منظَّماتٍ إنسانيَّة، وحتى أحيانًا رجالَ دين، وخطفُ مواطنين عاديِّين جدًّا، يبادلونهم مقابل حفنةٍ من الدولارات. راح باباكار ينظر يمينًا وشمالًا، مذهولًا من إحساسٍ راوده بأنَّه سبق له أن رأى المشهد. كانت بورت أوبرنس، التي

تتوسَّط جزر الكاريبي، ويفصلها عن إفريقيا كثيرٌ من البحار والأماكن، تُشبه إيبرنيا. مدنٌ جريحة، مدنٌ متألِّمة، مدنٌ مريضة. من سيصف المحنة التي مرَّت بها؟

يمكنني القول إنَّ بورت أوبرنس كانت تمرّ في مرحلة تفسُّخ متقدِّمة على غيرها. ومع ذلك، تتمتَّع بحيويَّةٍ مذهلة تشبه حيويَّةَ محكومٍ بالإعدام يتمسَّك بالحياة بكلِّ قواه. سرنا فوق شريط إسفلتيّ محفَّر، تناثرت عليه القمامة، وتحفّ به حواجزُ مثقَّبة بطلقات ناريَّة. وكانت شاحناتٌ وسيَّاراتُ دفعٍ رباعيّ مكتظَّةٌ برجالٍ مسلَّحين تتلاقى بمنتهى السرعة. وراحت كلابٌ شاردة لا يمكن تحاشيها، ترفع مؤخّراتها إلى أعلى، تهزّ وركيْها وهي تركض من كومة قمامةٍ إلى أخرى. لم يعد باباكار يعرف مكان وجوده. وهل كان هذا البارحة أم اليوم؟ هل قطع كلّ هذه المسافة ليعود إلى نقطة الانطلاق؟ لو لم يحمل معه هذه الطفلة، هذه الرضيعة الغافية، المضمومةَ إلى صدره، لاستطاع نسيان ما عاشه.

جاء فؤاد ليأخذهما في شاحنةٍ صغيرة، تحمل تحت نخلتيْن خضراويْن عبارة «فندق ومطعم أرز لبنان؛ مطبخ متوسِّطي متقن». كان عملاقًا، طوله متران تقريبًا، أصهب، وجهه مغربلٌ بالنمش، عيناه زرقاوان، لا يشبه العربيّ التقليديّ في شيء. وعلى الرَّغم من مركبته المضحكة، بدا أنَّ له علاقاته! لأنَّ إجراءات الشرطة والجمارك انتهت بسرعةٍ كبيرة.

وهو يقود بيد متوتِّرة، راح فؤاد يثرثر مع موقار. كان يُخبره أنباء البلد. هدوءٌ نسبيّ الآن على الرَّغم من اندلاع موجة عنفٍ

خارجة عن السيطرة. وراح يتوقَّف ليسأل كيف مرَّت الرحلة. من دون شيء يُذكر، ما خلا الإحساس بالفضوليِّين. فليس كلّ يوم يسافر رجلان وحدهما مع رضيعة. لأنَّ الأطفال الرضَّع من شأن النساء. لذلك تنافست مضيفاتُ شركة طيران الكاريبي بحماسةٍ وهتافاتِ إعجاب:

«يا إلٰهي ما أظرفها!»

«ما اسمها؟»

«هل أسخِّن لها زجاجة الحليب؟»

«ألن تشرب قليلًا من الماء؟ مياه إيفيان المعدنيَّة؟»

«عصير تفَّاح؟»

تَقَبَّلَ باباكار الأمر بنفاد صبر. أمَّا موقار، فبدا سعيدًا لأنَّه أُحيط بمثل هذا الاهتمام، هو مَنْ لم يألف هذا النوع من المعاملة.

وصلنا مركز المدينة المزدحم برجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ يرتدون جميعًا أسمالًا من البؤس، وبمركباتٍ بدت على حدٍّ سواء في آخر عمرها، صالحةً للكسر، وحافلاتٍ بوسطة مزخرفةٍ بالألوان، تضجّ في جلبة محرِّكاتها بأصواتٍ تُناجي السماء: «أوه يا ألله احفظنا»، «الأمل بالله»، «مريم أيَّتها الممتلئة بالنعمة»، وتحمل ركَّابًا يجلسون حتى على سطحها. فجأةً، فرمل فؤاد بقدميْه مثل مريض.

ـ هنا! أعلن، وأضاف على سبيل الشرح: السيَّارة لا تطاوعني. يجب دومًا أن أقسو عليها...

كان فندق ومطعم أرز لبنان بناءً متواضعًا، يستحقّ فعلًا أن يُعادَ طلاؤه. في محيط مبنى مركزيٍّ مؤلَّف من طابقٍ مسقوف بالقرميد، تتوضَّع في نصف دائرة، أربعةُ أجنحةٍ تغطِّيها أسقفٌ من القشّ. تضمّ غرف نوم ممتازة، كانت مكيَّفة فيما مضى. وثمَّة مسبحٌ صغير يحدِّق بعيْنه الزرقاء على مسافةٍ كبيرة من أحواض وردٍ مزهرةٍ على مدار العام، ومن أزهار الدهلية في حديقةٍ صغيرةٍ نالت حقَّها من الرعاية. ظهرت في الاستقبال شابَّتان جميلتان متحزِّمتان للأسف بمئزريْن أميركيَّيْن مخطَّطيْن مخيفيْن. ارتمتا بين ذراعيْ موقار، فاحتضنهما بحرارة. إنَّهما بلا شكّ شقيقتاه اللتان غالبًا ما عبَّر عن مدى اشتياقه لهما. اقتربتا من آناييس مبتسمتيْن، قبَّلتاها، وسألتا بالكريوليَّة:

ـ *أهي فتاة؟*

ـ بالفرنسيَّة، من فضلكما! أمرهما فؤاد ملوِّحًا بحزمة مفاتيحه.

وبدل أن تطيعانه، سحبتا موقار نحو البناء المركزيّ.

ـ ما فائدة كلّ ذلك؟ استطرد فؤاد. دفعتُ أموالًا طائلةً لتعليمهما. مريام البكر، درست في مدرسة فندقيَّة وتُساعدني في الطبخ. وتعمل جهيرة في مكتب إعلان. حين تكونان معًا، لا تتفوَّهان كلمةً فرنسيَّةً واحدة.

لم يكن لدى باباكار أيُّ فكرةٍ بشأن ما يقسّم كلّ الجزر، فرنسيَّة ـ كريوليَّة، ولم يعلِّق بشيء. لاحظ كم كان يبدو فؤاد مهمومًا! ممَّا كان يعاني هو أيضًا؟

أدخله فؤاد إلى غرفةٍ في غاية النظافة، ومريحةٍ كفايةً، مع أنَّ أثاثها بسيط. وعلى الرَّغم من نوافذها المفتوحة على مصراعيها، خيَّم عليها حرٌّ خانق. حرٌّ لم يشهد باباكار مثله من قبل، مع أنَّه وُلِدَ في رمال تيغويري على تخوم ساهل. شرح له فؤاد الذي كان يراقبه بهيئةٍ يتصاعد قلقها:

ـ لا نحصل على كهرباء إلَّا ثلاثة أيَّام في الأسبوع! هذا مزعجٌ للصغيرة.

في تلك اللحظة، استفاقت آنابيس التي نامت منذ خروجهم من المطار، كأنَّ الحرارة ضايقتها.

ـ هل تحتاج إلى مساعدة؟ اقترح فؤاد.

أشار باباكار نفيًا برأسه، وأخرج كيس مسحوق الحليب، ووعاءً حافظًا للحرارة، وأعدَّ بمهارة زجاجة رضاعة. الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أيّ رجل القيام به هو الإرضاع. وبينما هو يُنهي تغيير حفاض آنابيس، دخل موقار واقترح الذهاب للقيام بجولةٍ في شارع تراڤاي.

شارع تراڤاي؟

كان باباكار قد نسي! فهناك يُفترض أنَّ شقيقة رينيت ومربِّيتها تسكنان. وها هو بعد أن وصل إلى نهاية رحلته، لم يعد يرغب بلقاء هذه العائلة. هل كان يفكِّر فعلًا أن يردّ لها آنابيس، بؤبؤ عينيْه؟ مشروعٌ عبثيّ! ناداهما فؤاد من قسم الاستقبال:

ـ ليس من الآمن أن تسيرا في الشوارع.

أكَّد باباكار أنَّه اعتاد على هذا، ومرَّ بأوقات عصيبة مشابهة.

تبع موڤار الذي راح يوسع خطاه وآناييس على كتفه. لم يتمالك نفسه عن ملاحظة مقدار ما طرأ على هذا الرجل من تغيٍّرٍ منذ عودته إلى مسقط رأسه، وتحديدًا منذ خروجهم من المطار. لقد تحوَّل، وصار يمشي بقامةٍ أكثر انتصابًا، ويبدو أقلّ هزالًا وأكثر ثقة، وتلاشت هيئته الخائفة.

أخذ النهار يأفل الآن، وراحت خيوطٌ طويلةٌ مائلةٌ للأحمر تثلم السماء. وهي تتوكَّأ على خليجها، تتمتَّع بورت أوبرنس بصورةٍ خلَّابة. يمكننا أن نتخيَّلها قبل أعوام، في عصر تألُّقها، وكأنَّنا أمام امرأةٍ في الثمانين أنهكتها الأمراض، ونفلح في تصوُّر ما كانت عليه أثناء شبابها. منذ ذلك الحين، نهرٌ من الدماء، دماء الأبرياء، دماء المجرمين، دماء الضحايا ودماء الجلَّادين، ناهيكم عن دم أبرياء أصبحوا مجرمين، وضحايا أصبحوا جلَّادين، خضّب الإسفلت بالأحمر. وعلى مفارق الطرق، كثير من نيران الفرح أُوقدت للاحتفال بالانتصارات المتناقضة، و«رفيق جنرال الشمس» لم يعد يفهم شيئًا لفرط ما أدار من تلك الفوضى.

في الماضي، كان شارع تراڤاي جزءًا من الأحياء الجميلة كما تشهد على هذا *منازل الزنجبيل* الكثيرة، المهجورة حاليًّا، وقد سُدَّت أبوابها ونوافذها بألواحٍ خشبيَّة أو صفائحَ معدنيَّة. كان الحيّ ساكنًا، وهو ما يتناقض مع زوابع ديلما. وأثناء اقترابنا من المبنى 100، أخذت آناييس، التي ظلَّت هادئة حتى ذلك الحين وهي تلتهم بعينيْها المحيط، تصدر صيحاتٍ حقيقيَّة. كأنَّ شيئًا ما استيقظ في داخلها، وكأنَّها تعرَّفت بمهارة على المكان. ومن دون علم الجميع، أيّ ذكرياتٍ تسجَّلت على شمع ذاكرتها؟ قبَّلها

موقار، وهمس في أذنها. بلا جدوى. صرخت بصوتٍ أعلى، وانتفضت بعنف.

ـ *ألن تدخل!* قال موقار. *تعال معي أو أذهب وحدي.*

تردَّد باباكار. ثم دفع بابًا شبكيًّا تحفّ به شاخصاتٌ صارخة «ممنوع الدخول» أو ممنوع *التعدي على ممتلكات الغير*. كانت الحديقة الواسعة تحوي بصورةٍ خاصَّة أعشابًا طويلة ونباتاتٍ شوكيَّةً كثيفة نتيجة الإهمال. وثمَّة نباتات زينة وارفة تذوي في ركنٍ، بينما انتصب نبات الصبَّار في كلِّ مكان تقريبًا. كما قاومت كمِّيَّةٌ وافرة من نبات الآغاف وشُجَيرات البوهينيا الإهمال. وعلى الرَّغم من تهالكه، ظلَّ البيت قطعةً جميلةً من العمارة التقليديَّة. صعد باباكار الدرج المفضي إلى الشرفة الدائريَّة. وأثناء قيامه بدورة، لاحظ أنَّ بابَي الطابق الأرضيّ مفتوحيْن على مصراعيْهما، فدلف إلى الداخل.

بدا كلّ شيء مهجورًا منذ زمنٍ لا بأس به. وثمَّة رائحةٌ عطنةٌ كريهة تزكم الحلق. وفي غبش الظلام المخيِّم، ميَّزت عيْنا باباكار حجرةً واسعة ـ يُفترض أنَّها كانت الصالون، منهوبةً. السجَّاد مفقود، واللوحات انتُزعت عن الجدران. وبالعكس، ثمَّة بيانو سليم على نحو يُثير السخرية، وطلاؤه الأسود لا تكاد تعلوه مسحة من الغبار وبعض البقع. دلف باباكار إلى الدرج الضخم المفضي إلى الطابق الأوَّل. اجتاحه شعورٌ غريبٌ رغمًا عنه. لقد ترعرعت رينيت، «الهايتيَّة غير الشرعيَّة»، في هذه البيئة البرجوازيَّة. هل خطر لها أنَّها ستُغادر جزيرتها يومًا، وتعيش منبوذةً تحت سماوات أخرى؟ أيّ طفلةٍ كانت؟ وأيّ مراهِقة؟ هل

تزحلقت على درابزين هذا الدرج؟ عاد على أعقابه مضطربًا، وخرج إلى الحديقة.

كان موڤار جالسًا على الرصيف، وآنابيس بين ذراعيْه. وغير بعيد من هناك، وقف رجلٌ على عتبة متجره «الفصول الأربعة» يراقبهم.

ـ المنزل غير مسكون. لا يوجد أحد! قال باباكار لموڤار.

ثم مشى بتصميمٍ نحو الرجل المجهول.

ـ صباح الخير، قال له. أبحث عن جارتكم القديمة ستريلَّا أوفيد. هل تعرف أين رحلت؟

قطَّب الآخر حاجبيْه:

ـ ستريلَّا أوفيد؟ هل تقصد إحدى الشابَّات اللاتي بقين هنا مع مربِّيتهنَّ؟ منذ زمن طويل لم نعد نراهنَّ، ثلاثتهنَّ. كان عليكم أن تغطُّوا رأس هذه الطفلة، أضاف بوقار. قريبًا، سيصبح الجوّ رطبًا، وبعد حرارةٍ كهذه ستُصاب بالبرد!

عندئذٍ، دخل متجره فجأةً مثل سرطان يعود إلى جحره. لم يركن باباكار إلى الخجل وتبعه:

ـ ألم تخبروا الشرطة عن هذا الاختفاء؟

ـ الشرطة؟

بدا الرجل مذهولًا، والتفت نحو موڤار الذي دخل بدوره، وسأله بالكريوليَّة:

ـ *ألستَ من هذا البلد؟*

من حولهم، كان المتجر فارغًا عمليًّا. على الرفوف تناثرت بعض عبوات المياه المعدنيَّة دازان والكوكا كولا. اقترب باباكار أكثر من صاحب المتجر، وقال بلهجةٍ ملحَّة:

ـ هل تستطيع مساعدتي؟ جئتُ خصِّيصًا ومن مكانٍ بعيد لأبحث عنها. أليس لديك أدنى فكرةٍ عن مكان وجود ستريلَّا حاليًّا؟

برطم الرجل:

ـ كما تعرفون، في هذا البلد، كلّ واحد مشغولٌ بنفسه ومنهمكٌ في شؤونه. ولم تكن بنات جان أوفيد يختلطنَ بالآخرين.

ـ لماذا؟

ـ ألا تعرفون من كان جان أوفيد؟

ـ لا! من كان؟

ازداد ذهول الرجل، لكنَّه لم ينبس ببنت شفة، مشيرًا بهيئته أنَّ المقابلة انتهت. سحب موڤار باباكار من كمِّه، وهمس له بالكريوتيَّة:

ـ *دعنا نذهب*.

بعد بضع ساعات، حين دخل باباكار قاعة الطعام في مطعم أرز لبنان، وآناييس بين ذراعيْه، خال أنَّه عاد إلى دانيمبي. كانت الحُجرة مكتظَّةً بجنودٍ يرتدون الزيّ العسكريّ، يضحكون ويتجرَّعون البيرة الثقيلة. الفرق هو أنَّ جميع الألوان والأعراق اختلطت. كان الجنود ينتمون إلى المينوستا، وهي قوَّة أنشأتها

الأمم المتَّحدة بشكلٍ خاصّ للحفاظ على «استقرار» هاييتي. وهنالك فتياتٌ يحمن حولهم، لأنَّ الفتيات يوجدن حيث يوجد جنود. بدت هؤلاء الفتيات أصغر سنًّا من فتيات دانيمبي، اللاتي يتَّسمن ببؤسٍ واضح. وفي ركن القاعة، جلست فتاتان شقراوان منزويتان عن هذا الحشد الصاخب، ترتديان قميصيْن ناصلَي اللون، صحفيتان على الأرجح، لأنَّ إحداهما تضرب على ملامس حاسوبها، بينما الأخرى تتحدَّث على جهازها ـ الآي باد. رفعتا رأسيهما وابتسمتا لباباكار، أو الأصحّ لآناييس، عندما مرّا بجانبهما. لم يستطع باباكار أن يمنع نفسه عن النظر بفضول إلى هاتيْن المخلوقتيْن غير المألوفتيْن اللتيْن لا تحلمان ظاهريًّا بزوجٍ ولا منزلٍ ريفيٍّ ولا حياةٍ عائليَّة هادئة! وبعد لحظة، اقتربتا منه، وقالتا بلهجة مألوفة:

ـ هل يمكننا مشاركتك طاولتك؟

وسألتْ الأصغر سنًّا:

ـ هل هذا الجمال الفاتن لك؟

أومأ باباكار إيجابًا.

ـ أين أمّها؟ سألته بفضول غير مزعج.

ـ ماتت! ردَّ باباكار بجفاءٍ حتى يقطع الطريق على أيّ سؤالٍ آخر.

لم يحقِّق الهدف الذي كان يرمي إليه، لأنَّهما أمطرتاه بوابل لا يرحم من أسئلةٍ اضطرّ أن يجد لها إجاباتٍ على عجلٍ.

أدرك أنَّه أخطأ في الوثوق بهيئتهما المضحكة، وفي الركون

لأوَّل قادمتيْن. كانت آمي، الأصغر سنًّا، تعمل لصالح أكبر صحف سان فرنسيسكو: *سان فرنسيسكو كرونيكل*؛ ورفيقتها لويز لصالح: *الواشنطن هيرالد* تريبيون. كانتا قد ذهبتا إلى العراق وأفغانستان، و«فوَّتتا» تسونامي أندونيسيا، لكنَّهما غطَّتا مذبحة مومباي. كانتا ساخطتيْن، لأنَّ إدارتَي التحرير في الصحيفتيْن تريدان استدعاءهما إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة لتوجيههما إلى مكانٍ آخر من العالم.

ـ هاييتي؟ لم يعد أحدٌ يهتمّ لأمرها، كما تعرفان! منذ زمنٍ طويل والفوضى تسود هنا.

ـ يمكننا القول إنَّها تسود منذ الاستقلال، علَّقت لويز. تاريخ البلد هو سلسلةُ أزماتٍ تتفاوت في درجة عنفها.

ـ ماذا جئت تفعل في مثل هذا المكان مع رضيعة؟ سألته آمي. أنت لا تعمل في الصحافة، أليس كذلك؟

ـ لا! سأتولَّى منصب رئيس الأطبَّاء في مركز طبِّيٍّ. سأحلّ مكان الدكتور هكتور ميشيل الذي عاد إلى بيتسبرغ.

ـ الدكتور ميشيل رحل؟ هتفت المرأتان بذات الصوت المتأسِّف.

ـ هل تعرفانه؟ سألهما باباكار.

ـ جميع الناس يعرفونه! إنَّه واحد من أشدَّ المنتقدين حدَّة لِمَا يجري هنا. في السنوات الأخيرة، رحنا نتوقَّع كلّ يوم أن يخبرونا بالعثور على جثَّته على شاطئٍ مهجور.

ـ رحل أيضًا، لن يبقى أحدٌ ليقول رأيه بالسلطة! تذمَّرت آمي.

وعلى الرَّغم من جهود موقار وشقيقتيْه، رافعين الأطباق بأفضل ما يستطيعون ومنظِّفين الطاولات بأسرع ما يمكنهم، ظلَّت الخدمة بطيئةً للغاية ممَّا جعل آنابيس تغفو أثناء الوجبة. اضطر باباكار أن يستأذن من رفيقتيْه. وبينما كان يجتاز الحديقة ليصل إلى غرفته، دوَّى صوت انفجارٍ قريب، وتوهَّجت السماء باللون الأحمر.

أجل! عاد من جديدٍ إلى الجحيم!

كان مركز ماريًّا تيريزا الطبِّي، المُشاد بمبادرة من الدكتور هكتور ميشيل في عام اجتثاث الرئيس بابي دوك، ينتصب في سان ـ سوليداد. ذاع صيت تلك البلدة المكتظَّة الواقعة على بُعد نحو ستِّين كيلومترًا شمالَ بورت أوبرنس، حين أقامت فيها مجموعة رسَّامين ساذجين. وعند تشتُّت هذه المجموعة، عادت البلدة إلى المعاناة والفقر. كان المركز الطبِّي ذاته بناءً غير متقن. ورحنا نتساءل ماذا خطر ببال المهندس المجاز من جامعة كالتك، والقادم خصِّيصًا من لوس أنجلوس، وأيّ عملٍ أخرق أراد تنفيذه. تصوَّروا ثلاثة حصونٍ صغيرةٍ ضخمة، بارتفاعاتٍ غير متساوية، متَّصلة جميعها أحدها بالآخر بممرَّاتٍ خرسانيَّة، ومزيَّنةً بكوًى على شكل مثلَّثات. كان المبنى أ، الأكثر ارتفاعًا، مؤلَّفًا من ثلاثة طوابق، ويضمّ شقق الدكتور ميشيل وزميليْه، سويديّ ونمساويّ. ولأسباب أمنيَّة، ترك هذان الطبيبان الأجنبيَّان عائلتيْهما الشقراويْن في بلادهم، لكنَّهما عاشا مع نساءٍ من

هاييتي. وكان المبنى ب مؤلَّفًا من طابقيْن ويضمّ العيادات، وغرف الولادة، ومفخرة المركز، القاعة التي يوجد فيها أربعُ حاضناتٍ اصطناعيَّة، يحميها مولِّد متعثِّر من انقطاع التيَّار الكهربائيّ المستمرّ. أمَّا المبنى ث، فيتألَّف من طابقٍ واحد، ويضمّ صالة الألعاب، وقاعة الطعام ومهجع الحرَّاس. وتنتصب بعض أشجار المانغو في منتزهٍ محرومٍ من العناية.

كانت هذه الأرض الفسيحة منذ زمن طويل ثروةَ عائلة ميشيل. كانت تضمّ مقصوراتٍ خشبيَّةً جميلة، وتُسْتَخْدَم مسرحًا للاحتفالات، والرقصات التنكُّريَّة التي تكيل لها صحافةُ بورت أوبرنس المديح. النساء بصدورهنَّ العارية يرتدين على طريقة بولين بونابارت، ويتباهيْن بغنج بذباباتٍ سوداء على بشرتهنَّ الخلاسيَّة. والرجال يرتدون بزَّات جنرالات الأمبراطوريَّة. وعند اجتثاثهم، أبادت الغوغاء الغاضبة آل ميشيل جميعًا، ما عدا هكتور الذي فرَّ إلى هاييتي، وأنكر أباه وأمّه وأجداده. كان قد أعطى أراضي العائلة إلى مؤسَّسة إراديكاتي بوڤرتي (القضاء على الفقر). فتحتَ هذا الاسم الطموح اختبأت مؤسَّسةٌ أميركيَّة متواضعة، ظلَّت على الدوام قاب قوسيْن أو أدنى من إعلان إفلاسها.

عَثَر باباكار على الجوِّ الذي يحبّه. تَعَرَّفَ إلى مظهر المريضات السقيم، وسيماء الأطبَّاء المنهك والمهموم، وكذلك شكل حفنة ممرِّضاتٍ وقابلاتٍ محلِّيَّات يساعدنه. كان الدكتور ميشيل خلاسيًّا أكثر بياضًا من أن تخطئه العين، ويعاني من عَرَجٍ حادٍّ. بعد أن انتهت زيارة الأماكن والتعرُّف إلى الطاقم الطبِّيّ، تقدَّم الدكتور باباكار، متوكِّئًا بتثاقل على عكَّازه الإنكليزيّ، في

الممشى المُفضي إلى الحصن الذي يقع فيه بيته. اتَّخذا مكانًا في الرواق، وأحضرت لهما الخادمة كأسيْن من عصير الليمون. أجلس باباكار آنابيس في أرجوحةٍ تتأرجح، فأخذت تُناغي من السرور.

ـ لديك طفلة جميلة! أبدى ملاحظته وهو يُداعب يدَ الرضيعة. كأنَّها طفلةٌ هاييتيَّة حقيقيَّة. اعتنِ بها جيِّدًا. يوجد الكثير من الأوغاد هنا، ناهيك عن خبث الناس ونحسهم.

أدهشت نهاية الجملة باباكار، لكنَّه لم يظهر منها شيئًا، واكتفى بالسؤال:

ـ هل تعرَّفتَ إلى ستريلَّا أوفيد من طريق الصدفة؟

ـ ستريلا أوفيد؟ قال ميشيل مقطّبًا حاجبيه. هل تريد أن نتحدَّث عن إحدى بنات جان أوفيد، تلك التي تعمل رسَّامة؟

ـ جان؟ هل هو جان؟ أخبروني بذلك، ولكنَّني نسيتُ اسم الأب. هل كان يسكن في شارع تراڤاي؟

ـ أجل، على ما أعتقد. كان الطبيب الشخصيّ لجان كلود. لهذا السبب، عند الاجتثاث، رجموه. أعرفُ أنَّ لديه ابنتيْن، هذا كلّ شيء. سأسأل ابن عمِّي الذي هو صحيفة رسميَّة حقيقيَّة، أكَّد، قبل أن يستطرد: هل تريد أن نزور منزل صديقة قديمة في الجبل؟ إنَّه منظر خلَّاب.

جلسا في سيَّارة جيب متهالكة عاندتْ مطوَّلًا قبل أن تُقلع.

ـ لا يوجد قِطَعُ غيار، أوضح هكتور بصبر. هذه البلد، هو بلد الشطارة.

ولأنَّ جهاز التكييف لا يعمل أيضًا، كانت الحرارة لا تُطاق. وتساءل باباكار هل كان من الحكمة اصطحاب آناييس إلى هذه المغامرة! بدا البلد في حالة عوز. دارا حول بورت أوبرنس وبدأا في الارتفاع. وكلّما صعدت السيَّارة بصعوبة، ازدادت روعة المنظر. على مدِّ البصر، انبسطت أرضٌ صهباءُ مرقَّطة بالتلال ونباتات الصبَّار، تزخرفها هنا وهناك حلَّةٌ غير متوقَّعة، من الأزهار الحمراء الداكنة. بدت الحياة مستحيلةً في هذا الجحيم. لكنَّ الطريق انعطفت. وفجأةً، ظهرت أكواخٌ طينيَّة، ضاربةٌ إلى اللون البنِّيّ وبلا شكلٍ محدَّد. وخلف كلّ واحدٍ منها ارتفعت أكوام حجارة، وهي قبورٌ يمكن تمييزها من صلبان كبيرة تعلوها. تذكَّر باباكار موقار: «هاييتي بلد لا يوجد فيه موت».

أرضٌ سعيدة يظلّ فيها الأحياء والأموات معًا، ويواصلون مسيرهم جنبًا إلى جنب. في ضجيج المحرِّك، ظهر فجأةً بعض الأولاد بثيابٍ رثَّة، وحيُّوا السيَّارة بلطف، وهو ما كان يتناقض مع أشكالهم المتوحِّشة. امتلأ قلب باباكار المثقل غضبًا. كم كان بلا وعي! ومرَّةً أخرى يا له من أعمى ومتهوِّر! لماذا أعاد آناييس إلى هذا الخراب؟ ألأنَّه بلد أمّها؟ وإن يكنْ؟ هي نفسها لا علاقة لها بهذه الأرض. لا أحدٌ ينتمي إلى البؤس. لا أحدٌ يُدْمَغُ به سلفًا!

ـ أنت تعرف القصَّة! روى هكتور. قديمًا، كان كلّ هذا أخضر. لم يكن هنالك إلَّا أشجار الموز والمانغو والمابو التهمتها النباتات الطفيليَّة المتعرِّشة. كان ثمَّة مسيلٌ يفيض في فصل الأمطار، يفيض ويطفح تاركًا على ضفَّتيه طمْيًا خصبًا ووافرًا. ثم

قطع الفلّاحون جميع الأشجار ليصنعوا الفحم، وحَلَّ الجفاف. أنت ترى، بسبب أخطائنا خسرنا فردوسنا.

«أليس بسبب أخطاء البشر يضيع الفردوس؟» فكَّر باباكار.

بعد بضعة كيلومترات، ظهر منزلٌ خشبيّ، كما في حلم، مغروزًا وسط هذه الحصى الكابوسيَّة:

ـ هذه ڤيلّا العمَّة أليدا، قال هكتور. هكذا أُسمِّيها، لكنَّها ليست عمَّتي. إنَّها في سنّ السادسة والثمانين، تعيش وحيدةً مع خادمة عجوز مثلها. قُتِلَ زوجها عند اجتثاث بابي دوك، وهرب أولادها إلى كندا، ولم تشأ الالتحاق بهم. إنَّها لا تفنى. نجت من كلِّ شيء.

وهو يتكلَّم، تجاوزا سياجًا شائكًا. استقبلتهما العمَّة بحرارة، وهي جالسةٌ على الشرفة، مرتديةٌ ملابسَ بيضاء ناصعة، وتُهَوّي بمروحة قشّ. ضمَّت هكتور إليها، وزقزقت بلغة كريوليَّة كان لها وقعٌ مؤثِّر على شفتيها:

ـ *عزيزي، كيف حالك؟*

إنَّها خلاسيَّة ببشرةٍ شاحبة، عيناها بلون الزمرّد، ثمانينيَّة، لا تكفّ عن التظارف كصبيَّة في الرابعة عشرة من عمرها:

ـ لندخل، قالت. الجوّ حارٌّ جدًّا على الطفلة في الخارج.

كان المنزل يُشبه متحفًا. أثاثٌ من الخشب الفاخر يعوم فوق أرضيَّةٍ خشبيَّةٍ طُليت بعناية. وعلى الجدران، عُلِّقَتْ لوحاتٌ للرسَّامين ويليام دو كونينغ، وجورجيو دو شيريكو، وروبيرتو متَّى. وتتصدَّر لوحةٌ لبول غوغان شرفةً مغلقة. خرجت من قلب

المطبخ خادمةٌ ثمانينيَّة، بشرتها سوداء بقدر بياض سيِّدتها، وجبهتها معصوبةٌ بمنديلٍ أحمر. أخذت بثقة آناييس التي لم تعترض على الرَّغم من أنَّها متمرِّدة:

ـ لا بدَّ أنَّها عطشى. سأسقيها، أعلنت قبل أن تتوارى من جديد.

لم يكن ذهن أليدا محشوًّا إلَّا بذكريات الأعراس وحفلات الرقص المندثرة على إيقاعاتِ لازمةِ المارينجو. طفقت تهذر بلا توقُّف. في ثرثرتها، راحت تتدافع سلسلةُ حكاياتٍ بلا أيِّ تحليل، ومن دون أيِّ جهد في التفكير. جاءت نهاية العصر الذهبيّ على يد شعبٍ همجيّ وبليد، منغلقٍ في خرافاته المنتمية إلى عصر آخر. فهم باباكار، الذي لم يهتمّ قطّ بالسياسة، فجأةً لماذا ارتمى هذا العصر الآخر بشكلٍ أعمى على العمَّة أليدا وأمثالها! قال في سرِّه بحزن، فعلًا، في نهاية المطاف، هذا لم يفد في شيء. تكاثر عدد الأعداء، وخرجوا من كلِّ حدب وصوب. لم ينتهِ البؤس والذلّ. وبعد لحظةٍ، ظهرت الخادمة ثانيةً من دون آناييس، وأعلنت بثقة هادئة:

ـ أطعمتها، وسقيتها. كانت جائعة وعطشى. نامت الآن. يجب عدم إزعاجها.

ـ نحن أيضًا جائعون، قالت أليدا بلهجتها العفويَّة المؤثِّرة. هل فكِّرتِ فينا؟

هزَّت الخادمة رأسها. ثم أعدَّت المائدة وفي أواني فاخرة، قدَّمت لهم وجبةً من أبسط الأطعمة: قليلٌ من سمك الرنكة

المدخّن بصلصة الشيكتاي، شرائحُ خبزٍ مدهونةٌ بزبدة الفستق.

ـ هل تتذكَّر عندما كنَّا نشوي خرافًا بكاملها محشوَّةً بالتين؟ قالت العمَّة أليدا حالمةً، متلمِّسة بيديْها الناحلتيْن أدوات طعام ثقيلةً عليها. هل تتذكَر المأدبة التي أقمتها حين جاء ترومان كابوتي إلى هنا؟

أكّد هكتور أنَّه يتذكَّر ذلك بوضوح، مع أنَّه لم يكد يبلغ آنذاك سنّ المراهقة.

ـ وبعدها، استطردت العمَّة أليدا وعيناها مغمضتان، رقصنا، رقصنا، رقصنا. كان عددنا مئةً وخمسين مدعوًّا على الأقلّ. قرأ علينا ترومان كابوت مقتطفات من كتابه. أجل، الكتاب الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعًا: *بدم بارد*. وبعدها، أخذته إلى منزل الأخوة دومارسيه. اشترى منهم لوحاتٍ بخمسة آلاف دولار. وبعد أعوام، جاء آندريه مالرو أيضًا في زيارة. هل تتذكَّر؟

ـ أجل، يا عمَّة أليدا!

ـ هو، لم أستقبله في بيتي. لم يكن هنالك إلّا مجموعة سان سولاي للفنِّ التشكيليّ، سان سولاي التي اهتمَّت به! ومن جهة أخرى، بسبب جان كلود كاروت الملقَّب تيغا، لم يستطع أحدٌ أن يقترب منه.

حين استفاقت آناييس، مرتاحةً ونضرة للغاية، سلكا طريق العودة، واقترح هكتور أن يُعيدهما إلى فندق أرز لبنان. ومن لحظة دخولهم المدينة، بدأت الاختناقات المروريَّة، وراح هكتور يحاول بمهارة شقّ طريقٍ في زحمة المشاة، والسيَّارات القديمة

وسيَّارات البوسطة، علاوة على شاحناتٍ تحمل جنودًا اعتاد عليها باباكار بصعوبة بالغة. وعند مفترق طرق، توقَّفت حركة السير لتسمح بمرور موكب. وراح أفرادٌ بثياب رثَّة، لكنْ هيئتهم مصمّمة، يلوِّحون صامتين بلافتاتٍ كُتِبت باللغة الكريوليَّة.

ـ ماذا يريدون؟ سأل باباكار.

ـ الديموقراطيَّة! ابتسم هكتور. لا يعرفون أنَّهم سيفتقدون الراحة بالحصول عليها. من هنا فندق أولوفسون، تابع، وفيه صوَّروا فيلم الكوميديُّون. فيما مضى، كانت النخبة العالميَّة تجتمع هناك. أمَّا اليوم، فلم يعد يوجد حتى سيَّاحٌ في البلد.

ـ لماذا تغادر؟ استفهم باباكار. بعد أن تحمَّلت أمورًا كثيرة؟

ـ لأنَّني لم أعد أؤمن بها! قال هكتور ببساطة. أملتُ طيلة هذه السنوات أن تخرج هاييتي من هذا المأزق. ساندتُ في البداية الرئيسَ المخلوعَ بحماس. ثم أُحْبِطْتُ مثل كلّ الناس. ومع ذلك، رحتُ أقول في سرِّي: «لنصبر! ستتحسَّن الأحوال. وقريبًا، سيكون كلّ شيء على ما يرام.» الآن، لم أعد أؤمن بذلك. وكما تقول العمَّة أليدا: «نحن ملعونون»، أنهى كلامه مقهقهًا قهقهةً مريرة.

فوجئ باباكار:

ـ ولماذا أنتم ملعونون؟

قهقه هكتور بقوَّةٍ أكبر:

ـ ألم تسمع بذلك من قبل؟ إنَّها قصَّةٌ قديمة، شبهُ أسطورة. أبرمنا اتِّفاقًا مع الشيطان لنتخلَّص من المستوطنين الفرنسيِّين.

ـ بين الشيطان والاستعمار، سخر باباكار، خياران أحلاهما مُرّ!

كان فندق ومطعم أرز لبنان خاليًا، لأنَّه يومُ عطلة المطعم. أخذ موڤار وشقيقتاه يرتِّبون بعض الأرائك حول طاولةٍ موضوعةٍ قرب حوض السباحة. اقترب موڤار من باباكار، وهمس:

ـ سيأتي فؤاد بعد قليل. يريد أن يتحدَّث إليك في أمرٍ مُلِحٍّ.

ـ ماذا لديه ليُخبرني به؟ سأل باباكار منشغلَ البال.

أبدى الآخر هيئةً متكتِّمة، ولم يتفوَّه بكلمةٍ زيادة. في هذه اللحظة، جهيرة التي حلَّت طوعًا مكان كلوي رانغان، اختطفت آناييس بثقةٍ من بين ذراعيْ باباكار:

ـ حان موعد حمَّامها! أعلنت وهي تنحني إلى الأمام كاشفةً بذلك عن أرومة نهديْها.

دُهِشَ باباكار من الاضطراب الذي أثارته هذه اللقطة فيه. كان جسده يتلاعب به! حدَّق فيها بطريقةٍ لم يفعلها حتى اللحظة، وشعر فجأةً بسحرها، وتصرُّفها الماكر المغري. لكنَّها لم تزل طفلةً تقريبًا، لام نفسه على الفور! وخجل ممَّا شعر به. لكنَّه لم يتمالك نفسه عن تحديق عينيْه في انحناءات وركيْها، وعلى اهتزازات ردفيْها. التفت فؤاد نحوه:

ـ هل حذَّرَك موڤار؟ سأله.

أجابه باباكار إيجابًا بإيماءةٍ من رأسه، وسأل في الوقت ذاته للاستيضاح أكثر:

ـ ما الأهمّ لتُخبرني به؟ قال باندهاش.

أبدى فؤاد هيئةً في غاية الجدِّيَّة:

ـ أريد أن أروي لك قصَّتي. . .

ـ حقًّا؟

ـ إنَّها حكايةٌ طويلة. وحسبما أخبرني موقار، هي حكايتكَ ذاتها، أو تشبهها. في البداية، تبدأ حياتانا بطريقةٍ مختلفة، في بلديْن مختلفيْن جدًّا. وبعد ذلك، تتقاربان حتى تتشابها، وتمتزجا فعليًّا. هذا لأنَّ العالمَ أصبح ما هو عليه، مجنونًا، بلا تخوم ولا حدود. لذلك أرجوك، تَحَلَّ بالصبر، واسمعني حتى النهاية. وسأبذل جهدي لأوجز.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حكاية فؤاد

تبدأ قصَّة حياتي بكذبتيْن. أوَّلًا، اسمي ليس فؤاد، اسمي آرڤو. أطلقت أمِّي عليَّ اسم الطبيب الاسكندنافي الذي قام بتوليدها. أوشكتْ أن تموت وأنا أيضًا، المولود قبل الأوان. قرَّر رجل العلم أن ينقذ حياتيْنا بحذاقته، ونجح في ذلك. لم أحمل هذا الاسم قطّ. وأمِّي نفسها، لم تنادني به قطّ. هل تتخيَّل مُسلمًا يدعى آرڤو؟

ثانيًا، أنا لست لبنانيًّا. إنَّني فلسطينيّ. لكنَّها هويَّةٌ تُثير الخوف. ذاك اللفظ يُخفي الكثير من الآلام، وسلب الحقوق والذلّ. على المرء أن يكون جان جينيه حتى يحبّنا. وما عدا ذلك، تخلَّى العالم عنَّا. لذلك اخترت ألَّا أقول الحقيقة أبدًا حول هذه النقطة. في شهر أيلول من عام 1982، بعد حصار بيروت، أُرْسِلَ أبي ومناضلين آخرين إلى اليمن. ظلَّت أمِّي وحيدةً في المخيَّم. ولم يقيَّض لأمِّي وأبي أن يلتقيا ثانيةً أبدًا، لأنَّ أبي

لقي حتفه في ظروفٍ غامضة. وبعد بضعة أشهرٍ على رحيل أبي، عانت أمِّي من مضاعفات الوذمة الرئويَّة ودخلت معي مستشفى عكَّا في مخيَّم شاتيلا. رُبَّ ضارَّةٍ نافعة، لأنَّني أتساءل كيف كان سيسعنا تحمُّل هولِ المجزرة التي تلت دخولنا المشفى. وما عدا شقيقها الأصغر زهران الذي نجا بأعجوبة، مات جميع أقاربها وكلّ معارفها فيها.

كانت شجاعةً ومناضلةً على طريقتها. وحتى تكسب قوت يومها، جمعت نساءً من دون رجال ومن دون معيل مثلها، وشكَّلت جمعيَّة ورشة تطريز. ومن الصباح حتى اللحظة التي لا يعود يسعها فيها الاستفادة من ضوء النهار، كانت تغرز إبرتها في النسيج، وترسم تخريماتٍ متصالبة بخيوطٍ حريريَّة في صدر الأثواب. وقد أمَّن هذا العمل المُنهك بطريقةٍ أو بأخرى وجبةً يوميَّة لنا نحن الثلاثة.

كنتُ في سنِّ الثامنة تقريبًا، وزهران في العاشرة، حين تزوَّجتْ مرَّةً ثانية خبَّازًا لبنانيًّا لا أدري كيف أغوته، لأنَّ اللبنانيِّين، المسلمين والمسيحيِّين على حدٍّ سواء، يكرهوننا. يعتقدون أنَّنا نتحمَّل قسطًا كبيرًا من المسؤوليَّة عن المصائب التي حاقت ببلدهم. لم يكن الرجل الذي تزوَّج أمِّي خبَّازًا عاديًّا. بل كان مَلكَ الطحين، أي فاحش الثراء. كان يبيع جميع أنواع الخبز والفطائر والگاتو. ابتكر نوعًا من الحلوى سمَّاه «القارب»، لأنَّ شكله مثل الزورق، محشوٌّ بالتمر وعجينة اللوز. وفي أوج القصف والقنص المنتشر في كلِّ مكان، كان يقود شاحنته الصغيرة ويذهب للتوزيع في جميع أنحاء المدينة. انتقد مجتمعُنا بحدَّةٍ أمِّي

على هذه العلاقة ورأى فيها خيانةً، وفقدتْ أصدقاءها. وبسبب هذا الزواج، هجرنا دفء الأخويَّة، وأيضًا اكتظاظ السكَّان والاختلاط في مخيَّم شاتيلا: الحمَّامات المشتركة والمراحيض المشتركة وغرف الطعام المشتركة، لنرتاح في شقَّةٍ فسيحةٍ ومشمسة في مبنًى يطلّ على البحر. هذه هي السعادة الوحيدة بالنسبة لي ولزهران جرَّاء تغيُّر الوضع بسبب زواج أمِّي. نحن من نمنا على الدوام في خيمة، صارت لدينا غرفةٌ خاصَّة بنا. نفر الخبَّاز، زوج أمِّي الجديد، منَّا، ولا سيَّما من زهران. حسْبُهُ أن تقع عيناه علينا ليحمرّ مثل الطماطم غضبًا ويكيل لنا الشتائم.

ـ اخفضا نظركما، اخفضا نظركما، أقول لكما، عندما أكلِّمكما، كان يصرخ. لستما إلَّا حقيريْن متسكِّعيْن!

كان ينقضّ علينا أحيانًا بلا سبب، فيوسعنا ضربًا حتى نسقط أرضًا، فاقديْن الوعي. كانت أمِّي ترى ذلك من دون أن تعترض على هذه الأعمال الجنونيَّة. ماذا كان عسانا أن نفعل غير أن نتوارى، وننضمّ إلى مئات الصبية الذين يعيشون على أرصفة بيروت؟

لن يتخيَّل أحدٌ أبدًا كم كان الشارع أموميًّا وحنونًا، حتى في مدينةٍ تعيش حالة طلْقٍ مثل مدينتنا. وحدهم المشرَّدون والمنبوذون من عائلاتهم يعرفون ذلك. فالمدينة تُشبه امرأةً تسلِّم أثمن ما لديها إلى من تحبّهم. بالنسبة لنا، لا وجود لبيروت الشرقيَّة بموارنتها ولا لبيروت الغربيَّة بمسلميها اللتيْن تتصارعان على الدوام. كانت المدينة تُقدِّم لنا في النهار منتزهاتها وحدائقها وملاعبها وأراضيها الشاغرة. وفي الليل، تهبنا بهو المداخل

الرئيسيَّة لأبنيتها وآلاف المخابئ. وكنَّا ننام أحيانًا على الشاطئ، متوسِّدين الرمل الدافئ. في تلك الأثناء، كان وابل من القنابل يتساقط فوق تلك المدينة الذبيحة، وهي تخوض بالتناوب حربًا ضدَّ نفسها أو ضدَّ آخرين. وفي أغلب الأحيان، كان الانتقال من حيٍّ لآخر محظورًا. فالحرَّاس ومراكز الشرطة المزدحمة برجالٍ مسلَّحين ينتشرون على مفارق الطرق. في بعض الأماكن، لم تكن المدينةُ إلَّا خرابًا. أمَّا نحن، فلم نكن نعرف الخوف. كنَّا نتوه بين الأنقاض، ونتطارد تحت سمْعِ وبصر الحرَّاس، ونخترع كلّ أنواع اللعب. كانت بعض القطاعات تنهار أو تحترق. وكانت رائحةُ غبارٍ فظيعة تتصاعد من أكوام الحجارة المحترقة.

كان عمري أربعة عشر عامًا حين انفصل زهران عن هذه الثلَّة، وبدأ يعيش حياته على طريقته. لم أفهم جيِّدًا معنى نشاطاته الجديدة حتى جاء يومٌ حاول فيه تجنيدي. دعاني لأكون مثله جزءًا من منظَّمة تُدعى «الذراع المسلَّح للثورة». كان هدفها تحرير الأراضي الفلسطينيَّة المحتلَّة.

ـ لا يمكننا أن نستمرّ في العيش مثلما نعيش! قال لي بحماسة.

لم يكن كلّ ذلك يعني لي شيئًا. علمتُ أنَّ «الذراع المسلَّح للثورة» مصنَّفٌ بين المنظَّمات «الإرهابيَّة». لكنَّني واجهتُ صعوبةً بالغةً في تحديد معنى محدَّد لهذه الكلمة التي يستعملها جميع الناس. ماذا يعني «إرهابيّ» فعلًا؟ وذات مساء، جاء زهران للقائي، وهو غاضب:

ـ يجب أن تساعدني على الاختباء لبضعة أيَّام! قال لي بحدَّة.

ـ تتخفَّى! كيف ذلك؟ أجبته. أنت تعرف حقّ المعرفة أنَّني أعيش في الشارع.

ـ أجل، لكنَّكَ أنتَ وثلَّتك تعرفون أماكنَ لا تأتي الشرطة للبحث فيها إطلاقًا.

ـ ماذا فعلتَ؟ سألته وأنا أحدِّق مباشرةً في عينيه.

رفض أن يُجيبني، ورفضتُ أنا أن أُعَرِّضَ رفاقي للخطر، لأنَّني كنتُ مسؤولًا عن أمنهم. فغادر. وبعد بضع ساعات، علمنا أنَّ رئيس الوزراء اغتيل. وتلا ذلك أعمالُ شغب عنيفة. وخلال عدَّة أيَّام، غرق البلدُ في النار والدم. هل كان هذا الاغتيال من تدبير «الذراع المسلَّح للثورة»؟ جرى اعتقال عددٍ من الأعضاء الذين ينتمون، على ما يبدو، إلى منظَّمات «إرهابيَّة». كنت ما أزال أواجه صعوبةً بالغة في فهم هذه الكلمة. أليس «إرهابيّ» هو بكلِّ بساطة المنفيّ، المطرود من أرضه، المسلوبة ثرواته، المحروم من سعادته، والذي يحاول بطريقةٍ يائسة وربَّما وحشيَّة أن يُسمِع صوته؟ أليس الأجدر بي أن أكون في عداد هؤلاء؟

لم ألتقِ زهران ثانيةً قطّ. حتى اليوم. ولا يمرّ نهارٌ من دون أن أفكِّر فيه. هل هو على قيد الحياة؟ هل مات؟ وبسبب خطئي؟

هذا الندم لا يبارحني.

ولأنَّني كنت دومًا مفتونًا بالكتابة وقوَّة الإشارات الغامضة على الصفحة، وجدتُ على الرَّغم من كلِّ شيء وقتًا لارتياد

مدرسةٍ للصليب الأحمر. وإضافة للعربيَّة، كانوا يعلِّمون فيها الفرنسيَّة والإنكليزيَّة. وكان معظم من يتزاحمون عليها يبحثون بشكلٍ خاصّ عن وجبة الظهيرة، وعن مهربٍ من القلاقل اليوميَّة. أمَّا أنا، فلم يجذبني إليها سوى الكتب التي أجدها فيها. كانت مكتبة المدرسة تضمّ مئات الأعمال التي لم يلمسها أحدٌ سواي. رحتُ ألتهم أشعار عبد الوهاب البيَّاتي وبدر شاكر السيَّاب. لكنَّني عشقتُ أيضًا آرثر رامبو ويوستان هيو أودن. في سنِّ الأحد عشر عامًا، نَظَمْتُ أوَّلَ قصيدةٍ لي. وعرضتها على ليلى، معلِّمتي المفضَّلة لأنَّها فلسطينيَّة مثلي. قرأتْها وصحَّحتْ بعض الأخطاء، وقالت لي بنبرةٍ جدِّيَّة:

ـ لديكَ موهبة كبيرة. استفد منها.

حدَّثتني بعد ذلك مطوَّلًا عن محمود درويش الذي لم أسمع به من قبل. أصغيتُ لها بشغف. لم أكن أعرف أنَّ الالتزام السياسيّ يمكن أن يقترن بالشعر. كانا يبدوان لي عالميْن مختلفيْن جذريًّا. هل يستطيع الشعر التنديد بالشرور التي نعاني منها؟ حروبٌ أهليَّة متواكبة مع القصف، وهجماتٌ انتحاريَّة وفاقة! أقسمتُ أن أصبح، أنا أيضًا، شاعرًا عظيمًا ذات يوم.

بعد فترةٍ قصيرة، أوقفتني الشرطة التي لم تعد تتركنا، نحن الشباب، لحظةً واحدة بسلام، بدل أن تهتمّ بمهرِّبي المخدّرات أو السلاح المنتشرين بكثرة. ومثل جان فالجان، سرقتُ رغيفَ خبزٍ من سوبرماركت. قضيت ثلاث سنواتٍ بسبب هذه الهفوة، لأنَّهم أرادوا أن يجعلوني عبرةً. كان الكثير من الأولاد يتسكَّعون على أرصفة بيروت. وحين خرجتُ من السجن، كان لديَّ أَخَوان غير

شقيقيْن، توأمان، رضيعان كثيرا الصياح استنفدا أمِّي بالكامل. أجلسني زوج أمِّي الخبَّاز على كرسيٍّ أمامه:

ـ لم تزل أسوأ ممَّا كنتُ أتخيَّل، قال لي. لم يوجد قطّ لصوصٌ في هذه العائلة. لن أدعك تحطِّم قلب أمّك، وتلطِّخ اسمنا بالعار. لديَّ أخ يعيش في هاييتي. أنت تعرف أنَّ اللبنانيين هم أكبر الرحَّالة على الأرض. يزاولون التجارة في كلِّ مكان! وافقَ أن تأتي وتعمل معه. اشتريتُ لك تذكرة طائرة. ذهاب فقط. هل تفهم معنى ذلك؟ ستغادر غدًا.

سافرتُ، بلا دموع، وبهيئة متجهِّمة، لكنْ بقلبٍ ممزَّق. ذهبتُ لأستقلَّ الطائرة من دمشق، محشورًا في سيَّارة أُجرة عامَّة مع ركَّابٍ آخرين، تجَّار. ودَّعتُ هذا البلد الذي كنتُ أعتبره على الرَّغم من كلِّ شيء مثل بلدي. وبغضّ النظر عن بعض العقول الحازمة، نحن بحاجة إلى وطن. بعد وصولي إلى دمشق، انتظرتُ الطائرة لثلاثة أيَّام عند شيلدا، ابنة خال أمِّي. يا لها من ثرثارة! أرهقتني بأسئلتها عن زهران الذي تعتقد أنَّه على قيد الحياة، ويختبئ في بيروت الشرقيَّة، ثم بأسئلةٍ وجدتها عبثيَّة:

«هل زوج أمّك الجديد، اللبنانيّ، لطيف معها؟»

«هل يوجد عرب في البلاد التي تذهب إليها؟»

«وهل يوجد مسلمون أيضًا؟»

«هل كلّهم مسيحيُّون؟»

«وهناك، بشرة الناس سوداء تمامًا، أليس كذلك؟ إنَّهم زنوج إذًا، المساكين؟ إيه، على الله!»

في المطار، غمرتني بالقُبل، وكرَّرت عليّ:

ـ هناك، افخر بما تمثِّله.

ماذا كنتُ أُمثِّل؟ لم أفهم ما يعنيه ذلك، لكنَّني أحببتُ قبلاتها، أنا من تلقَّيت القليل جدًّا منها في حياتي.

وصلتُ إلى هاييتي عام 2000، كنت في الثالثة والعشرين من عمري، ولم أحبّ هذا البلد.

كنتُ قد اعتدتُ على المناخ المتوسِّطي اللطيف. واكتشفتُ قسوة المناطق الاستوائيَّة. الحرارة الشديدة التي تشويكم حتى العظام. فترات القيلولة المرهقة التي نفتِّش فيها عبثًا عن قليلٍ من الراحة والبرودة. وميض البرق. العواصف والأمطار المتواصلة التي تسيل على الأرض. بدت بورت أوبرنس لي مختلفةً عن بيروت، وفي الوقت نفسه شديدة الشبه بها. آه! ذات يوم، سأكتب قصيدةَ هاتيْن المدينتيْن المعذَّبتيْن، وأنشرها في أرجاء العالم!

وعلى دهشٍ منِّي، بلبلتني بشرة النساء والرجال الداكنة، وجذبتني. ورحت ألاحق الصبيان والفتيات في الشوارع، لكنَّني لم أتجرَّأ قطّ على الاقتراب منهم، على الرَّغم من رغبتي بذلك.

يا له من لونٍ جميل، اللون الأسود، نقيض أحلامنا الحالكة!

في ذاك العام، أُعيد الرئيس المحبوب من الجميع إلى السلطة بفضل الأميركيِّين. بدا أنَّه تغيَّر تمامًا. ومن كانوا يلقِّبونه «صوت من لا صوت لهم» أصبح شيطانًا إلى حدٍّ تهريب

المخدّرات. لم يعد يهتمّ إلّا بتضخيم ثروته الشخصيّة بكافّة السبل، واضعًا نصب عينيه أيضًا ثروة الديكتاتور الذي سبقه. فعمَّت الفوضى واستشرى الفساد أكثر.

ومن حسن الحظّ، كان عزُّوز، الشقيق البكر لزوج أمّي، الخبّاز وفنّان الطحين، يملك قلبًا من ذهب. عاملني مثل ابنٍ لم يُرزق به على الرَّغم من زيجاته الثلاث. في الواقع، في ثلاث مرَّات، أُرْسِلَتْ له ثلاث خطيبات من بيروت. وفي المرَّات الثلاث، متن أثناء الولادة، وهو ما آلمه كثيرًا. كان ينتمي إلى جيلٍ من اللبنانيين غادروا البلاد حاملين صرَّةً على أكتافهم، وجمعوا ثرواتٍ معتبرة فيما بعد. كان يعرف جزر الكاريبي شبرًا شبرًا، بعد أن عاش في ترينيداد وسان بارتيليمي وجامايكا. وقبل سنواتٍ قليلة، ظنَّ أنَّه حقَّق صفقةً رابحة بمقايضة متاجر النسيج بفندقٍ ومطعم في بورت أوبرنس. لم يكن يتوقَّع أن يُشْطَبَ اسم هاييتي من أماكن الترفيه، وأن يتوقَّف السيَّاح عن ارتيادها. وما عدا بعض مراسلي الصحف الأجنبيَّة، لم يكن يوجد زبائن في أرز لبنان. لذلك قلَّص عزُّوز النفقات بقدر ما يستطيع. وهكذا، بعد أن خفَّض عدد نساء الخادمات والنُدُل، وسرَّحَ الطبَّاخ. ومنذ ذلك الحين، راح يطهو الطبخ بنفسه. ساعدته في البداية على مضض، لأنَّ طبخ الطعام في نظري من شأن النساء. حين لم تكن أمّي تدلّل أطفالها، كانت تنشغل في فرْم الثوم، وقلْي البصل، وتقطيع الدجاج قطعًا صغيرة أو شيٍّ لحم الخروف. ثم وعلى دهشٍ منّي، أعجبتني هذه المهمَّة. وبعد وقتٍ قصير، منحني تحضير طبقٍ لذيذ متعةً تُضاهي متعة نظم قصيدة.

وسعيًا من عزُّوز لتعويض النقص في إيراداته، انزلق إلى تهريب المخدّرات، التهريب الأوسع انتشارًا في هاييتي كما في لبنان، وكما في العالم أجمع. وطفق يخالط ثلَّة أفرادٍ سيِّئين ذوي وجوهٍ شاحبة يأكلون مجَّانًا في المطعم. وهكذا لقي مصرعه. ذات ظهيرة. في عزِّ الظهيرة، دخل مسلَّحون إلى المطبخ حيث كان يحضِّر عجينة البيتزا، وقتلوه على مرأى منِّي. كنتُ مرعوبًا.

ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ ليس واردًا أن أعود إلى بيروت التي شُحِنْتُ منها مثل بالةِ ألبسةٍ متَّسخة. لم يكن أحد ينتظرني فيها. رُزقتْ أمِّي بولدٍ جديد، رابع ـ بنت هذه المرَّة. لم تكن تراسلني إطلاقًا. وبدت لي مشاكل البلد عصيَّةً على الحلِّ أكثر فأكثر. فقد تدخَّلت فيه الولايات المتَّحدة وفرنسا وإسرائيل وسورية وفلسطين وكلّ العالم. لذلك قرَّرتُ البقاء هناك، حيث أنا. في الحقيقة، كنت أحلم بالتوجُّه إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة حين يُتاح لي ذلك، وأن أدرس في إحدى الجامعات، ثم أكرِّس نفسي للأدب. للشعر. لم أكن مستعدًّا بعد لتحقيق ذلك. ورحتُ أتابع دروس معهد فرنسا، فلم أتعلَّم فيه الشيء الكثير. كان الاهتمام ينصبّ فيه على اللغة الفرنسيَّة التجاريَّة. بزنس فرنش.

بعد مقتل عزُّوز، انعزلتُ في بيتي. لعلَّ القتلة لم ينهوا مهمَّتهم! ثم قرَّرتُ أن أحمي نفسي. أنا من خفتُ الأسلحة منذ صغري وكرهتها، اشتريتُ بندقيَّة ذات سَبَطانة قصيرة ومسدَّسًا. وذهبتُ لآخذ دروسًا في الرماية عند ألمانيّ يمتلك مؤسَّسة على طريق غونابيف. حدَّثني بحنين عن ألمانيا القديمة وهتلر. إنَّه ابن

أحد الضبَّاط النازيِّين السابقين، ولديه هوس بأبيه المتوفّى. ولأنَّني عربيّ، ظنَّ أنَّني أُقاسمه حقده على اليهود. بينما أنا، قلَّما اهتممتُ بأمر اليهود. بالتأكيد، حدثت مجازر صبرا وشاتيلا الفظيعة التي سمعتُ أمِّي ترويها مرارًا وتكرارًا. لكنَّني بالتحديد لفرط ما سمعتها، فقدتْ هذه القصَّة المريعة، بأكوام جثثها المقطَّعة، حقيقتَها. أتصوَّر أنَّني لو بقيت في بيروت، لتعلَّمتُ الخوف من اليهود والإسرائيليين. على المرء أن يكون داخل جماعة حتى يشاركها هويَّتها. وأنا أعيش في بورت أوبرنس، لم أكن سوى هاييتيًّا نكرة.

ولأنَّ الأيَّام مرَّت من دون أن تقع أيّ كارثة، استأنفتُ حياتي العاديَّة في النهاية.

آنذاك، أرسل لي زوج أمِّي الخبَّاز رسالةً من زهران. بضع كلماتٍ مكتوبةٍ على عجل أبكتني دموعًا حارَّة. أخبرني أنَّه غادر بيروت إلى الأبد، من دون أن يخبرني أين ذهب. لقد أصبح من الآن فصاعدًا جزءًا من جيش التحرير. خمَّنتُ أنَّه سينصرف إلى أعمالٍ رهيبة وخطيرة. سارعتُ إلى ورقة، وتوسَّلتُ إليه أن يعدل عن هذه الحياة الخطرة ويوافيني في هاييتي. فنحن الاثنين، سنهتمّ بفندق ومطعم أرز لبنان. تعاقبت الأسابيع. ولم أتلقَّ جوابًا قطّ.

لم يكن لديَّ إلَّا تسليةٌ واحدة. اعتدتُ كلّ يوم اثنين أن أُرافق عمِّي إلى ماخور، لأنَّه لم يرغب أن يُنجب أبناءً ملوَّنين وفَضَّلَ العاهرات. تابعتُ هذه العادة بعد موته، لأسبابٍ مختلفة، أهمّها مواجهة الشعور بالعزلة والهجر. كان الماخور يُدعى جنَّة

عدن، وهو اسم غريب في رأيي. كان يعشعش على مرتفعات بيتيونفيل، وهو حيٌّ سكنيٌّ، بارد وظليل، كانت ترتاده الطبقة البرجوازيَّة فيما مضى. كان يلوذ ببيت *الزنجبيل*، وتملكه بريجيتا بوخ، وهي امرأة هاييتيَّة ألمانيَّة. كانت عشيقة سابقة للرئيس المغدور، ومغنِّيةً أصابت شهرةً واسعة بفضل ألحان مانون. كتبتْ أيضًا بعض الروايات، وتُرجمت إحداها إلى الإسبانيَّة تحت عنوان *بارلوفنتو* (مهبّ الريح). لا أدري كيف انتهى بي الحال إلى مساررتها بطموحاتي الأدبيَّة الخاصَّة. المهمّ، حدَّثتني بإسهاب عمَّا يفصح عنه هدفنا المشترك: الأدب. هي من عرَّفتني إلى شعراء الكاريبي. كنت أجهل أنَّ المنطقة على هذا القدر من الغنى. جميع اللغات وجميع الألوان حاضرة. سان جون بيرس، كامو براثويت، ديريك والكوت، نيكولاس غيين، إيمي سيزير. أجل! كان الشعر سلاحًا خارقًا من شأنه أن يخلق وحدة العالم! كنتُ واثقًا أنَّني في مستقبل الأيَّام سأُضاهي هذه الشخصيَّات اللامعة. كانت جنَّة عدن مكانًا استثنائيًّا. أثاثٌ خشبيٌّ فاخر مستورد من قصور كوبا. ومن يرتادونه اختيروا هم أيضًا بعناية. وزراء، سابقون أو حاليُّون، سفراء أجانب، ومستشارو الدولة. وقيل إنَّ الرئيس الحالي، الموقَّت، قصده مرارًا خِفيةً. أمَّا بالنسبة للنزلاء، فإنَّ السيِّدة بوخ صبَّت جلَّ انتباهها على أنسابهم. اقتصر الأمر على شابَّاتٍ من عائلاتٍ كبيرة مفلسة، أو متحدِّراتٍ من معارضين سياسيين أعدمهم أتباع هذا الديكتاتور أو ذاك. ذات مساء، كنت على وشك أن أطلب إحدى المفضَّلات عندي، كيتي أو سيليا، حين سحبتني السيِّدة بوخ إلى صالونها الخاصّ ذي

الجدران المغطّاة بلوحات بريفيت ديفولت. لكنْ ليس لنتناقش في الشعر كما هي العادة:

ـ لديَّ صغيرة آية في الجمال أقدِّمها لك، قالت بلهجةٍ غامضة. كوكا من سانتو دومينغو، استطردت بحماسة. عمومًا، لا أحبّ سكّان سانتو دومينغو، لأنَّهم عنصريُّون ويظنُّون أنفسهم أسمى من الجميع. أمَّا هذه، أكرِّر لك، فهي تحفةٌ صغيرة. كانت عائلتها قد أنشأت جمعيَّةً تزعم أنَّها إنسانيَّة، لكنَّها في الواقع تنغمس في تجارة المخدِّرات.

إزاء هيئتي المرعوبة، هزَّت كتفيْها:

ـ يوجد جمعيَّات كثيرة على هذه الحال! جماعة منافسة اغتالت أفراد عائلتها في أثناء اجتماع في يوغان، من أوَّلهم حتى آخرهم. نجتْ من المذبحة، لأنَّها كانت في السينما مع صديقتها. وبما أنَّه لم يعد لها أحد في هاييتي ولا في سانتو دومينغو، خطر ببال أحد زُبُني الذي يعرفها أن يجلبها لي.

وافقتُ في النهاية أن ألقاها من باب التهذيب والفضول في آنٍ معًا. حتى ذلك الحين، لم أكن قد أوليت قطّ النساء اهتمامًا خاصًّا، وإن كنتُ لا أكره ممارسة الجنس، ممارسةً أزاولها منذ سنّ الثالثة عشرة. حين يفكّر المرء في هذا الأمر، ويركِّز الكثير من الانتباه عليه، فإنَّه يفترض أنَّ المشاكل الوجوديَّة حُلَّت. لم تكن هذه حالتي أنا، من كنتُ بلا عائلة، ولا وطن، وعمليًّا بلا تعليم.

كانت كوكا حبِّي الأوَّل واكتشافًا جنسيًّا في آنٍ معًا. لا بدَّ

من أنَّ جسدها تسري في عروقه جرعةٌ كبيرةٌ من الدم الأسود أو الهنديّ، لأنَّه من حسن حظِّي، كانت بشرتها داكنةً مثل بشرة الهاييتيِّين. لذلك استطعتُ أن أحرِّر عليها رغباتي المكبوتة طيلة كلّ هذه الأشهر. لم أكن أعرف أنَّ الحبّ هو هذه العبوديَّة، وهذا التعلُّق، وهذه الحاجة الدائمة لكائنٍ آخر. ما كنتُ أجهله بصورة خاصَّة، هو أنَّه لا يوجد حبٌّ من دون غيرة. وحين أفكِّر في الأمر، كان الوضع شبهَ مضحك. كانت كوكا نزيلة ماخور، فتاةً للجميع، يا للهول! ومع ذلك، أحلم بامتلاكها وحدي. كان التفكير بكلِّ أولئك الذكور الشبقين الذين يتزاحمون للاستمتاع بسحرها يجعلني مجنونًا. نفرتُ على وجه الخصوص من رودي تيليماك، زعيم الميليشيات الشخصيَّة للرئيس. كان رجلًا قصيرًا متملِّقًا، ذا لغة منمَّقة، يغلب التهذيب فيها على الصدق. وتُعامله السيِّدة بوخ على أنَّه شخصيَّةٌ مهمَّة. كنتُ أغتاظ، لأنَّه حين يكون موجودًا، تصبح كوكا محظورةً على الجميع. أخبرتني السيِّدة بوخ أنَّه كان يعرف أبويْها، وأنَّه بعد اغتيالهما تكفَّل بها. ورحتُ أحلم بتعذيبه وإخصائه وقتله، أنا من كنت أكره العنف لفرط ما كابدتُ منه!

ذات يوم، حاولتُ بشجاعةٍ إقناع كوكا أن تترك الماخور.

ـ أين تريدني أن أذهب؟ سألتْ بتبرُّم. لم يعد لي أهل. ولا أعرف أحدًا هنا ولا في بلدي. ولا أملك قرشًا واحدًا. إنَّك تتفوَّه دومًا بالحماقات، اختتمتْ بجفاف.

سأفهم من الطريقة التي أجابتني فيها كوكا أنَّها لا تشاطرني مشاعر الشغف التي أكُنُّها لها. لم أكن في نظرها إلَّا زبونًا مثل

الآخرين. تابعتُ محاصرتها بإصرار.

ـ يمكنكِ أن تأتين إلى منزلي! اقترحتُ عليها في يومٍ آخر.

ولأنَّها لم تستحسن هذه الفكرة، شرحتُ لها أنَّني صاحب فندق ورثته عن عمِّي، عزُّوز، مع حسابٍ مصرفيّ تضاءل للغاية، لكنَّه لم يزل محترمًا.

ـ إن جئتِ إلى منزلي، أكَّدتُ لها، فلن ينقصك شيء. ستفعلين ما تشائين. ستكونين ملكة. سنغادر هاييتي معًا، وعدتها.

ـ معًا! لماذا؟ سألتْ بلا دماثة.

احتقن الدم في وجنتيّ، وفقدتُ صوابي:

ـ ألا تشعرين أنَّني أحبّك، وأنَّني مولَّهٌ بكِ، وأريد أن أتزوَّجكِ؟ تلعثمتُ. هذا مُنى أحلامي.

ـ ماذا! قالت بحدَّة. لن أتزوَّج عربيًّا أبدًا.

ـ لماذا؟ ماذا فعل لكِ العرب؟

بعد أن غرقتُ في هاييتي، لم تعد الأحكام المسبقة الموجودة عبر العالم تخطر ببالي.

ـ إنَّهم إرهابيُّون، اهتاجتْ. انظر ماذا فعلوا في نيويورك! انظر ماذا يفعلون في العراق وإيران وباكستان وفي كلِّ مكان.

كان بمقدوري أن أناقشها. أيُّهما أفضل: إرهابيٌّ يتصرَّف بدافع فكرة مثاليَّة أم تاجر مخدِّرات يزرع الموت من أجل منفعته الشخصيَّة. لكنَّني تأثَّرتُ تأثُّرًا بالغًا من هذه المحادثة. هربت من

دون أن أطلب بقيَّة حسابي. ولاحقًا أعدت الكرَّة بالتأكيد. ناهيك عن المساومات الصبورة والنقاشات المتواصلة التي شغلتني الأسابيع التالية. أخيرًا، استطعت تنفيذ مشروعي. عصر ذات يوم، غادرت كوكا جنَّة عدن بحجَّةٍ كاذبة، لأنَّ النزيلات لم يكنَّ حُرَّات في الذهاب والإياب على هواهنّ. ترتَّب علينا أن نزوغ من رقابة رجليْن مفتولي العضلات، يضعان نظَّاراتٍ سوداء، ولهما هيئة البعبع (تونتون ماكوت) يحرسان المدخل باستمرار. وافتني إلى شان دو مارس. وحين وصلتْ إلى أرز لبنان، عَبَسَتْ. لم يكن بوسعه أن ينافس السخاء الأرستقراطي لجنَّة عدن، لأنَّه يقع وسط ديلماس في شارعٍ رئيسيّ صاخب. زِدْ على ذلك، لا توجد كهرباء منذ يوميْن والجوّ حارٌّ حرارةً خانقة. لكنَّني لم أيأس من النجاح في إغواء كوكا. فأنا مفعم بحبٍّ مكنون. أليس الحبّ معديًا مثل حمّى؟

واحسرتاه! من يسعه أن يتكهَّن بما سيحدث غدًا، لا سيَّما في بلادنا التي تعيش اضطرابات دائمة!

آنذاك، اتَّفق الفرنسيُّون والأميركان، الذين كان التوتُّر سائدًا بينهما عمومًا، على إجبار الرئيس، الذي حموه وأعادوا تنصيبه، أن يحزم حقائبه، وهذه المرَّة من دون أملٍ بالعودة. وسحبوا من قبَّعتهم رئيسًا موقَّتًا عليه التحضير «لانتخاباتٍ ديموقراطيَّة» جديدة.

إنَّ هذه التنحية، مهما بلغت فظاظتها، ما كان لها أن تكون أهمّ من كثير المغامرات السياسيَّة الأخرى: اجتثاث، انقلابات، استقالات قسريَّة، لو لم تتبعها سلسلةٌ حقيقيَّةٌ من أعمال العنف الشعبيَّة. وبغض النظر عن الخطأ أو الصواب، كان كثير من

الناس يحبُّون الرئيس المخلوع، فتمرَّدوا على التدخُّل الأجنبيّ. وبين عشيَّةٍ وضحاها، صار من الخطير جدًّا أن يخرج المرء من بيته. فقد تمركزت عصاباتٌ مسلَّحة على مفارق الطرق، وراحت تُطلق النار عشوائيًّا على المارَّة. وسادتْ دُرْجَةُ الخطف. وراح المجرمون يأخذون بعض الأفراد كرهائن ويقتلونهم إن لم تُدفع الفدية. لم يعد بإمكانِ أحدٍ إحصاءُ عدد الأشخاص المقتولين الذين تظهر وجوههم في صفحات الوفيَّات في الصحف. وكأنَّني مسؤولٌ عن هذا الوضع الرهيب، لم تعد كوكا تفتح لي بابها. فرحتُ أدسّ لها رسائل مختصرة للاستفسار عن حاجاتها، لكنَّها لم تردّ عليها قطّ. أحيانًا، حين تتكرَّم وتنزل إلى قاعة الطعام، كنتُ أنشغل بها، لكنَّها لم تكن تنظر إليَّ. ولمَّا كنتُ أسأل جهيرة ومريام، الصغيرتيْن الهاييتيّتيْن اللتين تبنَّيْتهما ووضعتهما في خدمتها، عمَّا تفعله طيلة النهار منزويةً في غرفتها، تُجيبانني على الدوام:

ـ إنَّها تبكي.

لن يسعني أن أقول كم من الوقت دام هذا الوضع الجهنَّميّ.

كنتُ محطَّمًا حين قرَّرت الأمم المتَّحدة إرسالَ قوَّةٍ هدفها إعادة ما يُشبه النظام إلى البلد. لذلك تلقَّيتُ رسالةً مسجَّلة تغطِّيها الطوابع والأختام. أعلمني وزير الداخليَّة أنَّ الغرف الخمس عشرة محجوزةٌ لإسكان جنود هذه القوَّة، مينوستا. وأُلْحِقَ بها قائمة أسماء الجنود الذين يجب أن يحضروا إليَّ. كان معظم أفراد هذه الوحدة هم رجالٌ من أميركا اللاتينيَّة: أرجنتينيُّون، برازيليُّون، كوستاريكيُّون، بيروفيُّون. قفز قلبي في صدري فرحًا، ليس فقط

بسبب التفكير بالفائدة المادِّيَّة التي سأجنيها، وإنَّما أيضًا لسبب مختلف تمامًا. انتهت عزلة كوكا. سيكون بوسع هؤلاء الجنود أن يكلِّموها بلغتها الأمّ، الإسبانيَّة. وأنا ألوِّح بالرسالة كراية نصر، تسلَّقتُ الأدراج بأقصى سرعة، وقرعتُ باب الغرفة. فتحت لي أخيرًا. ولأنَّ الحرارة خانقة، كانت نصف عارية. أخذ الدم يغلي في عروقي، ولم أستطع إخفاء انتصابي.

ـ وماذا في ذلك؟ قالت لي بلا مبالاة حين قرأت الرسالة. جنود. بهائم لا يعرفون إلَّا إطلاق النار عشوائيًّا. ماذا تريد أن يكون مشتركًا بيننا لنتحدَّث فيه؟

شعرتُ بالخيبة.

مع ذلك، حين وصل الجنود، كانت موجودةً في الأسفل في قاعة الطعام، تتناول إفطارها.

لكنَّني أراك تكبح ابتسامةً. هذا لأنَّك تخمِّن تتمَّة القصَّة! لا تلمني لأنَّني كنت على هذا القدر من السذاجة! لم يسبق لي أن أحببت قطّ من قبل، ولم أعاشر نساء. لم أكن أعرف إلَّا اللاتي كنَّ كائناتٍ زاخرة بسطوة الخيانة والخداع. لم تمارس كوكا الجنس مع جميع الناطقين بالإسبانيَّة فقط. وإنَّما باعت مفاتنها إلى جنود المينوستا الذين رغبوا بذلك، وحَوَّلَت فندقي الشريف إلى ماخور. وحدث الأسوأ حين لاحظتُ أنَّها تُعطي مواعيد لزبونٍ قديم من جنَّة عدن في شخص رودي تيليماك الذي راح يدخل عندها ويخرج بانتظام. منذ سقوط الرئيس، سرت شائعاتٌ أنَّ حياته معلَّقة بخيط، لكنَّ أحواله لم تزل على ما يرام، تُحيط به ثلَّة حرَّاس شخصيِّين

يحملون بنادق الكلاشينكوف. لم أكن أجرؤ على انتقاده، وحاولت أن أصبر على أذيَّته. وصببتُ إحباطي على الفندق والمطعم. لم أعد أطيق هذا المكان. وسعيتُ إلى بيعه. للأسف، لم يرغب أحد بشرائه. لكنَّني، سأختصر حكاية معاناتي وإذلالي.

وذات صباح، حين جاء خوان غارسيا، أحد ضبَّاط المينوستا، لرؤية كوكا، وجد غرفتها خالية. أين عساها تكون؟ وبمساعدة جهيرة ومريام، فتَّشنا البيت رأسًا على عقب. لكنْ لا بدَّ من مواجهة الحقيقة: كوكا ليست موجودة.

وازداد الغموض. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت بياضاتها وأدوات زينتها مرتَّبة بعناية في الخُزَن الجداريَّة وخُزَن الملابس. لم يكن ينقص إلَّا حقيبةٌ قماشيَّةٌ كبيرة مقلَّمة لا بدَّ من أنَّها اضطرت لأخذ المال والحليِّ فيها. هل كانت عمليَّة سرقة أعقبها خطفٌ، ثم قتل؟ كانت هذه الممارسات شائعةً آنذاك. راح خوان غارسيا يتحدَّث عن إخطار الشرطة عندما راودتني فكرةٌ صاعقة. عادت كوكا إلى جنَّة عدن لتستأنف عاداتها فيه. هُرعتُ إلى هناك. كانت فترة قيلولة، الشمس فيها سجَّانٌ مجنونٌ. الجميع نائم. ولا توجد أيَّة سيَّارة لزبون في المرآب. توجَّهت إلى بعبع (ماكوت) من بين الحرَّاس المتمركزين في المدخل.

ـ أودّ أن أرى السيِّدة بوخ.

يبدو أنَّهم تلقُّوا أوامر، لأنَّهم ردُّوا في الحال:

ـ هي لا تريد رؤيتك.

ثم دفعوني بعيدًا بعنف. ولمَّا أصرَّيتُ، ضربوني. عاودتُ

الكرَّة في اليوم التالي. أخرج أحدهم عندها سكِّينًا من جيبه، وهدَّدني:

ـ إن عدتَ ثانية إلى هنا، قتلتك! قال نابحًا.

لم أحاول أن أطرق باب الماخور ثانيةً. وفي غمرة يأسي، توجَّهتُ إلى بعض شركات الطيران التي استأنفت رحلاتها الجوِّيَّة. لكنَّهم رفضوا بالإجماع أن يطلعوني على قوائم ركَّابهم.

كدتُ أُجَنُّ. سَكَنَتْ الكوابيسُ لياليَّ. خلتُ أنَّني عثرتُ على كوكا. ورحتُ بلذَّة وشغف أمارس الجنس معها. تقلَّبتُ لأستردَّ أنفاسي، فاكتشفتُ عندئذٍ أنَّني أحتضن جثَّةً متفسِّخةً تزكم رائحتها المتعفِّنة أنفي.

في بعض الأحيان، كنت أخال أنَّني تعرَّفت إلى كوكا في إحدى العابرات، فألحق بها. وهكذا، قادتني إحدى النساء إلى قذارة وبؤس أحد أحياء الضواحي في سان سولاي. دخلتْ إلى كوخٍ من الصفيح، فانتظرتُ عبثًا أن تخرج منه بين أكوام القمامة. وبينما أنتظر على مفترق طرق، تخيَّلتُ أنَّ سيَّارة رودي تيليماك المرسيدس، المعروفة من جسامة سائقها، توقَّفت بجانبي. ثمَّة امرأةٌ تجلس داخلها، يُحيط حجابٌ بوجهها. هذه المرأة هي كوكا، أنا واثقٌ من ذلك. حاولتُ أن أفتح الباب بلا جدوى. رحتُ أقرع زجاج النافذة. أقلعت السيَّارة من جديد، فأخذت أركض كالمجنون وراءها. وطبعًا، لم ألحق بها.

بالتأكيد، ثمَّة حلّ يحميني من الجنون.

الرحيل. أن أغادر هاييتي إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وأزيد عدد العرب المتكدِّسين هناك. لديَّ صديق، اسمه جمال،

ترعرع معي على أرصفة بيروت، ويعيش الآن في مدينة يوجين بولاية أوريغون. يبدو المكان جميلًا هناك. يعمل عملًا مرموقًا. ومتزوِّجٌ من إيرانيَّة. وعلى الرَّغم من كراهية الناس لعرقنا وديننا، والتجاوزات التي نحن ضحاياها، لم يكن تعيسًا. سيسعني أن أسجَّل في الجامعة التي تقبلني، والبدء في دراسة *الكتابة الإبداعيَّة*، هكذا تُسمَّى في الولايات. لعلَّني أحقِّق حلمي في أن أصبح كاتبًا. لكنَّ الغريب أنَّ ذلك لم يعد يعني لي شيئًا، كأنَّني بين الحبِّ والأدب، بين الحياة والكتابة، اخترتُ.

لا تفقد صبرك من بطء روايتي. فالأسوأ قادم، وما أخشاه حصل. كان الجميع يعرف أنَّ رودي تيليماك هو أحد تجَّار المخدّرات في البلد. وبفضل هذه التجارة، بلغت ثروته ملايين الدولارات. قرَّرت الحكومة الأميركيَّة تصفيته. وبفضل صلابة عملائها، ضُبِطَ متلبِّسًا واضطُرَّ للهرب من البلد. كانت تنتظره طائرةٌ خاصَّة في كاب هاييتي، متأهِّبةٌ للإقلاع نهارًا وليلًا...

لذلك فرَّ مع متواطئين معه. ومن بين المجموعة، كانت توجد امرأة شابَّة من سانتو دومينغو، إحدى عشيقاته العديدات التي لم يذكر الصحفيُّون هويَّتها. أنا، تعرَّفتُ إلى كوكا. غادرت الطائرة إلى الأرجنتين أو تشيلي، لا أحد يعلم علم اليقين. بعد هذه الأحداث بوقتٍ قصير، جاء الجنود إلى جنَّة عدن، ألقوا الفتيات في الشارع، واقتادوا السيِّدة بوخ إلى زنزانةٍ، ولم تزل تقبع فيها، بالتأكيد.

هذه حياتي. ما عساي أفعل بها الآن؟ انصحني، إن استطعتَ.

في إشارة منها إلى استيائها، استغرقت ثيكلا وقتًا حتى زارت ابنها مرَّةً أخرى في الحلم. ولمَّا ظهرت له، فذلك لترميه بسهامها:

ـ ها قد التقيتم بخير. ثلاثة رجال، ويمكن القول ثلاثة أرامل يبكون حبّهم بالطريقة ذاتها. أنصحكم أن تعيشوا معًا وتُقيموا مستعمرةً. ستبدو فعلًا كزعيمٍ روحيٍّ لها. فضلًا عن أنَّك أكبرهم سنًّا.

ـ مستعمرة! قال باباكار محتارًا، كما في كلِّ مرَّة تسخر فيها منه. وماذا يمكننا أن نسمِّيها؟

ـ مستعمرة الأرامل الحزانى، هو ذاك. أو الأفضل: مستعمرة العالم الجديد. هذا وقعه لطيف. أنتم الثلاثة من هويَّات مختلفة: عربيّ، وإفريقيّ من إفريقيا جنوب الصحراء نصف كريولي، وهايتيٌّ. بشريَّة جديدة ستتشكَّل. بشريَّة من دون أوروبيِّين، أي من دون مكتشفين ـ مستعمرين، من دون أسياد ولا عبيد أو مُسْتَغَلّين. وسيكون بمقدوركم أن تخلقوا عالمًا أكثر عدلًا!

ألقت هذه الجملة الأخيرة قبل أن تتوارى في قهقهة.

أبقى باباكار عينيْه مفتوحتيْن في الظلمة، متأمِّلًا ترتيب الوجود.

استمع باهتمامٍ بالغ إلى حكاية فؤاد. لم تبدُ له حياة فؤاد تُشبه حياته كما يزعمٍ موقار. على الأغلب، هنالك اختلافان بشأن مواضيع العنف والنزوح، وروايات مختلفة في مخطَّط يصبح عاديًّا

أكثر فأكثر. كلاهما انجرفا في دوَّامةٍ حلزونيَّة من الأحداث التي لم يستطيعا التحكُّم بها، وابتلعت في النهاية أعزَّ ما لديهما.

كان هذا غباءً! لكنَّه لم يتخيَّل في حياته أنَّه سيشعر يومًا بالقرب من لبنانيّ، حتى لو لم يكن فؤاد لبنانيًّا حقيقيًّا. كان يوجد في باماكو حيّ للبنانيين. شارعان أو ثلاثة شوارع هادئة، تحفّ بها منازل فخمة، من الحجارة. تشغل طوابقها الأرضيَّة متاجرُ مزدهرة تبيع الأنسجة على وجه الخصوص. لا نبيع بالدين، كانت الملصقات تعلن جهرًا وعلانيَّة. ولأنَّه كان يجتازها مع أمّه، ألقتْ بلهجة احتقار:

ـ هؤلاء الناس مستغِلُّون، رأسماليُّون قذرون، إنَّهم عَلَقٌ يمتصّ دماء شعبنا. وهم كثيرون أيضًا في بلدي!

ومثل كلّ ما قالته له أمّه، حُفرت هذه الجملة في رأسه. لكنْ هذه المرَّة، بطاقة صفراء لثكيلا! كان يفترضُ بها أن تتجنَّب التعميم، وتعرف أنَّ المواقع قابلة للتبادل. المظلومون، حين يستطيعون، يصبحون ظالمين، وهؤلاء الأخيرون غالبًا ما يغدون ضحايا. بعد زهاء ثلاثين عامًا، تأكَّد باباكار أنَّ هذا الكلام ليس في نهاية المطاف إلَّا صدًى لأحكام مسبقة. لقد منحه فؤاد هبةً لم يتلقّها في حياته. وباستثناء حسن الذي كان يعترف أنَّه مغرمٌ به، لم يحظَ بصديقٍ قطّ. لم يكن محميًّا ضعيفًا مثل موقار. ولا أبًا مكمّلًا مثل هيغو مورينو. كان صديقًا. ندًّا. قادرًا أن يسخر منه، أن يغيظه، أن يخالفه، أن يتشاحن معه:

ـ لنتوقَّف عن التنزُّه في الحياة مثل دون كيشوت بهيئة فارس

الوجه الحزين. ما نحتاجه هو زوجتان جميلتان مجرَّدتان من العاطفة والإحساس. أليس هذا ما ينقص!

سرعان ما أصبحا لا يفترقان. لماذا؟ ليس الدِّين هو ما يقرِّبهما. فأن يكون مسلمًا، حتى وسط مدٍّ من المسيحيين والفودويين، لم يكن يعني شيئًا يُذكر بالنسبة إلى باباكار. وآخر مرَّةٍ وطئ فيها مسجدًا، كانت في سيغو، مع جدِّه. كان الإمام يُدين بشدَّة أولئك الأصوليِّين الذين يسفكون الدماء، ويولُّون ظهرهم لرسالة الله.

مع ذلك، هل يمكن لأحدٍ أن يفسِّر أسباب الصداقة؟ لم يكن هنالك سببٌ إلَّا الحبّ.

أوه يا للمفاجأة!

على نحوٍ غير متوقَّع، وجد فؤاد من يبتاع أرز لبنان. كان المشتريان المرسلان من السماء زوجيْن أميركيِّين، من المورمون، غادرا مدينة سولت ليك. كانا ينويان فسخ عقد المينوستا بشأن الغرف، لأنَّهما يكرهان المنظَّمات والقوَّات الدوليَّة:

ـ لا يحترمون الله، ولا ينفكُّون ينشرون المواخير أينما مرُّوا. ماذا يفيدون هذا البلد؟

فكرة الافتراق، وأن يذهب كلّ واحدٍ في سبيله بعد أن بدأوا يشعرون بالإلفة فيما بينهم، بدت لا تُحتمل بالنسبة للمجموعة. وباتِّفاقٍ فيما بينهم، قرَّروا الانتقال معًا إلى سان سوليداد.

قبل بضعة أسابيع، وفي لهيب عصر يوم حارّ، كانوا قد وَدَّعُوا الدكتور ميشيل. سارع حشدٌ كبيرٌ إلى المركز الطبِّيّ وهم

يحتسون كوكتيل ديكويريس، ويقضمون رقائق موز الجنَّة المتبَّل بالفلفل الحارّ. اعتبر باباكار المذهول أنَّ جميع هؤلاء الخلاسيِّين جاؤوا لتحيَّة واحدٍ منهم. ولم يساوره شكّ أنَّه لم يزل يوجد الكثيرون منهم في المدينة. كانوا قد عوملوا كأعداء لفترةٍ من الزمن. لكنَّ الديكتاتوريِّين ذوي البشرة الداكنة الذين تعاقبوا على رئاسة البلد جعلوا جرائمهم تافهة، وغيَّروا نظامهم. هل ما يزال الشعور الطبقيّ يحرِّكهم؟ أين يعيشون؟ لا نراهم إطلاقًا في الشوارع. لم نكن نواجه إلَّا حشدًا أسود متألِّمًا من حالات البؤس. رجال يروون لك عن مصائبهم من دون أدنى حياء، على أمل استدرار عطفك. نساء يعرضن أطفالهنَّ الرضَّع الكسيحين على الرصيف مباشرةً. أطفال باللباس المدرسيّ يُهرعون نحو مدارس مكتظَّة لا يتعلَّمون شيئًا فيها!

قدَّم له هكتور خلاسيًّا آخر مرتديًا طقمًا أبيض بهيئة مغنٍّ غندور:

ـ ابن عمِّي، تي سون ميجي، يعرف كلّ الناس. عرف فورًا من هي ستريلَّا أوفيد. رسَّامٌ بارعٌ. لكنَّ تي سون لم يستطع اكتشاف عنوانها، لأنَّها هي ورفيقها لديهما نحو عشر عناوين متوزِّعة عبر البلاد. سيواصل بحثه، وسيُخبرك حين يحصل على خبرٍ جديد.

اتَّخذ تي سون هيئة متآمر، وخفض صوته:

ـ ستريلَّا أوفيد، عاهرةٌ حقيقيَّة! على العكس تمامًا من شقيقتها رينيت، المناضلة، كانت رفيقةَ الصحفيّ المغدور.

وإزاء هيئة باباكار الغامضة، أكَّد:

ـ هيَّا! يتحدَّثون عن ذلك في العالم أجمع. بل إنَّ سينمائيًّا أميركيًّا صوَّر فيلمًا عن قصَّتها. ألم تشاهده؟

اعتذر باباكار. لكلِّ شخص حربه وشهداؤه.

ـ سأعثر لك أين تختبئ مع عشيقها، زعيم العصابة الشهير، وتاجر المخدِّرات، وقوّاد عصره. إنَّه بعبع الأميركان. لذلك لا أحدٌ يعرف إطلاقًا مكانهما بالضبط.

ومع مرور الأسابيع، أصبح تهكُّم ثيكلا حقيقةً. تشكَّلت الآن مستعمرة فعلًا. قرَّر باباكار في البداية تغيير اسم المركز. ليس لأنَّه شعر بأيِّ نفور تجاه اسم القدِّيسة تريزا كالكوتا. بالنسبة له، كان هذا الاسم يوحي بالكثير من أعمال البرّ والتعاطف. قرَّر ببساطة تسميته «الدار»، وهي تسمية أكثر حرارةً وترحيبًا في آنٍ معًا. كان كلّ واحد يؤدِّي مهمَّة ثابتة مثل نحلةٍ في خليَّة.

بصفته رئيس أطبَّاء، استعاد باباكار وضعيَّة السلطة والاحترام اللذين أفقدته إيَّاهما إحباطاته مؤخَّرًا، وارتمى في العمل بغبطة. كان يعرف الزبائن حقَّ المعرفة. بعضهنَّ فتياتٌ صغيرات حملنَ من مرتزقة العصابات المسلَّحة المتنافسة التي لا تُحصى، أو ممَّن بعن أجسادهنَّ مقابل بعض ثمار القرع. وبعضهنَّ أيضًا ممَّن اغتصبهنَّ جنودٌ أميركيُّون، أو جنود المينوستا الذين لم يشمئزُّوا من نوم البؤس في فراشهم لليلة. في مثل هذه الظروف، لم يكن مستغرَبًا أن يكنَّ مستعدَّاتٍ للتخلِّي عن أطفالهنَّ فور ولادتهنَّ، ورميهم في الحاويات وأكوام القمامة عند مفارق الطرق في سان

سوليداد. كانوا يجدونهم أيضًا وقد نهشت الكلاب الشاردة نصف أجسادهم على الخطّ الحديديّ القديم، الذي كان يشحن قصب السكَّر حتى كاب هاييتي. أخذ باباكار يعتني بهم ويستقبلهم حين يُحضرونهم إليه، وسرعان ما وجد نفسه على رأس دار أيتام تضمّ نحو عشرين رضيعًا. هيَّا! هذا ليس بالمكان الذي تنقصه كلمة «الدار».

راح فؤاد يدمدم:

ـ ماذا تنوي أن تفعل بكلِّ هؤلاء الأطفال؟

ـ هل تفضِّل أن أتركهم يموتون؟

ـ لعلَّ ذلك أفضل لهم! كان فؤاد يردّ مُظهرًا قسوة قلبه.

وحتى يكون نشاط باباكار خاضعًا للقانون، توجَّه إلى العمدة في مبنى البلديَّة. كان السيِّد سان أومير سيِّء الصيت من حزب لافالاس. فهو رفيق الرئيس المخلوع الآن في المدرسة الإكليريكيَّة، وجُرِّدَ من الرداء الكهنوتيّ معه في العام ذاته، وحافظ على حرِّيَّته وحساباته المصرفيَّة في الخارج، لأنَّه كان أيضًا ابن عمّ رئيس الدولة الموقَّت الحالي. لذلك، حين كان يقول «أخي الرئيس»، لم يكن أحد يعرف البتَّة من يقصد. وعلاوةً على ذلك، كان رجلًا مجاملًا ودمثًا.

ـ أخي الرئيس يحيِّيك، أعلن بابتسامةٍ عريضة. يعتقد أنَّك تحمل قلب هاييتي حقيقيّ. والبلد سيعاملك بالمثل.

ـ لم أفعل إلَّا ما تمليه عليّ مهنتي، أكَّد باباكار. الأطبَّاء موجودون هنا ليحاولوا التغلُّب على الآلام والموت.

وخلال الحديث، وعد السيِّد سان أومير دار الأيتام بمساعدة من البلديَّة للدار لم يسبق لأحدٍ أن حصل على مثلها.

ضمن هذه المسؤوليَّات الجديدة، ازدادت أهمِّيَّة فؤاد بالنسبة لباباكار. لم يكن مهتمًّا فقط مع مريام بمطبخ المركز، ونحو مائة وخمسين وجبة يوميًّا. التاريخ يُعيد نفسه، كما في إبيرنيا، كانت أدوية الجمعيَّات الخيريَّة، تُسْرَق وتُخْتَلَس وتُبَاع بثلاثة أضعاف قيمتها. كان الناس يبتاعون الأدوية من الأسواق، أو على نحو أشدّ غرابة أيضًا من أكشاكٍ صغيرة على جوانب الطرقات. وكان فؤاد قد بنى شبكةَ علاقاتٍ إبَّان امتلاكه أرز لبنان. لم يُعَلِّمْ باباكار فقط تمييز الأدوية الحقيقيَّة من المزيَّفة، وإنَّما علَّمَه أيضًا الأدوية التي تعجِّل بالموت، والتعامل مع المورِّدين غير الموثوقين، والمشبوهين، وحتى الخطرين بكلِّ معنى الكلمة. وكان من المهمّ أيضًا تأمين أغذيةٍ كافيةٍ «للدار»، لأنَّ الأغذية الأكثر عاديَّة تكلِّف باهظًا. ومع مطلع كلِّ فجر، كان فؤاد وباباكار ينزلان إلى السوق الرئيسيّ في بورت أوبرنس. بازار حقيقيّ يعبق بالروائح النفَّاذة يُباع فيه كلّ شيء. لوحات الفنّ الساذج، مخادعون ومزعجون، مفارش مائدة مطرَّزة، تماثيل منحوتة من خشبٍ بُنِّيٍّ مُعَرَّقٍ بالأسود، قرعٌ مُفَرَّغٌ ومشغولٌ، توابل، فاكهة أضناها النضج، لحومٌ يتزاحم الذباب عليها، أسماكٌ بعيونٍ زجاجيَّة. رجالٌ ضخام، يعتمرون بغرابة قبَّعاتٍ صوفيَّة، تغطِّيهم حتى عيونهم، يروِّجون مساحيقهم:

ـ *انظروا، انظروا ما أنصع بياضها، وما أشدّ تأثيرها!*

ـ هذا سمّ! أرعد باباكار غاضبًا. إنَّه يقتل حتى الجنين في رحِم أمِّه!

ـ كفى! همس له فؤاد. لا تكن دونكيشوتًا. أنت تعرف حقّ المعرفة أنَّهم لا يكترثون.

في إحدى الزوايا، اصطفَّ مئات الرجال والنساء أمام طاولاتِ كتبةٍ شعبيين يكتبون لهم طلبات مساعدة من أهاليهم الأوفر حظًّا، العاملين في أصقاع المنافي. كان فؤاد صديقَ أحدهم، يُدعى دوريسموند، عاش في دبي، يرطن قليلًا بالعربيَّة:

ـ *السلام عليكم!* هتف ببراعة.

فوجئ أنَّ باباكار يعرف أيضًا تلك الكلمات.

ـ أنتَ لستَ عربيًّا، أنتَ! أكَّد. إنَّك أسود مثلي. من علَّمك هذا؟

شرح باباكار بصبر أنَّه مسلم، وانطباعٌ غريبٌ يراوده أنَّه يتحدَّث عن شخصٍ آخر غير ذاته.

أمَّا موفّار، فقد ألفى نفسه في بيئته. راح يزاول العمل الذي يحبّه، وأصبح من جديد «حاكم الندى». مهَّد الأراضي المجاورة، وكشفَ مسيل ماء طمره السيل. وهو من لم يكن لديه أيّ فكرة عن الهندسة المدنيَّة، أنشأ نظام ريّ. وراحت الأرض من الآن فصاعدًا تغلّ، إضافة إلى الطماطم والخسّ والباذنجان والفليفلة، كلّ أنواع البقول، لأنَّه كان يؤكِّد بمنتهى الجدِّيَّة: لا *يكون الطعام لذيذًا، إن لم توجد البقول.*

أمَّا جهيرة، ومن دون أن تأخذ مشورة أحد، تركت مكتب الاتِّصالات الذي كانت تضجر فيه ثماني ساعات يوميًّا، وكرَّست نفسها حصرًا لآناييس. ولأنَّها مرحةٌ وبشوشةٌ، ولا يفارق المزاح

فمها، فإنَّ مزاجها أثَّر على طبع الصغيرة. وشيئًا فشيئًا، أصبحت الطفلة أقلّ اكتئابًا، فيما بريقٌ ذهبيّ يتلألأ في عينيْها.

وذات عصر كان موڤار عائدًا من بستانه، فدخل إلى المكتب حين كان باباكار يبوِّب حساباته بألم، وأعلن له:

ـ غدًا سأزور سو فانفان...

اعتاد باباكار على طريقة موڤار الغامضة في الكلام، ومن دون أن يرفع بصره عن فواتيره، سأل بشرود:

ـ ومن هي سو فانفان؟

ـ إنَّه الشخص.

طفح الكيل. لكن باباكار لم يفقد صبره:

ـ أيّ شخص؟

قرَّر موڤار أن يوضح أكثر:

ـ الشخص الذي نصحتني به الجارة سيلوتا، أفضل من يساعدني.

ـ يساعدك في ماذا؟

عندئذٍ، حدَّجه موڤار بنظرةِ عتبٍ ذكَّرته بأحاديثهما المولودة في المطر والليل. «هاييتي ليست كغيرها. في هذا البلد، لا يوجد الموت. الناس تختلط ببعضها، فلا أحدٌ يدري مَنْ الحيّ، ومن مات.»

ـ هل تريد أن أرافقك؟ عرض عليه على سبيل الاعتذار.

ـ أجل، أَسَرَّ موڤار، مُضيفًا بحزن: لأنَّ فؤاد، هو، لا يريد المجيء.

في الواقع، أعلن فؤاد رأيه بوضوح في هذه الخزعبلات السحريَّة الخارقة التي لم يكن باباكار، نظرًا لموروثه من مينيرڤا، بعيدًا تمامًا عن التأثُّر بها. مع ذلك، في اليوم التالي، وعلى دهشٍ من الجميع، جلس خلف مقود الشاحنة الصغيرة التي لم تزل تحمل عبارة «أرز لبنان ـ مطبخ لبنانيّ متوسِّطيّ فاخر».

كانت سو فانفان ومساعدتها جوانا، المكلَّفة بإشعال الشموع في أثناء الجلسات، وتقديم الشاي في صالة الانتظار، وعند اللزوم تدليك الزُّبُن الراغبين بذلك، تقطنان في مدينة يوغان. كانت المدينة الصغيرة الواقعة على مسافة بضعة كيلومترات مسرحًا لتمرُّد شارلمان بيرالت الذي تحدَّى الأميركان. لذلك، فور الدخول إليها، تنتصب لافتةٌ تذكِّر الزوَّار بشهيدها، ولكنَّها تُشير أيضًا:

«ستيفاني لوبران الملقَّبة سو فانفان

عرَّافة ووسيطة روحيَّة

ذات شهرة عالميَّة

زاولت المهنة في الولايات المتَّحدة

في مدينة بروكلين،

في ولاية نيويورك.»

وفيما انصرف فؤاد جهارًا، تكدَّس موقار وباباكار في غرفة الانتظار الخانقة التي ينتظر فيها بصبرٍ نحو نصف دزِّينة من الزُّبُن. وبعد وقت لا نهاية له، ظهرت سو فانفان بطريقةٍ مسرحيَّة. كانت امرأةً صارخة الجمال، في الأربعين من عمرها تقريبًا، ترتدي

طقمًا ضيِّقًا بلون أحمر قانٍ، وتعصب جبهتها بمنديلِ رأسٍ من اللون ذاته. بدأت تتحدَّث الأميركيَّة، بعد أن تركت هاييتي مع أهلها وهي طفلة، ودرست المحاسبة في كلِّيَّة مدغار إيفرز. وهناك نسيت كلّ لغتها الفرنسيَّة، قالت بأسى، والتقت شابًّا سنغاليًّا تزوَّجته من سوء حظِّها:

ـ السنغاليُّون! آي، آي، آي. هم أسوأ الجميع! أكَّدتْ.

وقبل أن تختلي بموڤار، اقترحت على باباكار أن تدلِّكه جوانا. وافقَ، لأنَّ ذلك يذكِّره بأيَّامه في سيغو، حين كانت مدلِّكات جدَّته يصلن مع مراهمهنَّ وزيوتهنَّ العطريَّة. كانت تهتمّ به اهتمامًا خاصًّا مدلِّكةٌ تُدعى مارياما. يداها الخشنتان والناعمتان في آنٍ معًا على نحوٍ غريب كانتا تولِّدان في داخله متعةً مترامية تُشعره بالخجل. سألته جوانا وهي تشعل شموعًا تنشر رائحةً غريبة:

ـ هل يسير كلّ شيء كما تشاء؟

ما الإجابة على هذا السؤال؟ الحياة امرأةٌ عرجاء سليطة اللسان. تلعثم باباكار في الردِّ بالإيجاب وتمدَّد على مقعد. وكلَّما أمعنت راحتا جوانا في تدليكه، راوده إحساس أنَّه يغادر غلافه الجسدي. كأنَّ المشاعرَ، سعيدةً أو تعيسةً التي خَبِرَهَا، كانت تحلِّق، وكأنَّه هو أصبح خفيفًا، خفيفًا، متأهِّبًا للرقص مثل ذرَّة غبار في شُعاع الشمس، قشَّةٍ بين القشِّ، جُزَيْءٍ بين الجُزَيْئات. استمرّ اللقاء زهاء ساعة. بعد ذلك، خرج مترنِّحًا، فريسة إحساسٍ ممتع بأنَّه فكّ عقد الحبال التي تربطه بالأرض. كان فؤاد ينتظره، ويقرأ صحيفة:

ـ اغتالوا أيضًا وزيرًا لبنانيًّا! أعلن بإحباط. أيضًا فتنٌ ودماءٌ وموتى. هذه المرَّة، لا يتكلَّمون على إسرائيل، إنَّهم يتَّهمون سورية.

لم يجد باباكار أيَّ تعليق يُدْلي به. جميع أعمال القتل تعصف دومًا بالمناطق ذاتها!

ـ في هذه اللحظات، تابع فؤاد، يزداد عذابي أيضًا بسبب زهران. أنا واثق أنَّه متورِّطٌ في كلِّ ذلك.

أرغم باباكار نفسه على ألَّا يفكِّر ثانيةً بأحد، حتى يتجنَّب الحزن أو الندم. وحين تنبعث ذكرى حسن من ضباب الماضي، يطردها بحزم. الصورة الوحيدة التي لم تفارقه هي صورة أزيليا. كانت تفترش أعماق ذاكرته مثل ديباجٍ لا يمكن نزعه.

ظهر موڤار أخيرًا، ترافقه سو فانفان، ذلقة اللسان، وقبَّلتهم ثلاثتهم كأنَّهم أصدقاءُ قُدامى. ظاهريًّا، لم تُسِرّ هذه القبلة موڤار الذي ظلّ وجهه الشابّ، الحالم والمبتسم عادةً، حازمًا.

ـ هل سار الأمر على ما يرام؟ سأله باباكار.

ـ لا! أجاب بتحفُّظ.

ـ لماذا؟ ماذا هناك؟ ألحَّ فؤاد.

وبدل أن يُجيبه، لاذ موڤار بصمتٍ عميق، لم يفلح أيُّ سؤال في كسره.

راح وشاح الليل يغلِّف الآن معالمَ كلّ شيء. لم نكن نُميِّز في الجوار سوى هالةٍ ضاربةٍ إلى البنِّيّ. وحدها النجوم تلمع

بوميضٍ قويٍّ وواضح. على شرفة المبنى «أ» كانت جهيرة وميريام تترقَّبان عودتهما.

ـ *هل رأيتها*؟ هتفتا لموفّار.

ـ لا، *لم أرها*، أجاب بتحفُّظ.

وصعد إلى غرفته من دون أن يُضيف أيَّة كلمة.

تبادلتا نظراتٍ مذهولة، ثم كرَّرتا بالصوت المتهدِّج ذاته:

ـ *لم يرها!*

نهرهما فؤاد بغضب:

ـ هل يدهشكما أنَّه لم يرها؟ توقَّفا عن ترَّهاتكما. الموت يعني النهاية. النهاية. حين يحدث، لا يعود هناك مجال للقاء ثانيةً.

لم تكلِّف الشقيقتان نفسيْهما عناء الردّ عليه. أخبرت جهيرة باباكار عن زيارة تي سون ميجي. ستريلَّا أوفيد، شقيقة رينيت، موجودةٌ الآن في قصرها في ضواحي جاكميل. يمكن رؤيتها هناك.

كانت جهيرة تمسك آنابيس من يدها، وتحاول توجيه خطواتها الأولى. وبعنادٍ دؤوب، كانت آنابيس ترفض أن تُطيعها، فتندفع لوحدها تمامًا، تقع وتنهض. حين رآهما مرَّةً أخرى معًا، راح باباكار يتملَّى بإعجاب كم تفتَّحت الطفلة بفضل عناية جهيرة، على الرَّغم من شعوره اللاإراديّ بالغيرة. وأخذ يقارنهما بلوحة «العذراء والطفل» التي رسمها عددٌ لا يُحصى من الفنَّانين المحلِّيِّين.

نحو منتصف الليل، ظهر موڤار ثانيةً فوق الشرفة حين كان فؤاد يقرأ مقتطفات من ديوان شعر فلسطينيّ. كانت أجفانه المتورِّمة وعيناه المحمرَّتان تشي بأنَّه بكى بكاءً غزيرًا.

ـ أعلن من دون مقدِّمات باللغة الكريوليَّة، أخبرتني سو فانفان بما كنتُ أخشاه. لأنَّ أحدهم لمسَ جثَّتها، لم يعد بوسعها رؤية مكان رينيت. بحثتْ في كلِّ مكان. حول الأرض، يوجد سبعة سهول للمتوفِّين. إذا اقتادك أحدُهم بالسحر أبعد منها، لا يعود بمقدور أحدٍ أن يجد أثرًا لك.

ـ موڤار، سبق أن أخبرتك، قال فؤاد مغتاظًا، لكنَّه قسر نفسه على الهدوء، توقَّف عن هذا الهراء. أنت لا تنفكّ تؤذي نفسك. حبيبتك رينيت ماتتْ ودُفِنَتْ.

في عطلة نهاية الأسبوع التالي، ذهب الجميع إلى جاكميل.

حين اجتازوا سان سوليداد وبورت أوبرنس، سلكوا طريق الجنوب. ولكنْ شمالًا أم جنوبًا، يظلّ الدمار هو ذاته. ووصل الحال بنا إلى التحسُّر على الفوضى العارمة في بورت أوبرنس. ألفينا أنفسنا أمام مسطَّحات قمريَّة مجوَّفة بِحُفَرٍ عميقة مفرغة. أين رحل سكَّان القرى الشبحيَّة، المتروكة بين السماء والأرض؟ هل ركبوا قوارب عائمة في بحارٍ ومحيطاتِ العالم بحثًا عن مكان يرسون فيه وينجون؟ مهاجرون محتَقرون، تنشقّ أفواههم عن رطانة أجنبيَّة. ليس ثمَّة أيّ ملمحٍ بشريٍّ في شوارع الضوء والغبار الخالية. مشهدٌ يفطر القلبَ. ما أقسى أن يكون المرء شاهدًا عاجزًا على عذابات الأرض!

لمن هذه المواشي الهزيلة التي تسرح وهي ترعى براعم الأعشاب النادرة؟ وما عدا باباكار، المتوتِّر مثل موعود يأمل

بزيارة حسنائه، كان الجميع نائمين في السيَّارة. لكنَّهم نظرًا لحالة الطريق، كان يمكنهم أن يظلُّوا مستيقظين. تحوَّل الطريق إلى شريطٍ ضيِّقٍ محفَّرٍ بحفرٍ عميقة مثل مجاري تدور فيها العجلات في الفراغ. وعلى الرَّغم من هذه المصاعب، راح السائق المستأجَر مع المركبة يقود بسرعة، ويمسك مقوده بيدٍ خبيرة. وحتى لا يزعج نوم ركَّابه، كتم صوت المذياع ومعه نبرات فرقة كاريمي الهادئة، وسأل باباكار بالكريوليَّة:

ـ *من أيِّ بلد أنت؟*

حين أوضح باباكار أنَّه غريب، من مالي، استعاد بشجاعةٍ لغته الفرنسيَّة، وأكَّد:

ـ الآن، في هاييتي، الوضع أسوأ من فترة حكم جان دوفالييه.

ـ لا أصدِّق ذلك! هتف باباكار متعجِّبًا. على أيَّة حال، هناك بصيص أمل.

ـ أمل بماذا؟

لم يحر باباكار جوابًا على هذا السؤال المباشر. ألحَّ السائق:

ـ هل سمعت «بالشيمير»؟

أجل، سمعت بهم. شيمير! وطنيُّون! إنَّهم الشيء ذاته. دُفِعوا إلى أرض الإقصاء والبؤس الخصبة ذاتها. ويستطيعون ارتكاب أسوأ الشرور للأسباب ذاتها.

أعلن السائق:

ـ إنَّهم أسوأ الجميع! أسوأ من «الزينغليندوس»، وأسوأ من الشرطة السرِّيَّة «الماكوت». . .

فجأةً، توقَّف وسط خطبته اللاذعة، وكَبَح الفرامل بفظاظة، فانحرفت السيَّارة. لذلك استفاق الجميع في آنٍ معًا، وأخذتْ آناييس في البكاء. اجتاز منعطف الطريق، وظهر حاجزٌ ضخم، إطاراتٌ وألواحٌ خشبيَّةٌ نصف محترقة، تتصاعد منها سحب الدخان عبر الطريق. ونحو اثني عشر شابًّا صغيرًا لا يرتدون زيًّا عسكريًّا، لكنَّهم مدجَّجون بالسلاح، هيئتهم متوعِّدة، يُحيطون بالمكان. من هم؟ وإلى أيّ حركة ينتمون؟ هل هم من «الشيمير» المرعبين؟ أم على العكس هم من رجال الحكومة الانتقاليَّة؟ لم يستطع باباكار أن يحدِّد إلى أيِّ معسكرٍ ينتمون. انفصل من بدا أنَّه القائد عن المجموعة. لم يكن أكبر سنًّا من رفقائه، لكنَّه يتميَّز بهيئته الواثقة، وحتى المتغطرسة. كان جميلًا بشعره الأصهب المجدول على طريقة بوب مارلي، المنسدل حتى كتفيْه. اقترب من السيَّارة، أدَّى تحيَّةً عسكريَّةً متقنة، وأعلن بلغةٍ فرنسيَّة لا تشوبها أيُّ شائبة أيضًا:

ـ أنا النقيب دالامبير من القوَّات الخاصَّة بقيادة هنري كريستوف الثاني. إلى أين أنتم ذاهبون؟ ولماذا جئتم إلى هنا؟

في الحقيقة، خاطب باباكار مباشرةً، محدِّقًا في عينيْه بإمعان كأنَّ الآخرين غير موجودين. فأجابه:

ـ نحن ذاهبون إلى جاكميل!

قطَّب النقيب دالامبير حاجبيْه، كأنَّ الفكرة غيرُ سديدة:

ـ إلى جاكميل! لماذا؟ ماذا ستفعلون هناك؟

تسلَّح باباكار بالصبر، لأنَّه يجب على المرء أن يتحلَّى بالصبر مع من يحملون البندقيَّة. لا أحد يعرف البتَّة متى تنطلق الرصاصة! اتَّخذ هيئةً رزينة، وقال:

ـ بسبب كنوزها الفنِّيَّة و. . .

قاطعه النقيب بلهجة مغتاظة!

ـ تقومون بالسياحة في بلدٍ يعيش حالة حرب؟

أخفى باباكار سخطه:

ـ حالة حرب! هتف متعجِبًا. لا أعرف أنَّ هذا البلد في حرب. ضدَّ مَنْ؟

ـ أجل، نحن في حرب.

ـ ضدَّ مَنْ؟ كرَّر باباكار.

حدَّجه النقيب دالامبير بنظرة إشفاق:

ـ ضدَّ عملاء الإمبرياليَّة. لم نعرف قطّ إلَّا رئيسًا واحدًا يهتمّ بالشعب. أنتم رأيتم الطريقة المخزية التي عامله بها الغرب. وضعوا دميةً مكانه. هل تظنُّون أنَّنا سنقبل ذلك؟

عندئذٍ، استطرد بفظاظة:

ـ بطاقاتكم الشخصيَّة!

ـ لماذا؟ احتجَّ باباكار.

ـ يجب أن نتأكَّد أنَّكم لستم عملاء الأميركان. وأنَّكم لستم جواسيس، وما إلى ذلك!

أمرٌ مضحك! اقترب الشبَّان واستولوا على جميع جوازات السفر، وهم ينبحون:

ـ *السيِّدات هنا، والرجال إلى السيَّارة!*

بعد ذلك، أمسك أحد الفتيان فؤاد من ذراعه، وارتمى آخر على البائس موقار. وأمسك آخران السائق وباباكار من تلابيبهما، وثبَّتاهما.

ـ اعذروني! قال الكابتن دالامبير عندئذٍ، بلباقته المفعمة بالسخرية. إذا سار كلّ شيء على ما يرام، ستستأنفون طريقكم عمَّا قريب، وتقومون بالسياحة التي تشاؤون.

أحد الفتيان سأله مشيرًا إلى آناييس:

ـ *سيِّدي، هناك طفلة؟*

اقترب دالامبير من الطفلة، وأخذها بين أحضانه. داعب وجنتها بلطف:

ـ أجل، إنَّها بنت. ما أجملها!

كأنَّ الطفلة أدركت إطراءاته، ابتسمت له ابتساماتٍ عريضة. جرحت هذه الخيانة باباكار في الصميم.

ـ *هل هي طفلتك*؟ قال دالامبير مخاطبًا جهيرة.

تدخَّل باباكار بقوَّة:

ـ إنَّها ابنتي، آناييس تراوري.

ولكنْ سرعان ما اقتاده الفظُّون، ومعه الرجال الثلاثة الآخرون، نحو سيَّارة جيب أقلعت بقوَّة، وسارت بضع دقائق

بسرعة جهنَّميَّة، ثم توقَّفت، ودومًا بالقوَّة ذاتها أمام بناءٍ حجريّ. على واجهته نُقشت بأحرف سوداء وخطٍّ رديء عبارةُ: «مقرّ القوَّات الخاصَّة». استعاد باباكار إحساسًا مألوفًا سبق أن جرَّبه، وسبق أن عاشه. دفع الشبَّان سجناءهم عبر سلسلة حُجراتٍ مظلمة ونصف خالية إلى ممرٍّ ضيِّق سقفه واطئ بحيث لا يمكن للمرء أن يبقى منتصبًا فيه، قبل أن يقفلوا عليهم بابَ مدخله. خيَّم ظلام دامسٌ فيما شَحَّ الهواء العابق بروائحَ نتنة. للمرَّة الثانية في حياته، وجد باباكار نفسه محرومًا من الحرِّيَّة، من دون أن يعرف السبب فعلًا. ماذا فعل ليستحقّ مرَّتين المعاملة نفسها؟ هذه المرَّة أُضيف إلى شعور الظلم وعدم الفهم قلقه على آنابيس. هذه أوَّل مرَّة يفترق عنها وفي ظروفٍ بالغة القسوة! أغرقه هذا الفراق في نوبة قلق ممزوجةٍ بالحَنَق. ماذا ينوي النقيب دالامبير أن يفعل برضيعة؟ راحت فرضيَّات لا تصدَّق تتزاحم في رأسه. وفي الظلام، بحث موفّار عن يده، وهمس:

ـ لا تخف. هنا، الطفل الصغير شيءٌ مقدَّس. لن يؤذيها أحد.

لم يردّ باباكار. لم يقوَ على ذلك. فجأةً، أخذ السائق يبكي. نحيبٌ مسموعٌ، يفطر القلب، يتخلَّله نشيجٌ ومناجاةٌ لأمّه.

ـ اخرس! صرخ فؤاد. أنت الوحيد الذي يبكي مع أنَّنا جميعًا في ذات القذا. . .

وعندها، انفجر هو نفسه في نحيبٍ مضطرب.

ـ البارحة، مثل كلّ ليلة تقريبًا، حلمتُ بزهران، همس بينما

يقترب باباكار منه متلمِّسًا ويطوِّق كتفيْه بذراعٍ ودودة. كان مستلقيًا على سرير. ظننته نائمًا. اقتربت منه، وعندها، رأيت الدم ينزف من صدره وسقط أرضًا. . . كان ميِّتًا. ميِّتًا. كأنَّ الأمر حدث في الواقع، على ما أتصوَّر.

ـ لا تفكِّر في هذا! توسَّل باباكار. أنت لا تعرف شيئًا عن ذلك.

ـ لا أكفَّ عن لوم نفسي بأنَّ الخطأ خطئي، وأنَّني لو ساعدته حين التجأ إليَّ، لاختلف كلّ شيء!

ـ اسكت! لا تتحامق. إن كان ثمَّة مذنبٌ، فهو هذا الزمن اللعين الذي نُعاني فيه بؤسَ العيش!

بعد برهةٍ، هدأ فؤاد. ولأنَّه خجل من ضعفه بلا شكّ، كرَّ سبَّحةً من الشتائم القاسية. بعد ذلك، مرَّت ساعاتٌ طويلةٌ في الصمت. انتهى باباكار إلى النوم. نومٌ محموم، بلا أحلام. ثقبٌ أسود. الحمد لله، لم تظهر له ثيكلا.

بعنف، فُتِحَ الباب. دخل أربعة شبَّان، متسلِّحين بمصباح يدويّ ضوؤه مبهر، يدفعون عربة. قدَّموا لهم أطباقًا فيها نوعٌ من الثريد الأخضر من دون أن ينبسوا ببنت شفة. وقبل أن يغادروا، أشعلوا شعلةً وثبَّتوها في شقٍّ بالجدار. شعر السجناء أنَّهم جائعون، فغبُّوا وجبتهم الهزيلة. وبعد بضع دقائق، انطفأت الشعلة، وغرقت الزنزانة من جديد في العتمة. وعاد السائق إلى النحيب، لكنْ بنشيج خافت هذه المرَّة. راح يتلعثم بكلماتٍ لا رابط بينها، يمكن تمييزها بأنَّها مزيجٌ من العويل بالفرنسيَّة والكريوليَّة:

ـ *يا الله ارأف بحالي!* ماذا فعلتُ لك؟ لم ألمس المخدّرات في حياتي. أنا متزوِّج وأحترم زوجتي.

هذه المرَّة، لم يتدخَّل فؤاد. مرَّت بضع دقائق أيضًا. فُتِح الباب من جديد. وظهر الشبَّان ذاتهم وهم يصوِّبون بنادقهم بعدائيَّة نحوهم، ويرافقهم معاونان مدجَّجان بالسلاح أيضًا، وسخان وحافيا القدميْن.

ـ *اخرجوا!* صاحوا.

لم يمتثل السجناء بالسرعة الكافية لأمرهم، فدفعوهم أمامهم.

ـ *إلى أين نذهب؟* أُتيح لموقار أن يسأل.

وردًّا على ذلك، تلقَّى دفعة جعلته يتعثَّر. اجتازوا صفًّا من الحُجرات الخالية. وفي نهاية ممرٍّ، ألفوا أنفسهم على شرفة في برودة أوَّل النهار. لم تبدأ الشمس صعودها في السماء الزرقاء الصافية. أمَّا باباكار، فلم يرَ إلَّا شيئًا واحدًا على بعد بضعة أمتار، آناييس بين أحضان دالامبير متَّكئًا على سيَّارة جيب. كان يتحدَّث مع جهيرة التي تضحك بجانب ميريام. بدا النقيب دالامبير مرحًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ولم يبدُ أنَّ آناييس عانت من ليلتها، ووجدت الرعاية هناك حيث كانت. رأت أباها يقترب بابتسامةٍ عريضة، لكنْ لا شيء أكثر، ومدَّت له ذراعيْها. ابتسم دالامبير، وأعلن:

ـ أرجو أنَّ ذلك لم يكن شاقًّا كثيرًا.

لم ينبس أحدٌ بكلمة.

كما أخبرتكم، علينا إجراء بعض التحرِّيَّات، تابع النقيب. تمَّ الأمر. كلّ شيء نظاميّ. يمكنكم متابعة طريقكم.

ضمّ باباكار آناييس بين أحضانه، متنسِّمًا رائحة جسدها الصغير الممتلئ. راوده إحساسٌ أنَّ معجزةً حدثت، وأنَّها نجت من خطرٍ محدق.

جلس النقيب خلف مقود الجيب، بينما تكدَّس الآخرون حوله. صعدت المركبة حتى الحاجز. وهناك كانت السيَّارة تنتظرهم. في تلك الساعة، كان الحاجز خاليًا. وحدها بعض الإطارات لم تزل تحترق وتنشر رائحةَ دخانٍ كريهة. داعب دالامبير آناييس بحنان، وقبَّلَ جهيرة وميريام على خدَّيهما مثل صديقتيْن قديمتيْن. كلّ ذلك أثار غيظ باباكار، فهُرع إلى السيَّارة، غاضبًا من مصافحات رفاقه. جلس السائق مكانه وراء مقود السيَّارة العائليَّة، وأقلعت.

ـ رحلة موفَّقة! هتف لهم دالامبير بلباقته الفريدة الممزوجة على نحوٍ غريب بالغطرسة.

ـ أين قضيتم الليلة؟ سأل باباكار بصورةٍ محمومة.

ـ في منزل النقيب. *يا له من إنسان طيِّب!* اختتمت جهيرة بالكريوليَّة.

بدا ذلك كأنَّه حكمٌ نهائيّ على حدثٍ بلا خطورة إجمالًا، ولن يترك أيّ أثرٍ مزعجٍ في الذاكرة. كان هذا أكثر ممَّا يحتمله باباكار الذي وقعت عليه هذه الكلمات كأنَّها خيانةٌ عظمى. لم يستطع تمالك نفسه، ونهر جهيرة:

ـ كيف يمكنك أن تقولي شيئًا كهذا؟ صاح بعنف. لقد اعتقلنا وحبسنا وعاملنا كسجناء. وجعلني أكابد قلقًا فاتكًا بافتراقي عن آناييس!

ـ أردتُ القول ببساطة إنَّه أحسن معاملتنا، أنا وميريام وآناييس. استقبلنا في بيته، وقدَّم لنا الطعام، طعامًا لذيذًا، وتخلَّى لنا عن غرفته لننام فيها! أوضحت جهيرة على نحوٍ يُثير الرثاء.

هنا انفجرت بالبكاء، لأنَّها لم تزل طفلة. حدَّج موقار باباكار بنظرةِ ملامة. ثم ضمَّ أخته إلى صدره بحنوٍّ. هذه النظرة وهذه البادرة من الحنان سعَّرتا حَنَق باباكار. قطعوا ما تبقَّى من المسافة في صمتٍ ثقيلٍ متوتِّر.

بعد ساعة، وصلوا بلا عائق.

منذ بضع سنين خلت، كانت جاكميل مدينةً أنيقة، وتحظى بتقدير الكثيرين من زوَّار هاييتي. كانت مشهورةً، في آنٍ معًا بمنازل *الزنجبيل*، وبمعارضها الفنِّيَّة ومحلَّاتها الحرفيَّة.

للأسف! الكوارث التي تضرب الجزيرة بكاملها، لم توفِّرها. وكما في كلِّ مكان آخر، لم تعد محطَّة توليد الكهرباء تعمل. لذلك، كنَّا نختنق نهارًا، ونغرق في الظلام ابتداءً من السادسة مساء. في هذه العتمة الملائمة، راحت عصابات من جميع الأصناف تسرح بحرِّيَّة. وعلى أرصفتها التي كان المالكون قديمًا يعتنون بأناقتها ويغسلونها بالماء، جلستْ بعض النسوة القرفصاء يرتدين أسمالًا، ويعرضن أشغالًا يدويَّةً صوفيَّةً بألوانٍ فاقعة، قبَّعاتٍ، خفوفًا، جواربَ، أوشحةً، أو يبعن أطعمةً غير صالحة للأكل.

نزل باباكار ورفاقه كما نصحه رورو ميجي في ألكساندرا. لم يعد هذا النزل العائليّ يُذكر أنَّه من بين أفضل موائد الضيافة في البلد. كان يقدِّم، على وجه الخصوص، لحم خنزير مشويّ يجعل الذوَّاقين يأكلون بنهم. الشاهد الوحيد على عظمته الغابرة هو منتزهه الخلَّاب المُطلّ على البحر بهكتاراته العديدة الذي ظلَّ صامدًا. لكنَّ ألكساندرا كان أقلّ خلاء من أرز لبنان. فبسبب مسبحه، ولا سيَّما برودة منتزهه، نزل فيه عددٌ من المراسلين الأجانب الذين لم يعودوا يستطيعون تحمُّل الحرارة والفوضى في بورت أوبرنس. راحوا يقتلون وقتهم بالنزهات الطويلة تحت ظلال أشجار المنتزه الوارفة من الكاشيمان والتاماران. أو يتجمَّعون على حافَّة حوض السباحة يحتسون الموجيتو في أقداحٍ طويلة مشرومة وغير متجانسة، ظلَّت تشكيلة رائعة من الكؤوس. تفرَّس الجميع في القادمين الجدد بلا تحفُّظ. لم يُضِع باباكار الوقت. ترك الآخرين يكتشفون الغرف، وعاد إلى قسم الاستقبال، وسأل الموظَّفين:

ـ هل يمكنني أن أرى السيِّد ميجي؟

أشار هؤلاء إلى باب مكتبٍ عليه لوحة تحمل كلمة «خاصّ».

كان رورو ميجي، شقيق تي سون، سمينًا حتى إنَّ إليتاه الطافحتان كالفطائر سطَّحتا وسائد أريكته. عرض على باباكار أن يشاركه كنوزَ خزانة مشروباته:

ـ أنا مدمن كحول، لكنَّني مدمنٌ «أرستقراطيّ». في نظري، لا مشروب تافيا ولا مشروب كليران. لا يُسكرني أيّ مشروب.

لديَّ أكثر من مائة صنف من مشروب الروم. روم باربانكورت، بالتأكيد. وأيضًا داموازو ومونتيبيلّو وبولوني غوادولوب. وباكاردي ترينيداد. وأفخر على نحوٍ خاصّ بأصناف المارتينيك. إنَّها الأفضل بلا منازع، البيضاء والمعتَّقة: دوكين، ودوباز، وتروا ريفيير، ولاموني، ونيسان، وكراسو دو ميدوي، وكليمون، وسان جيمس.

حين أجابه باباكار أنَّه لم يقرب الكحول في حياته، حدَّق فيه بتشكُّكٍ ساخر:

ـ في حياتك؟

ـ في حياتي! أكَّد باباكار بوقار.

ـ إذًا كيف استطعت أن تحتمل الحياة؟ سأله رورو وهو يملأ كأسًا دهاقًا من الباربانكورت الشهير.

ـ استطعتُ بصعوبة بالغة! اعترف باباكار. ماذا تريد؟ خُلِقْتُ لأكون طبيبَ توليدٍ هادئ في مستشفى ريفيّ هادئ. وبدلًا من هذا، قذفتني الحياة إلى دروب غير متوقَّعة.

ضحك رورو بدوره، وسرى تيَّار من التعاطف بين الرجليْن.

ـ أنت تبحث عن ستريلَّا أوفيد؟ استأنف رورو. هل لي أن أسألك لماذا؟ لأنَّها لا تستقبل كلّ الناس.

تردَّد باباكار:

ـ لسبب هامّ. كنتُ طبيب شقيقتها رينيت. للأسف! ماتت أثناء الولادة...

بدا رورو مذهولًا:

ـ رينيت ماتت!

هزَّ باباكار رأسه بحزن:

ـ ورجتني أن أُعيدَ ابنتها إلى هنا.

صبّ رورو كأس روم مترعة أخرى، وقال باشمئزاز:

ـ إلى هنا؟ إلى هذا الماخور؟ هل رأيت حال البلد؟

هذا بالضبط ما فكَّر به باباكار الذي كان يزداد ندمًا كلَّ يوم، لأنَّه انساق وراء موڤار. وبعد برهة صمت، استطرد رورو:

ـ وأيضًا، لا نعرف إطلاقًا ما ستكون ردَّة فعل ستريلَّا. طفلة رينيت؟ قد تفتح لها ذراعيْها أو...

ـ أو؟

لم يجب رورو، واكتفى بالتصريح:

ـ سأصحبك لرؤيتها نهاية العصر. لنقل نحو الساعة السادسة. تدَّعي أنَّها رسَّامة، لكنَّني أؤكِّد لك أنَّها لم تمسك في حياتها فرشاةً بين أصابعها.

ـ في حياتها! هتف باباكار متعجِّبًا. هل هذا ممكن؟

ـ احذر منها. أنا، دمَّرت حياتي!

ـ كيف؟

ـ دعني أروي لك ذلك.

حكاية رورو ميجي

علاقتي مع ستريلّا لا تُصَدَّق. ومع ذلك، لن أُخبرك إلّا الحقيقة. كما في المحكمة.

قال كاتبٌ هاييتيّ ذو موهبةٍ فذَّةٍ أنَّ الرسم عندنا أكثر شعبيَّة من كرة القدم. لا أدري هل هذا صحيح. ما أعرفه هو أنَّني أصبحتُ رسَّامًا، أنتَ لم تكن تعرف، أليس كذلك؟ لا أحد يعرف أنَّني أصبحتُ رسَّامًا! لأنَّني لم أستطع أن أصبح لاعب كرة قدم. فأنا ضخمٌ للغاية. كان وزني عند ولادتي نحو ثمانية كيلوغرامات. سَبَّبْتُ لأمِّي تمزُّقًا لم تتعافَ منه قطّ. لذلك تكرهني، وظلَّت تكرهني على الدوام. كنتُ أضحوكة الخدم، وعارًا على العائلة. فرضت عليَّ أمِّي حميةً غذائيَّةً قاسية، عذَّبتني وظلَّت بلا تأثير. وفي أحد الأعوام، أرسلتني إلى عيادة تنحيف في كاليفورنيا، وأخرى في أريزونا. وفي ثانويَّة سان لويس دو غونزاغ، لقَّبني التلاميذ «أسد البحر». كانت حياتي ستغدو جحيمًا لولا الرسم. بدأتُ أرسم في

سنِّ الرابعة. كانت الفرشاة تزهر بين أنامل يديَّ المكتنزتيْن. كانت ترسم وتلوِّن أزهارًا وعصافير وثمارًا وأسماكًا، طبيعةً كاملة مفعمة بالحيويَّة لا تنتمي إلى الواقع، وإنَّما إلى خيالي وحده. وعلى جدران غرفتي، رسمتُ جداريَّاتٍ عملاقةً امتزجت فيها وجوه الفودو التقليديَّة، إرزولي فريدا داهومي، إرزولي دانتور، ليغبا، بابا ليغبا، إيشو، بوجوه أحلامي. لذلك حبستُ نفسي في مطالعاتي. وحين لم أكن أقرأ، كنتُ أرسم، فتتصادم جميع هذه المخلوقات بعضها ببعض، وتُثير صخبًا هائلًا في رأسي.

كانت عائلتي تسكن قرب منزل آل أوفيد، شارع تراڤاي، في حيّ بوا باتات البرجوازيّ والهادئ. كان أبي طبيبًا مثل جان أوفيد، والد ستريلّا ورينيت. راح أهلنا يزورون بعضهم بعضًا من دون أن تربطهم علاقةٌ حميمة. كان جان أوفيد ابن عمّ بابي دوك الشقيق. كان أيضًا شاعرًا. ويقدِّم برنامجًا أسبوعيًّا على التلفاز. وبعد اجتثاث بابي دوك، اقتصَّ الحشدُ المؤمنُ منه ورجمه. في الواقع، أخطأوا. لم يؤذِ جان أوفيد ذبابةً في حياته. جريمته الوحيدة هي أنَّه يكتب شعرًا رديئًا. ولا يُرجَم أحدٌ لهذا السبب.

بعد موت جان، وموت زوجته بعده بفترةٍ وجيزة، عرف الحيّ أنَّ ابنتيْه تختبئان في منزل العائلة مع مربِّيتهما. كانت تونين زنجيَّةً سوداء ودميمةً بما يفوق التصوُّر. مع ذلك، لم نتحدَّث في الأمر قطّ، وتظاهرنا بتجاهله. كنَّا نُغمض أعيننا حين تخرج المربِّية، وتروح وتجيء وتتسوَّق وتنصرف لمشاغلها. كانت المرأةَ الخفيَّة. كنَّا ندَّعي أنَّنا لم نرها. وخلف جدرانهم، كانت ستريلّا ورينيت حاضرتيْن في كلِّ مكانٍ على نحوٍ غريب. كانت هؤلاء

النسوة يغذّيْن جميع الشائعات. يزعمن أنَّ تونين، ولأنَّها قريبة فرانسوا دوفالييه، هي «جنِّيَّة»، روح الموتى، نوعٌ من «الغول». تتحوَّل في الليل إلى طيرٍ جارح، وتقتل لترتوي من الدم. والطبق المفضَّل الذي تعدّه كلّ يوم جمعة هو «المعلاق»، ودم الثور المخثّر، المقطَّع إلى شرائح والمقلي مع قُطع بصلٍ صغيرة.

جسَّدت ستريلَّا رغباتي الجامحة على الرَّغم من شكلي القبيح والمُثير للاشمئزاز. صادفتها مرارًا وتكرارًا خلال وجبات العصرونيَّة للأطفال في القصر الوطنيّ. كانت فتاةً صغيرةً رائعة، سبق أن طفحت بكلِّ سحر الذي سيغدو سحرها. وقعتُ هائمًا في غرامها. وعندما اختفت، لم ينفكّ اختفاؤها يؤجِّج عشقي...

بعد سنواتٍ مديدة، انفتحت أبواب سجنها، وخرجت منه، أجمل ممَّا هي في أحلامي. كانت رقيقةً ومتحفِّظةً ظاهريًّا. تمشي خافضةً بصرها، تمايل خصرها النحيل. كان يستحيل أن أصارحها بحبِّي الملتهب، وأن أُخبرها بما مثَّلته لي خلال هذه السنين، لأنَّني أعرف أنَّها كانت ستسخر من «أسد البحر». لكنَّني نجحتُ في التقرُّب منها، وطلبتُ إذنها في رسم صورةٍ لها. وما أدهشني، هو أنَّها وافقت. لذلك دخلتْ غرفتي التي حوَّلتها إلى محترف، وشاهدت اللوحاتِ المكدَّسة في كلِّ مكان. بعد ذلك، وقبل أن أطلب منها أيّ شيء، خلعت ملابسها وتعرَّت بالكامل، واتَّخذت وضعيَّة.

وأنا مولهٌ حبًّا، التهمتُ نهديْها بناظريَّ، والبقعة الداكنة لعانتها، وأسفل ظهرها النحيل. كنت عاجزًا عن الرسم. لم تعد أصابعي تطاوعني.

كان قضيبي منتصبًا.

ـ ماذا تنتظر؟ قالت.

وجسدي مشتعل، نجحتُ في السيطرة على نفسي، ورسمت ساعتيْن متواصلتيْن. حين انتهيْتُ، ارتدت ثيابها، وانصرفت من دون أن تكلِّف نفسها عناءَ إلقاء تحيَّة الوداع.

عادت في كلِّ صباح، وتكرَّر المشهد نفسه.

ولأنَّه لم يكن لديها هي ورينيت أيُّ قريب يساعدهما، ولأنَّ أنصار دوفالييه أُبيدوا عن بكرة أبيهم، والأوفر حظًّا منهم غادروا إلى الخارج ليتنعَّموا بملايينهم التي كسبوها بطرقٍ غير مشروعة. لم يكن بمقدور ابنتيْ أوفيد الذهاب إلى المدرسة. لذلك ضحَّت ستريلَّا من أجل رينيت التي راحت ترتاد وحدها مدرسة راهبات القربان المقدَّس الخارجيَّة. أمَّا ستريلَّا، فأخذت تعمل ثلاثة أيَّام في الأسبوع كمرشدة مقاعد في سينما باراديسو. وافقتْ أن أرافقها إلى العمل، لأنَّ المدينة خطرة. كانت باراديسو سينما الفنّ ذات واجهةٍ مزخرفة. شاهدتْ فيها أفلامَ الموجة الجديدة، التي أصبحت الآن قديمةً وولَّى زمنها في أوروبا، لكنَّها جديدةٌ على هاييتي. لم أكن أفهم منها الشيءَ الكثير. كانت الحبكة تبدو لي إمَّا واهيةً للغاية أو شديدةَ التعقيد. لكنَّ صوتَ ووجهَ جين مورو كانا يغرقاني في نوبة إثارة. وما عدا ذلك، دارت كلّ حياتي حول ستريلَّا. طفقتُ أرافقها أو أرسمها. وحين تزداد جرأةُ الوضعيَّات التي تتَّخذها، ينتصب قضيبي لدرجة أنَّ الفرشاة تسقط من يدي. فتوبِّخني:

ـ أيُّ نوع من الرجال أنت؟ ألا تعرف أنَّ هذا فنّ!

كانت تنتظرني ضربةٌ قاصمة. كنتُ الشاهد على ولادة علاقتها الغراميَّة مع هنري كريستوف الذي لم يطلق عليه بعد اسم هنري كريستوف الثاني، بالتأكيد. بالمناسبة، هل تعرف من هو هنري كريستوف الأوَّل؟ إنَّه الأوَّل في لائحة قادتنا المجانين الطويلة. تُوِّجَ ملكًا على هاييتي عام 1811 وتلقَّى رصاصةً ذهبيَّة وسط صدره عام 1820. في غضون ذلك، أسَّس في قصر سان سوسي بلاطًا أراده على نمطِ بَلاط ملوك فرنسا.

«برأيك، أنا السيِّد الدوق المغفَّل!»

تعارف كريستوف الثاني وستريلَّا بعد عودة هذا الرئيس ـ المنتخب ـ ديموقراطيًّا ـ الذي ـ أحبّه ـ جميع ـ الناس قبل أن يكرهوه ويحتقروه. كان أحد حرَّاسه الشخصيِّين حين كان منفيًّا في واشنطن. إنَّه فتى وسيمٌ. وسيمٌ جدًّا، واثقٌ من نفسه، بجسدٍ رياضيٍّ متناسق. جاء لحضور فيلم *أربعمائة ضربة* للمخرج فرانسوا تروفو. أظنّ أنَّ العنوان خدعه، وتوقَّع أن يرى فيلم إثارة من نوع *مهمَّة مستحيلة*. أمضى كلّ فترة العرض في الخارج يحكي نكاتًا سخيفةً لستريلَّا.

«مندوبٌ نقابيّ يرغب بقضاء وقتٍ ممتع مع عاهرة. يبحث عن ماخورٍ تكون فتياتُه منتسباتٍ إلى نقابة. في الماخور الأوَّل، يسأل النقابيّ: أريد فتاةً لساعة، لكنَّني أودّ أن أعرف أوَّلًا سياساتكم المتعلِّقة بالعاملات. هل هنَّ منتسباتٌ إلى نقابة؟ ـ لا، يا سيِّدي، لسنَ منتسباتٍ إلى نقابة.

يجب أن أعترف أنَّه، ويا للأسف! كانت ستريلَّا تقهقه لهذه السخافات. هي المتحفِّظة والكئيبة دومًا، لم أرها قطّ بمثل هذا المرح. نحو الساعة السابعة مساءً، جاءت سيَّارة الرئيس الجيب لتأخذ كريستوف ومرافقيه أيضًا. غادر، لكنَّه عاد بمفرده في فترة العرض الأخيرة، الفترة التي تنتهي نحو الساعة الثانية عشرة ونصف بعد منتصف الليل. عادةً، كنتُ أنا من أُعيد ستريلَّا إلى بيتها. هذه المرَّة، لم تكن بحاجةٍ لي. ومع ذلك، رافقتها، أو الأصحّ، تبعتهما إلى بيريستيل، حانةٍ تُديرها ماتيلدا، راقصة سابقة في المولان روج في باريس، وتزعم أنَّها كاهنة فودو. كان يمتلئ حتى منتصفه بالميليشيا أو تمامًا بالسكارى، المدجَّجين بأسلحة آليَّة، مسدَّسات وبنادق ورشَّاشات، يُسرفون في الشراب وهم يتملَّقون الفتياتِ بفظاظة. كانت جميع الميليشيات تعرف كريستوف، ويدعونه «الزعيم».

ما كاد يجعلني أفقد صوابي، هو أنَّ ستريلَّا حين التقت كريستوف، باعدت بين جلساتنا في رسم الوضعيَّات. وبينما كنت أتجمَّد بردًا في انتظارها ذات عصر، هو من ظَهَر، يرافقه من الجانبيْن عنصران آخران من الميليشيا. صوَّبا سلاحهما نحوي، وأجبراني على تسليمهم جميع لوحات ستريلَّا التي في حوزتي.

ـ أيُّها القذر! قالا لي وهما يوسعاني ضربًا.

كان يوجد إجمالًا تسعون لوحة. وأجملها لوحة تُدعى «ستريلَّا في موشَّح كريولي».

بعد أسبوعيْن، نَظَّمَ المركز الثقافيّ الفرنسيّ أوَّلَ معرضٍ

لستريلَّا أوفيد: «صور ذاتيَّة للفنَّانة». ذهبتُ إلى هناك. كان الجمهور متزاحمًا. قدَّم كريستوف الثاني الحلويَّات والمشروبات. وأيضًا تدفَّقت الشمبانيا بغزارة. وحضرت الصحافة المتملِّقة.

لن أُطيل الكلام على اللوعة التي عشتها، بعد حرماني من ستريلَّا وسلبي إبداعي. ومن حسن حظِّي أنَّني اكتشفتُ في تلك اللحظة الكحول، شراب الروم. ساعدني على تفادي الانتحار. فالكحول يحافظ على الدفء، ويُثير الحلم، ويُشبع الرغبات مثل امرأة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد ستَّة أشهر، عادت ستريلَّا.

ـ هذه المرَّة، أُريد لوحاتٍ طبيعيَّة صامتة.

ورمت في وجهي بعض الدولارات.

ـ تدبَّر أمرك. اشتري موزًا أخضر وأصفر، وثمار البابايا، والبرقوق البرِّي، قليلًا من كلّ شيء.

نفَّذتُ ما طلبت.

سُمِّي معرض ستريلَّا الثاني، ودومًا في المركز الثقافيّ الفرنسيّ، «مدار الذكرى». وأُقيم العاشر الشهر الماضي في الأرخبيل، المتحف الوطني. أنت تتساءل لماذا أستمرّ في الإذعان لها؟ لأنَّني مُولَهٌ بها، ولا يسعني أن أرفض لها شيئًا.

تجرَّأتْ العام الماضي على تقديم لوحةٍ موقَّعة باسمها إلى نُزُل ألكساندرا. وفي الحقيقة هو عملٌ لا أدري من رسمه. كان عنوانها «عبور المرآة». ومن حسن حظِّي أنَّني ورثت هذا النُزُل العائليّ من عمَّتي. وإلَّا لمُتُّ من الجوع. لم أرغب قطّ بالرحيل

والنأي بنفسي، والعمل سائق أجرة في مونتريال أو نيويورك. كان ذلك عند تدشين القصر الذي شيَّده هنري كريستوف الثاني، وهي في مكان غير بعيدٍ عن هنا. جاءت بكلِّ أبَّهتها مع حشدٍ كاملٍ من الناس يُحيطون بها.

وصلت ستريلَّا إلى هنا في بداية الأسبوع الماضي. قدَّمت جوائزَ لأطفال المدارس: جائزة المثابرة على الدروس، جائزة الشعر، جائزة الرسم. أكَّد البعض أنَّها تقوم مع هنري كريستوف الثاني بكثيرٍ من الأعمال الخيريَّة. للشباب. والشعب. إنَّها مجرَّد حالة. يكفيهما أن يصلا إلى السلطة ليظهرا حقيقتهما كآكلي لحوم بشر. مثل الآخرين. مثل جميع الآخرين.

حين استأذن باباكار من رورو، اصطدم بموڤار الذي كان ينتظره قلقًا في قسم الاستقبال. أمسكه من ذراعه:

ـ *اسمع! ستريلَّا ليست حسنة السمعة.*

وطبعًا، همَّ بالانخراط في تفسيرات مسهبة. لكنَّ باباكار تهرَّب، وأوقفه بحزم.

ـ لم يعد بوسعي التراجع. تخلَّيتُ عن كلِّ شيء لآتي إلى هنا. ومنذ ذلك الحين، بحثتُ في كلِّ مكان لأجد ستريلَّا.

كان موڤار يشعر بكراهيةٍ لم ينجح في تخفيفها. فسأله بلهفةٍ عمَّا سيحدث إذا آذت ستريلَّا آناييس؟

ـ أيّ أذى؟

لم يستطع الإجابة. فبادر باباكار حينها بنبرةٍ تتصنَّع المرح:

ـ علينا أن نتوخَّى الحذر.

أمضى عصر يوم كئيبٍ بعد وجبةٍ رديئةٍ من المطبخ «الغربيّ» في مطعم ألكساندرا. ومهما يكن من أمر، زادت رواية رورو من قلقه. رفض الانضمام إلى مجموعته في المسبح. كانت أنابيس المرتدية لباس سباحة أصفر تتخبَّط بصخب بين ذراعيْ جهيرة. وانصرف فؤاد والسائق، اللذان تصالحا على ما يبدو، إلى منافسة في الغطس. ماذا سيقول لستريلّا حين سيواجهها؟ أدرك أنَّه في قرارة نفسه لا ينوي الافتراق عن آنابيس إطلاقًا. إذًا، إلامَ ترمي هذه الزيارة؟ وطفق يتساءل إن كان من الأفضل أن يهرب مع طفلته قبل فوات الأوان. وفي غمرة ارتباكه، ذهب واستلقى على كرسيٍّ طويل، واستغرق في النوم بسبب الحرارة. حين استيقظ، كانت الشمس قد أَفلَت، وأصبح المسبح خاليًا، إلَّا من بعض الصحفيِّين الأجانب المتشبِّثين بأقداح الموجيتو. راح باباكار يطرق أبواب غرف أصدقائه من دون جدوى. تبخَّروا! هذا الأسف الشديد هو ما لاحق رورو ميجي إلى قصر كيسكيا.

بدا البناء مهيبًا، مع أنَّ إنجازه لم يكتمل بعد. لم يكن يُشبه بأعمدته اللولبيَّة ودرج مدخله الثقيل قصر سان سوسي، الذي شيَّده في الشمال الملك كريستوف المُصاب بجنون العظمة. الأصحّ أنَّه بدا مبنيًّا على نمط مساكن المزارعين، كتلك التي لم نزل نصادفها، وقد تحوَّلت إلى متاحف، في جنوب الولايات المتَّحدة. اسمه المعلن فوق واجهته هو «صفاء». لكنْ على الرَّغم من هذا الاسم المطمئن، كان يُحيط به جدارٌ سميك تعلوه أسلاكٌ شائكة، بينما رهطٌ تقليديّ من شبَّان مسلَّحين ويرتدون أسمالًا يحرسون بوَّاباته الشبكيَّة. حين تعرَّفوا على رورو ميجي، خفضوا

بنادقهم، وبابتسامات ولدٍ طيِّب أشاروا له بالدخول. خلف الجدار، كان عمَّال الحدائق ما يزالون يعملون على الرَّغم من تأخُّر الوقت. يقتلعون الأعشاب، يقومون بالسقاية، يقلبون التربة ويعزقونها، ويحاولون جاهدين تحويل أرضها الحصويَّة الحمراء إلى حديقةِ أزهار ومرج عشبٍ أخضر. تقدَّمهما جنديٌّ إلى داخل القصر. خالا أنَّهما في متحف فنٍّ تشكيليٍّ ساذج، بسبب اللوحات الكثيرة والمتنوِّعة التي غطَّت جميع الجدران: فيلومي أوبان، سالوناف بازيل كاستورا، أندريه بيير، هكتور هيبوليت. توقَّف باباكار أمام لوحةٍ ممهورةٍ بتوقيع روبير سان بريس، وهو اسم يراه لأوَّل مرَّة، وعنوانها *إرزيلي زيي روج*. تمثِّل اللوحة امرأة ترتدي ثوبًا أحمر، بلون عينيْها ذاته، وبلون الأفاعي التي تنفث حول رأسها. لا يمكن للمرء أن يزيح بصره عن عموم اللوحة الذي يُثير شعورًا بالافتتان الممزوج بالرعب.

ـ هل أُعْجِبُكَ في *إرزيلي زيي روج*؟ قال فجأةً صوتٌ نسائيٌّ من وراء ظهره. الرسَّام مجهول تمامًا. لا يهمّ! بالنسبة لي، هو عبقريّ.

لم يكن باباكار على درايةٍ كافية بالفنِّ، ليُبدي رأيه. استدار، فخفق قلبه بشدَّة:

ـ لسوء الحظّ، استطردت ستريلَّا متظاهرةً أنَّها لم تلحظ الأثر الذي أحدثته، أصبح الرسَّام مجنونًا وانتحر...

ـ بلا شكّ، قال رورو، هل وقع في غرامك، ولم يستطع احتمالَ صدِّك؟

وهنا، قبَّلها بنهم.

كانت ستريلَّا قصيرة،. قصيرة مثل ثيكلا. ورشيقةً ونحيلةً مثل أزيليا. وبتأثير هذا السحر، تذكَّر باباكار مشاعر الحماية اللذيذة التي ولَّدتها هاتان المرأتان في داخله. هل كانت ستريلَّا أجمل من رينيت التي لا تشبهها على الإطلاق؟ لم يكن بوسعه أن يقول ذلك. كانت مختلفة جدًّا. وبقدر ما أغوته رينيت بغطرستها النبيهة والشجاعة، بقدر ما بدت ستريلَّا حنونةً وحالمة. راحت تحدِّجه بنظرةٍ ضبابيَّة مفعمة بالحنين جعلته يذوب.

ـ أخبرني رورو على الهاتف، قالت بنبرةٍ غامضة ـ كأنَّ كلّ هذا كان يزعجها بشدَّة ـ أنَّ لديك أخبارًا عن شقيقتي الصغيرة، المختفية، لا نعرف أين؟ يبدو أنَّها ماتت! تابعتْ بلا مبالاة، أو كأنَّ هذه الأخبار لا تعنيها، وأنَّك آويت طفلها؟ بنت؟ صبيّ؟ ما هو؟

ـ بنت، أجاب باباكار.

ـ لنخرج من هنا، اقترحت ستريلَّا بلا تمهيد. في الصالون الصغير، سنرتاح أكثر في الحديث!

تبعاها على امتداد سلسلة ممرَّات يعمل فيه رهطٌ من العمَّال حتى الحجرة الدائريَّة، المفروشة بذوقٍ رفيع. ثمَّة عددٌ لا يُحصى من الصور الفوتوغرافيَّة انتشرت في أنحاء المكان تعرض المرأة البدينة ذاتها، المكلومة بذقنٍ ممتلئ.

ـ إنَّها أمّ هنري كريستوف الثاني، همست ستريلَّا بورع. إنَّها قدِّيسة.

على أحد الجدران، عُلِّقَتْ صورةٌ شخصيَّةٌ مختلفة تمامًا. صورةُ رجلٍ بدين، يرتدي معطفَ فِراء طويلًا وثقيلًا، بدت ملامحه مألوفة لباباكار.

ـ هذا بوكاسا، قهقهت ستريلًا. كريستوف يعبده.

حينها وضع باباكار اسمًا على الوجه الوديع المُصاب بجنون العظمة، زوج سبع عشرة امرأةً وأبو خمسةٍ وثلاثين ولدًا الذي أطاحت الجمهوريَّة الفرنسيَّة به. لو انتقى كلّ نماذجه، سيكون نموذج حسن أفضل على الرَّغم من كلِّ شيء!

ـ فيما مضى، تابعت ستريلًا، كان معجبًا بفرانسوا دوفالييه. صحيح أنَّ رئيسنا مدى الحياة كان مهيبًا ببشرته السوداء، ونظَّاراته الضخمة الصدفيَّة، وبزَّته الموشَّاة بالحرير الأسود. ولا عجب أن خلط الناس بينه وبين البارون سامدي! لكنَّه في الصميم لم يكن سوى زنجيٍّ بلا أبَّهة تنازل كَرَبِّ عائلة هاييتيَّة حقيقيّ عن السلطة لابنه.

جلسوا على أرائكَ من الجلد الأسود. شلَّ باباكار شعورٌ جديدٌ مبهجٌ ومرعبٌ في آن معًا كان تملَّكه. وحينها، دخل ثنائيّ يحمل صينيَّةً كبيرةً فوقها أقداحٌ ومشروبات. وبرعدة استياء، تعرَّف باباكار إلى النقيب دالامبير. استبدل لباسه العسكريّ ببزَّةٍ أنيقةٍ من القماش الأسمر، وبدا في غاية الارتياح والزهو بنفسه. وإلى جانبه، وقفتْ امرأةٌ في سنِّ النضج لا حاجة إلى تقديمها: تونين. كالحة السواد، بارزة التقاطيع، لها عينان واسعتان تُلاحقانك، تُفتِّشانك، تُقلِّبانك وتُعيدان تقليبك تحت نارهما. ويُعطيها شعرها

المسبل المتماوج حول رأسها تسريحةَ ميدوزا حقيقيَّة. ترتدي ملابسَ ناصعةَ البياض، وتشبه ممرِّضةً أميركيَّة بذراعيْها الغليظتيْن وحذائها المتين. قبَّلت رورو بمحبَّة، وأعلنت من دون أن تتوقَّف عن التفرُّس في باباكار:

ـ لأجلك، يوجد شراب باكاردي فاخر من كوبا.

ـ ما أسوأ حظِّي! هتف رورو متعجِّبًا. يُجيد الكوبيُّون صنع ثورة أكثر من صنع مشروب الروم.

انفجر الجميع ضاحكين. تابع رورو وقد سرَّه تأثيره:

ـ لن أبقى معكم؛ أفضل أن أترككم وحدكم. لديكم أمورٌ هامَّة لتتحدَّثوا بها.

ـ هو، الشقيق الصغير لمرافقي! قالت ستريلَّا وذراعها تطوِّق بإلفة كتفيْ دالامبير. إنَّه وسيم كجدِّه كريستوف الأوَّل الذي كان حبيب هؤلاء السيِّدات، وضمّ بلاطه ما لا يقلّ عن ثلاثمائة وستِّين محظيَّة. وحتى يتخلَّص منهنَّ جعلهنَّ من النبيلات.

ـ يعرف أحدنا الآخر، ردَّ باباكار ببرود، بينما راح دالامبير يضحك ملء شدقيْه.

ـ أُعيد وأكرِّر ذلك، قال لباباكار. يؤسفني ما حدث، وأرجو أنَّ ذلك لم يكن شاقًّا للغاية. لكنَّني لم أقم إلَّا بما يُمليه عليَّ واجبي. للأسف، الحرب بقفَّازاتٍ بيضاء لم تُخْتَرَع بعد.

لم ينبس باباكار بكلمة. وبعد ملء الكؤوس، انسحب دالامبير متأبِّطًا ذراع رورو، الذي تجرَّع مكشِّرًا قدحًا مترعة من الروم الكوبي.

ولمَّا ألفوا أنفسهم معًا هم الثلاثة، التفتت ستريلَّا إلى تونين، وقالت:

ـ السيِّد يحمل لنا أخبارًا عن رينيت.

ـ عن رينيت! هتفت تونين مستغربةً وهي ترسم إشارة الصليب على عجل، وحدَّجت باباكار بعينيْن ياقوتيَّتيْن.

ـ أجل! عرفتها حقّ المعرفة! بدأ باباكر بانزعاج. كنَّا نسكن في البلدة ذاتها، لاترينيل. كنتُ طبيبها. وقمتُ بتوليدها.

رفعت ستريلَّا يدها بسطوة لتسكته.

ـ دعني أتكلَّم أوَّلًا، أمرتْ. ثمَّة أمرٌ أو أمران، عليك أن تعرفهما لتفهم الوضع جيِّدًا. ربَّما بعد سماعهما، ستفقد الرغبة في الحديث معي عن رينيت! تونين تعرف كلّ شيء. لا أسرار بيننا.

ـ دودو، أفضِّلُ أن أنصرف! أكَّدت تونين على عجل، وهي تمدّ يدها الخشنة إلى باباكار.

غاصت ستريلَّا عميقًا في وسائد أريكتها، وبدأتْ حكايتها.

حكاية ستريلَّا

أنا ورينيت، لم تحبّ إحدانا الأخرى فعلًا قطّ. يعتقد الناس أنَّ العاطفة بين الأهل والأخوات طبيعيَّة وغريزيَّة. ليس ثمَّة شيءٌ من هذا على الإطلاق. فحبّ الأمّ وحبّ الأبناء هو جزءٌ من الأساطير تصعب مقاومتها. أخذتُ حَذَري منها منذ أوَّل لحظة رأيتها فيها، حين أمسكتْ تونين يدي: «تعالي وقبّلي أختك الصغيرة.»

كنتُ قد تجاوزت الخامسة من عمري. كانت نائمةً في مهدها الذي كان مهدي، هزيلةً ومثيرةً للشفقة. مع ذلك، سبق أن بدأت تظهر سوء نواياها. بسببها، نزفت أمّي دمًا غزيرًا وخفنا على حياتها. رقدت في فراشها نازفة. وحين قبّلتُها، لم تعرفني. بعد ولادة رينيت، بدأت حياتنا، التي كانت هادئةً حتى ذلك الحين، تتدهور. كان أبي الطبيب الشخصيّ لجان كلود الذي هو أيضًا ابن الخال الشقيق، ابن أحد أشقَّاء أمّه، سيمون أوفيد التي أحبَّتنا حبًّا

جمًّا؛ وكذلك، هي من وهبتنا مربِّيتنا، تونين، ابنة عمّ زوجها فرانسوا دوڤالييه. راح الناس يَرْوُون كلّ أنواع السخافات عن تونين. أشاعوا أنَّها «غيدي أي روح الموت». وكانوا يخافونها لأنَّها قريبةُ دوڤالييه، وعلى الأخصّ لأنَّها فاحمةُ السواد. فالناس تخشى السواد. وعلى كلِّ حال، لا أدري إلَامَ كان سيؤول حالنا أنا ورينيت لولاها!

الأمر اللافت هو أنَّ أبي لم يهتمّ بمهنته على الإطلاق، مع أنَّه مارسها بضميرٍ يقظ. وهكذا، ابتكر دواءً ضدَّ داء العلّيقيّ الجلديّ، هذا المرض الفظيع المنتشر في المناطق الاستوائيَّة الذي أتعب خاله فرانسوا كثيرًا، ولم يُفلح أحدٌ في القضاء عليه. ما كان يهمّه، هو الشِّعر. الشِّعر فقط. قدَّم برنامجًا أسبوعيًّا متلفزًا اسمه «ركن الشعراء». رحتُ أشاهده بافتتان وأنا أصغرُ من أن أفهمه، وقد سحرتني موسيقى كلماته ولباقةُ حركاته. كنت أعبد أبي. العلاقات الممتازة بين ابْنَي الخال والعمَّة حتى تلك اللحظة ساءت بين ليلةٍ وضحاها. وأشاعت الألسنُ النمَّامة أقاويلَ وجدت لدى جان كلود أُذُنًا صاغية. «جان مخلوقٌ غريب. ينقذك بأدويته ويقتلك بشعره.»

اغتاظ أبي ونأى بنفسه. انتهت العصرونيَّات التي كانت تونين تأخذنا إليها، وأيضًا الألعاب في مقرِّ الرئاسة التي كنت أرتدي فيها أثوابًا من الموسلين المبرقش وعلى أطرافها ثلاثة كشاكش. ولم تعد أمِّي تقود كورال سان جان دي لوميير الذي يرتِّل قدّاس الأحد. وراحت جدَّتي، سيمون أوڤيد، التي لم أعرفها إلَّا عجوزًا ضعيفة بسبب جلطة رؤية حادَّة، تأسف لحالنا وتتابع

أخبارنا باستمرار عن طريق تونين.

وسرعان ما حدث الأسوأ. فجأةً، أصبح شعبنا اللطيف للغاية والأخويّ عنيفًا وهائجًا كالمجنون، كأنَّ روحًا شرِّيرة ركبته. تمرَّد ضدَّ جان كلود وطرده من البلد. ثم لاحق أصدقاءه أينما وجدوا، وقتلهم بوحشيَّة، حتى الأبرياء منهم، وحتى من لم يفعلوا شيئًا مثل أبي المسكين. رجموا أبي. وأمِّي التي اعتلَّت صحَّتها كما سبق وأخبرتك منذ ولادة رينيت، لم تقوَ على التحمُّل. فماتت بعد بضعة أيَّام. لم يكن يشوب إخلاصَ تونين وتفانيها أيَّةُ شائبة. لم تكن قريبة خالنا فرانسوا. كانت ببساطة إحدى «خادمات» منزله. حرصتْ على تخبئتنا، وأغلقت علينا باب منزلنا، وربَّتنا ما أمكنها. مكتبة سُر مَن قرأ

لاحِظْ، حين أفكِّر مليًّا في الأمر، ربَّما كانت تلك السنوات هي الأفضل في حياتي. صَدَق سارتر في قوله: الجحيم هو الآخرون. كنتُ محميَّةً من شرِّ الأحياء. كنتُ محصَّنة، كأنَّني لجأتُ إلى رحِمِ أمِّي الآمن. وكانت جميع الأيَّام متشابهةً. بعد الليل المدلهمّ والخانق، يُعلن الفجرُ عن قدومه حين أسمع زقزقة عصافير الكاريب الأخضر، وهي ترفرف من شُجَيْرة ورد إلى أخرى، ومن وردة كايين إلى أخرى. في النهار، كنَّا نُبْقي النوافذ الخارجيَّة والأبواب الكبيرة مغلقة. ومع أنَّني كنتُ أميِّز أيَّ ضجَّة في الخارج، إلَّا أنَّني نسيت حروق الشمس على الجلد، ومداعبات النسمات، ودفء قطرات المطر التي أسمع وقعها على صفيح السطح. كنت أجلس مع كتبي وعرائسي في فُتحة إحدى النوافذ. مع ذلك، قلَّما كنت ألعب. كنتُ أغمضُ عينيَّ، وأتخيَّل

عالمًا يتمتَّع فيه كلُّ طفلٍ بوالديْه وعائلته. بالنسبة لطفلٍ، لا يتحمَّل الأبوَان أيَّ إثم. إنَّهما شخصان عزيزان، هذا كلّ ما في الأمر. وفي أوقات لهوي، رحتُ أُشاهد أفلامَ الرسوم المتحرِّكة اليابانيَّة في التلفاز. أحببتُ فيها هذا العنف المجَّاني كعنف الحياة. ومن سوء الحظّ أنَّ جهاز التلفاز السوني تعطَّل، ولم تعمل تونين على إصلاحه قطّ. هل هو إهمال؟ أم نقصٌ في المال؟ عكفتُ على الكتب. كان يوجد منها صناديق ممتلئة في العِلِّيَّة. لم تكن رينيت هادئةً مثلي. على العكس من ذلك، راحت تزعق وتصرخ مثل ابن عرس. وطفقتْ تصدِّع رأس تونين بنواحها ومتطلِّباتها:

«أريد أن أخرج، أقول لكِ.»

«لماذا لا أستطيع الخروج، أيَّتها الشرِّيرة؟»

«أريد أن ألتقي أطفالًا آخرين، لأنَّ ستريلَّا لا تعرف اللعب.»

«ستريلَّا دومًا مستاءة ومتباكية.»

«أريد الذهاب إلى السينما! لماذا لا نذهب إلى السينما إطلاقًا؟»

ومع أنَّني تمتَّعتُ بإيثارها لي، لكنَّ تونين كانت في غاية الأمومة والصبر تجاه رينيت. حاولتْ جهدها أن تشرح لها الوضع، فلم تتفهَّم رينيت. وحين بلغت العاشرة من عمرها، راحت تتساءل:

«ماذا فعل بابا؟ هل قتلوه لأنَّه كان شرِّيرًا؟»

أمَّا أنا، فلو أنَّني طاوعتُ نفسي، لسحقت رأسها مثل واحد من تلك الصراصير الرهيبة التي تتجمَّع مساءً في مجلى المطبخ.

لا أعرف بالضبط كم عامًا بقينا منعزلات.

على الأقلِّ أربع أو خمس سنوات. وفجأةً، ذات مساء، ضمَّتنا تونين إلى صدرها. وراحت تبكي:

ـ سنخرج لنحتفل نحن أيضًا.

ـ نحتفل بماذا؟ صاحت رينيت.

ـ جرى انتخاب رئيسٍ بشكلٍ ديموقراطيٍّ، أجابت تونين. يُقْسِم الجميع أنَّه لا يُشبه أحدًا آخر قبله، وأنَّ هاييتي ستولد من جديد معه! لا أصدِّقُ شيئًا من هذا. ستتكفَّل السلطة بتغييره. لكن لننتظر، وسنرى.

لذلك، خرجنا لأوَّل مرَّة منذ أزمان وأزمان. راح رأسي يدور كأنَّني شربتُ نبيذًا. كانت جميع المنازل ترفع أعلامًا فوق النوافذ. وطفق الناس يتزاحمون واقفين على الشرفات. مشينا حتى ساحةٍ كبيرة، ساحة شان دو مارس. كانت مكتظَّةً بالناس. وفي وسطها نُصِبَتْ منصَّةٌ مُضاءة بأنوارٍ ساطعة. أذهلتني الموسيقى وأصوات انفجارات المفرقعات، وأبهرتني الألعاب الناريَّة التي تتناثر في السماء. بعض الأشخاص يرقصون، وآخرون يغنُّون. أمَّا أنا، فلم أنسجم. كنتُ خائفةً، خائفة. ولم أشعر بمثل هذا الخوف في حياتي. ألن ينقضّ عليَّ هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة، ويلتهمونني، ويرجمونني كما رجموا أبي؟ لا أدري كم من الوقت استمرَّت هذه العربدة. أخذتُ أشدّ بيدي المتجمِّدة يد تونين. وفجأة، أطبق الصمت على الساحة. كان بوسعنا أن نسمع

طنينَ ذبابةٍ تطير. ظهر رجلٌ قصيرٌ وهزيلٌ فوق المنصَّة. تخفي نظَّاراتٌ كبيرة عينيْه. بعد أن حيّا بيده، أخذ يتحدَّث بالكريوليَّة. لم أفهم كلمة واحدة ممَّا قاله. لأنَّ تونين لم تحدِّثنا قطّ بالكريوليَّة. فقط بالفرنسيَّة الفرنسيَّة. ومن حولي، كان الجميع يفهمون كلامه. وكلَّما توقَّف، خرج من الصدور نوع من تنهيدات الاستحسان. وأصواتٌ منتشية تهتف بما ينبغي أن يكون اسمه، أو بالأحرى لقبه: تكلَّم لساعات.

ونحو منتصف الليل، وضعت تونين حدًّا لعذابي قائلة إنَّه يجب أن نعود إلى البيت، على الرَّغم من صراخ واعتراض رينيت:

ـ أنا، أريد البقاء!

واعتبارًا من ذلك المساء، تغيَّرت حياتنا جذريًّا. فتحنا النوافذ والأبواب. وذهبت رينيت إلى المدرسة. وكم تمنَّيتُ أن أذهب إليها، أنا أيضًا! لكنْ لم يكن لديْنا ما يكفي من المال. يبدو أنَّنا كنَّا نعيش على نفقةٍ خصَّصها دوڤالييه لتونين. وحين كان يضيق بنا الحال، كانت تبيع حليًّا تخصّ أمِّي. فالمدارس في هاييتي باهظةُ الكلفة. ولم يكن بمقدور تونين أن تغطِّي نفقات مضاعفة على المدرسة والطعام واللباس المدرسيّ والكتب والدفاتر. كنتُ الأكبر سنًّا، ومن الطبيعيّ أن أضحِّي. وسرعان ما لاحظنا أنَّ هذه التضحية بلا جدوى. لم تكن رينيت تحبّ المدرسة. على الأقلِّ هذا النوع من المدارس الذي تُديره راهبات، ويُصلَّى ويُعبد الله فيها. كانت مشاغِبةً ووقحة، ودائمة التظلُّم. ولو لم تشفق الراهبات على طفلةٍ يتيمة الأب والأمّ،

لطردنها منذ وقتٍ طويل. في الحقيقة، الأمر الوحيد الذي كان يهمّ رينيت، هو التفتيش في ماضي والديّ. راحت تقضي وقتها تفتح الصناديق المغلقة منذ سنوات والمتكدِّسة فوق بعضها في العلِّيَّة. عثرت على رسائلَ وصحفٍ وصورٍ فوتوغرافيَّة، وكلّ أنواع الأوراق القديمة. راحت تَجْرُدُها بشكلٍ محموم، وتدوِّن ملاحظات مثل رجل شرطة.

ـ أريد أن أفهم! كانت تردِّد. هل كان أبي مستغلًّا؟ قاتلًا؟ قذرًا؟

الفهم؟ ما جدواه؟ ألا يكفي الحبّ؟

في تلك الفترة، راح كلّ شيءٍ يسوء من جديد في البلد. أطاح انقلابٌ عسكريّ بالرئيس المنتخب. ولم يكن ذلك ليفاجئ أحدًا لو لم يتبعه نظامُ إرهابٍ حقيقيّ. لم يُر مثله قطّ. في كلِّ يوم، يُعْتقل مئات الناس ويُسجنون ويُعدمون بلا سبب. آنذاك، هجرتْ تونين، التي كانت في غاية الورع على الدوام، الكنيسةَ الكاثوليكيَّة، ودخلت في طائفةٍ أميركيَّة، «كنيسة المؤمنين باليوم السابع». دخلتُها معها. ورحنا نمشي كلّ يوم سبت حتى دوكول، وهي بلدةٌ صغيرةٌ على شاطئ البحر، كي نصلِّي، وننشد التراتيل، ونتطهَّر، ونطلب الغفران ونطرد الشياطين ونحن نسبح برداءٍ أبيضَ فضفاض. كان ذلك يجعلني أنعمُ بالراحة. وطفقت أحيانًا أرى أبي وأمّي يبتسمان لي عند بوَّابة السماء. أمَّا رينيت، فرفضت بشكلٍ قاطع أن تشارك في رحلات الحجّ تلك. سمَّتها «ترَّهات». برأيها، كنَّا محبطتيْن ومخبولتيْن بسبب الفوضى العارمة السائدة في هاييتي، وأنَّ ما نحتاجه هو النضال بواسطة الالتزام السياسي.

ـ علينا أن نكون صوت البؤساء الذين لا صوت لهم! راحت تؤكِّد بصيغةٍ أشكّ أنَّها استعارتها من إحدى مطالعاتها العديدة.

وحده هذا «الالتزام»، تابعت تأكيدها، سيُعطي معنًى لحياتنا. وهي نفسها قدَّمت نموذجًا، وناضلت في جميع أنواع المنظَّمات: من أجل احترام حقوق الإنسان، من أجل الدفاع عن الديموقراطيَّة، من أجل وقف الاعتقالات التعسُّفيَّة ومحاكمة السجناء السياسيِّين، وهلمَّ جرّا.. وكلّ ذلك ذهب هباءً، ولا جدوى من الخوض فيه.

ذات مساء، جاءت تتراقص أمامي:

ـ أتعرفين؟ لم يكن أبي طبيب جان كلود فقط كما يعتقد الجميع، إنَّما كان أيضًا موضعَ ثقته ومستشاره في جميع القضايا الشائكة بسبب قرابته به. مثلًا، في تمُّوز عام 1980، هو من دفعه إلى اعتقال ذاك الشخص الذي جاء من كوبا، نستور تيبوا. أثارت القضيَّةُ ضجَّةً كبيرة. كان المدعو نستور تيبوا شيوعيًّا يريد أن يعلِّم عمَّال قصب السكَّر «الإضراب». اعتقلوه وعذَّبوه قبل أن يعدموه. كان أبي قاتلًا. مثل جان كلود. مثل فرانسوا دوفالييه. ومثل رافائيل تروخيو في جمهوريَّة الدومينيكان. ومثل باتيستا في كوبا. إنَّ منطقة الكاريبي تنتج أسوأ الديكتاتوريين، لأنَّ شعوبنا في منتهى السلبيَّة، اختتمت حديثها بحذلقة.

لن يسعني القول هل هذه النظريَّة صحيحةٌ أم لا. من جهة أخرى، لم أكن أهتمّ بهذه الأمور. راح جسدي كلّه يغلي من الإهانة الموجَّهة لأبي. كدتُ أنقضّ عليها وأصفعها بسبب ما

قالته. لكنَّني فضَّلتُ أن أُدير لها ظهري. ومنذ ذلك اليوم، توقَّفت عن التحدُّث معها. صرتُ أتجاوزها كما يتجاوز البحر كاييس. بل لم أعد أنظر إليها. لا بدَّ من أنَّ تصرُّفي أخذ يعذِّبها، لأنَّها ليلةً بعد ليلة، راحت تدخل غرفتي مثل نيزك، وتتحدَّث لوحدها. وغالبًا ما توسَّلت إليّ:

ـ واجهي الحقيقة، هيَّا! لماذا لا يستطيع أحدٌ تحمُّل الحقيقة؟ الماضي هو الماضي! أنتِ لستِ مسؤولة عن جرائم أبي وعن طغمته المستغلَّة. ما يهمّ هو أنتِ، أن تعيشي حياةً أخرى.

في أحيانٍ أخرى، كانت تخطب بإسهابٍ حول هذا الموضوع أو ذاك. وفي مساءٍ آخر أعلنت لي فجأة:

ـ أرغب في تغيير اسم عائلتي. لا يمكن الاستمرار في تسميتي أوڤيد. أشعر بالعار من هذا الاسم.

اختنقتُ. تشعرُ بالعار من اسم والديْها! هل هذا ممكن؟ أليس هذا الاسم كنزًا يجب تبجيله؟ عبدها والداي، لرينيت، خلال الفترة القصيرة التي عاشا فيها معها! أخذتُ أتذكَّر بهجة أبي:

ـ انظري ما أجملها. سنسمِّيها «رينيت» وتعني «الملكة الصغيرة»، مثلك، اسمك «ستريلَّا» يعني «النجمة».

وفي مساءٍ آخر، صرختْ بحماسةٍ مفرطة:

ـ أنا مغرَمة. تصوَّري أنَّني تعرَّفت على فتى. شخصٌ مختلفٌ عن صديقك الميليشياويّ السوقيّ، صدِّقيني. يُدعى ليو سان إلوا. هل تعرفين من هو؟

أجل، كنت أعرفه! ليو سان إلوا هو صحفيٌ في راديو ليبرتي، وصل حديثًا من كوبا، وفي غضون أسابيع ذاع صيته! الأكثر تشويقًا أنَّه ينتمي إلى عائلةٍ خلاسيَّة، إحدى العائلات الأشدّ محافظةً في هاييتي، وأفرادها أصدقاء قُدامى لدوڤالييه. لكنَّه تفاخر أنَّه قاطعُ أفكارهم. وأشاعت ألسنةُ السوء أنَّه لم يفعل شيئًا في كوبا سوى ضبط إيقاع الغيتار في أوركسترا ابن تشي. ولم يمنعه هذا من لعبِ دورِ الثائر العظيم. ومن مهاجمة الرئيس. وطفق يؤكِّد أنَّه خيَّب كلّ الآمال، وأنَّه فاسد، وأسوأ من أبي ومن بابي دوك.

وأخذت رينيت تصول وتجول مجاهِرةً عبر غرفتي:

ـ منذ أن رأى أحدُنا الآخر، وقعنا في الغرام. الأمر جدِّي. نفكِّر أن نعيش معًا. لأنَّه ما فائدة أن نتزوَّج في بلدٍ مثل بلدنا يترصَّدنا فيه الموت مع كلِّ خطوة؟ لن أتزوَّج أبدًا.

كان هذا الخبر يبعث على الذهول في بلدنا، فالزنوج والخلاسيُّون قلَّما يتَّفقون ونادرًا جدًّا ما يتزاوجون. انصرفتُ وأنا مذهولةً إلى تحقيقٍ صغيرٍ حول صهري المستقبليّ. علمتُ أنَّه زير نساء. ولا يهتمّ باللواتي وعدهنَّ بالزواج. والأهمّ، علمتُ أنَّ عددًا متزايدًا من الأشخاص المُصابين بخيبة أمل جرَّاء سلوكه الخاصّ يحذِّرونه سياسيًّا.

ازداد سلوك رينيت سخطًا، وارتدت من الآن فصاعدًا قناعَ العاشقة. راحت تتشبَّث بالهاتف لساعاتٍ تتهامس مع صاحبها ليو. وطبعًا، لم تصطحبه قطّ إلى المنزل. كانت تشعر بخجلٍ

شديدٍ منَّا! أعترف أنَّني كنتُ بعيدةً كلّ البُعد عن تخيُّل ما يُحضَّر لنا. جاءتْ ذات مساءٍ، وبريقُ خبثٍ يلتمع في عمق عينيْها، وشرحت لي بانفعال:

ـ أعددنا أنا وليو مشروع حلقاتٍ مسلسلةٍ ستشكِّل حدثًا تاريخيًّا. سنُطلق عليها اسم «الذاكرة المشطوبة»! العنوان ممتاز، أليس كذلك؟

وكالعادة، لم أنبس بكلمة. فتابعتْ:

ـ سنخصِّص الحلقة الأولى عن أبي.

ظننتُ أنَّني أسأتُ الفهم، فاستعدت عادةَ الكلام لأصرخ:

ـ عن أبي!

ـ أجل!

سحبتْ كرسيًّا، جلستْ وشرحتْ لي بتأنٍّ كأنَّها تتحدَّث إلى طفل:

ـ جمعتُ عددًا هائلًا من الوثائق طيلة هذه السنوات. وثائق غير منشورة لا يعرفها الناس. سنكشف خبايا حقبةٍ مثيرة.

جنَّ جنوني:

ـ دعي أبي وشأنه! صرختُ.

وفي الوقت ذاته، هجمتُ عليها، وأمسكتها من خناقها. كدتُ أقتلها لو لم تُهرع تونين راكضةً، بعد أن سمعتْ صرخاتِها وكلّ تلك الفوضى.

نجحتْ بصعوبةٍ بالغةٍ أن تفصل بيننا. كنتُ كالمجنونة.

ورحتُ أصرخ أنَّني سأجلب سكِّينًا من المطبخ لأذبحها. غادرتْ في عزِّ الليل وهي مرعوبة! وبعد بضع ساعات، عادتْ لتأخذ أمتعتها بصحبة ليو الذي رأيته لأوَّل مرَّة. كان خلاسيًّا ناصع البياض. يشبه صورةً لڤيكتور هوغو الشابّ رأيتها في كتاب. الهيئة الملائكيَّة ذاتها. لكنَّ كلماتٍ لا علاقة لها بالملائكيَّة خرجت من فمه:

ـ أيَّتها المشعوذتان القذرتان! تجرَّأتما على تهديد رينيت! ستدفعان الثمن. سنفضحكما على الهواء، وستأتي الجماهير لرجمكما كما رجمت جان أوڤيد.

وعندها، غادرا. ولم أرهما ثانيةً.

وابتداءً من اليوم التالي، أعلن ليو سان إلوا باحتفاليَّةٍ كبيرة انطلاق سلسلةٍ برامجيَّةٍ أعدَّها «من وثائق تُنشر لأوَّل مرَّة قدَّمتها له ابنة أحد أعوان دوڤالييه».

كيف السبيل إلى منعهما، هو ورينيت، من الإيذاء؟ كيف نمنع هذين الأفعوانيْن من بثِّ سمومهما؟ أطالبك أن تصدِّقني. يروون أكوامًا من القصص عنِّي. ليست صحيحة. ما أُخبرك به أنا، أقسم أنَّه عين الحقيقة. إنَّني زوجةٌ لرجلٍ واحد، حتى لو تسلَّيتُ أحيانًا مع رجالٍ آخرين. مثلًا، هذا الخنزير الضخم رورو.

يجب أن تعرف أنَّني في رتابة حياتي عشت أيضًا سعادةً كبيرة، وربَّما أعظم سعادة. أحببتُ وكنتُ محبوبةً أيضًا. وذات يوم، ظهر كريستوف في حياتي الكئيبة جدًّا ليحوِّلها إلى ما يُشبه

حكايةٍ خرافيَّة، إلى سيناريو أكثر تشويقًا من سيناريوهات أفلام السينما التي أعمل فيها. حين اصطحبته إلى المنزل في البداية، لم تكن تونين فعلًا مسرورةً. وجدَتْه فاحم السواد. لا يعرف القراءة ولا الكتابة، أو يكاد. كان طفلًا مهملًا وخادمًا منزليًّا في صغره. ثم ذاب قلبه. لا يمكن لأحد أن يرى كريستوف ولا يحبّه. رفضت رينيت بالتأكيد أن تصافحه وتحدِّثه، لكنَّه لم يعبأ بالأمر. وحتى راح يسخر منه:

ـ أختك، يجب مناداتها الآنسة ثورة!

ستسمعهم بالتأكيد يروون أسوأ الحكايات عن كريستوف. سيقولون لك في البداية إنَّه دجَّال لا صلة له بالأمبراطور الراحل. كذب! أنجب هنري كريستوف الأوَّل أربعة صبيان من زنجيَّة من العامَّة. كانت تُدعى ميرتيل، ومنعها أن تطأ سان سوسي حيث بَلاطه. أكان يخجل بها؟ هل أراد أن يحميها من كلِّ دسائسه؟ لن يعرف أحدٌ أبدًا. على أيِّ حال عند موته، قتلتْ نفسها. ويتحدَّر هنري كريستوف الثاني من ابنها الأوَّل. سيقولون لك إنَّه يتاجر بالمخدّرات والأسلحة. هذا صحيح. وإنَّه يشرب، وهذا صحيح. وإنه يقامر، ويمكن أن يربح أو يخسر مبالغَ هائلة. كلّ هذا صحيح! لكنْ لا يحتاج أحدٌ أن يكون كاملًا حتى يُحبّ. وإلَّا لصار الحبّ مكافأة، وليس معجزة! المهمّ هو أنَّ هنري كريستوف الثاني يحمل قلبًا كبيرًا. لم أصادف قطّ شخصًا يحمل قلبًا مثل قلبه. لديه حسابٌ شخصيٌّ يصفِّيه مع المعاناة والبؤس! لا يمكنني أن أُحصي عدد المدارس والمستوصفات التي أنشأها. في مدينة جيريمي، مسقط رأسه، بنى المدرسة العُليا لحقوق الإنسان. وكلّ

عام، تُمْنَحُ فيه جائزةٌ للديموقراطية. يبدو هذا ساذجًا! يفكِّر طلَّاب الصفوف العُليا في فكر رجلٍ عظيم: توكفيل، مونتسكيو، تشي غيفارا، روبير بادينتر... هنري كريستوف الثاني قويٌّ، وفي الوقت نفسه، رقيق في غاية الرقَّة، ومرح في غاية المرح. حين تعرَّفت إليه، كان عائدًا للتوّ من واشنطن، حيث بقي فيها إلى جانب الرئيس كحارسٍ شخصيٍّ. كان يحلم بالعودة معي للعيش فيها. وطفق يقول لي:

ـ لنترك بؤس هاييتي. لنرحل إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. واشنطن هي حديقة ـ مدينة، مدينة خضراء. على العكس تمامًا من بورت أوبرنس. في الربيع، على امتداد جادَّة ماساتشوستس تُزهر أشجار الكرز اليابانيَّة أزهارًا ورديَّة. وفي الخريف، على العكس، تحمرّ أوراق الشجر بجميع أطياف اللون الأحمر.

كنتُ أهزّ كتفيَّ:

ـ إلى واشنطن؟ وماذا سنفعل هناك؟

ـ توجد مخدِّرات بكمِّيَّاتٍ كبيرة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. كان يضحك. لن أكون عاطلًا عن العمل، ولديَّ علاقاتٌ سابقة!

كان الرئيس وكريستوف يحبَّان بعضهما حبًّا جمًّا. مثل أب وابنه. لكنَّنا لم نتطرَّق إلى ذلك قطّ. لم نتحدَّث قطّ في السياسة. فأنا أكره السياسة والعنف الذي تنطوي عليه. هي من قتلت والديَّ. وبسببها كبرتُ بلا أب ولا أمّ. وحين عرضتْ عليّ رينيت

مشروع برنامجها، لم يكن يسعني إلَّا أن أبكي. تونين هي من نصحتني أن أطلب مساعدة كريستوف. ليساعد بماذا تحديدًا؟ لم أكن أمتلك الشجاعة لقول ذلك. لهذا تحدَّثتُ إلى كريستوف. قبَّلني ورجاني ألَّا أفكِّر في الأمر ثانيةً. تكفَّل بكلِّ شيء.

وبعد أقلّ من أسبوع، أُرْدِي ليو قتيلًا. في وسط ديلماس. تعرَّض جسده للضرب المبرِّحُ، واخترقت رأسه رصاصتان أو ثلاث، جرُّوه على الأرض في القمامة والتراب طيلة نهارٍ بكامله. كان مشهدًا فظيعًا. وعندما حلَّ المساء، تخفَّى والداه وجاءا لأخذه. وهكذا على الأقلِّ، لن يُضلَّ خلوده، هذا اعتقادنا. أحدث ذلك ضجَّةً حقيقيَّةً في هاييتي. وفي انقلابٍ كامل، الأشخاص ذاتهم الذين اعتبروه مدَّعيًا، وحتى دجَّالًا، أخذوا يجدلون له إكليل شهيد. وراحوا يتذكَّرون الشجاعة التي كان ينتقد بها الرئيس، يومًا بعد يوم، في افتتاحيَّاته. وصَوَّرَ سينمائيٌّ أميركيٌّ متخرِّج من هوليود فيلمًا وثائقيًّا من دون أن يستشير أحدًا عنوانه: *الصحفي الكبير*. سيرةٌ ساذجة كانت ستُثير الضحك لو لم تكن حزينةً جدًّا! اتَّهم جميع الناس كريستوف بهذه الجريمة. لعلَّه تصرَّف بأمرٍ منِّي ومن تونين، ولا سيَّما منِّي، حتى يرضيني. سألته وأجابني أنَّه ليس الفاعل. ليس هو. ماذا حدث؟ ربَّما أعطى الرئيس أمرًا لشخصٍ آخر بتصفية هذا الصحفيُّ، لأنَّه لم يعد قادرًا على تحمُّله. ولعلَّ هذا السافل ليو له أعداء آخرون؟ امرأة؟ لم يساورني شكّ في كلام كريستوف!

ارتكبنا أنا وتونين حماقةً بذهابنا إلى جنازة ليو. نحن نؤمن أنَّه يجب احترام الموت عندما يمرّ. اعتبر الناس ذلك استفزازًا.

كان يوجد حشدٌ في بيت آل سان إلوا حيث عُرِضَتْ الجثَّة المرتَّقة قدر الإمكان. تَصَدَّرَتْ رينيت مثل أرملةٍ محزونةٍ، وتظاهرت أنَّها لم ترنا. تهامس الناس وتفرَّسوا فينا، كأنَّنا مجرمتان. أو تجاهلونا. وأكثر ما أثار اشمئزازي، هو نفاق البرجوازيِّين الذين عاملونا مثل منبوذتيْن، وكأنَّ أهلنا وحدهم هم أعوان دوڤالييه في البلد! كأنَّهم هم لم يستفيدوا من سخاء هذا النظام قطّ!

بعد بضعة أسابيع، اختفت رينيت التي كانت تسكن منزل ليو. بحثنا عنها في كلِّ مكان. بل إنَّ آل سان إلوا أوكلوا الأمر إلى وكالة تحقيقاتٍ خاصَّة، متخصِّصةٍ في عمليَّات الخطف التي بدأت عملها المؤسف. بلا جدوى. غادرت رينيت البلد على الأرجح، كما فعل كثيرون غيرها بشتَّى الوسائل الممكنة والتي يمكن تصوُّرها.. في القارب، في السفينة، أو بواسطة الطائرة للمحظوظين! وسرعان ما سرت شائعةٌ أنَّنا دبَّرنا أمر مقتلها هي أيضًا، وأنَّنا تخلَّصنا من جثَّتها بدافع الثأر. إذا كانت لديك أخبارها، فاحتفظ بها لنفسك. لا أريد أن أعرف شيئًا عنها. لقد آذتنا كثيرًا.

وها نحن هنا الآن.

الآن، يتألَّم هنري كريستوف مثل وحش. في البداية، حين خلعت القوى الأجنبيَّة رئيسه المحبوب، أقسم أن يُعيده إلى السلطة. فعبَّأ عصاباتٍ من الشباب المتمرِّدين مثله، وشَطَر البلد فعليًّا إلى نصفيْن. لكنَّه لم يضع في حسبانه وحشيَّةَ وغدرَ ومكائدَ الأميركان. أهلكوا قوَّاته وأقسموا على تصفيته. اليوم، لم يعد أمامه سوى إلقاء السلاح، وتشتيت آخر رجاله. لا أطلب منه إلَّا

أمرًا واحدًا. أن نعتكف في أحد قصورنا حتى نُنهي حياتنا في سلام. هذا القصر هو ما أفضِّله. لكنَّه يقول لي أنَّ لديه عملاً أخيرًا ينجزه. كان الرئيس الموقَّت أعزّ صديقٍ للرئيس المخلوع، ولا يفترق عنه. وبرأيه، تواطأ مع الغربيِّين الذين نفوه. يريد أن يعاقبه على خيانته. كيف؟ لا أجرؤ على التفكير في هذا!

ثمَّة أمرٌ أخير أودّ أن أضيفه. اعذرني على صراحتي.

لاحظتُ الطريقة التي تنظر فيها إليَّ، وأعرف معناها، لأنَّني عرفت الكثير من الرجال. لن أكون لك أبدًا. ولا لأحد. إنَّني زوجة رجلٍ واحد، وحبيبٍ واحد. من جهةٍ أخرى، لا أحبّ الأطبَّاء. إنَّهم موظَّفو الموت.

ـ متى يمكنني أن أُحضر لكِ آناييس؟ سأل باباكار.

تكلَّم على هذا النحو لأنَّ ستريلَّا بلبلته، فلم يعد يدري ما يقول. شعر أيضًا أنَّ ستريلَّا غير مهتمَّة إطلاقًا بابنة أختها، ولا تنوي أن تأخذها معها. لم يُخطئ. زمَّت شفتيْها زمَّةَ مراوغة، وشرحت:

ـ أكره بشدَّة الأطفال برائحة بوْلهم وماء كولونيا بيان إيتر. وصمَّمتُ ألَّا أُنجبهم أبدًا. وفضلًا عن ذلك، غدًا، عند الفجر، سنغادر أنا وهنري كريستوف إلى جوهانسبورغ. سيقابل معلِّمه، من يدعوه أباه. وعند عودتي، سأتَّصل بك.

بدت الآن أنَّها تتعجَّل التخلُّص منه. لذلك استأذنها باباكار على مضض. منذ أعوام، لم يتدفَّق الدم في عروقه، بمثل هذه اليقظة وهذه اللهفة. راح يضطرم رغبةً جامحةً للبقاء قربها

ولقائها. وبينما هو يعبر الممرّ، ظهرت تونين أمامه. توقّفت، وافترَّ وجهها عن ابتسامة:

ـ هكذا إذًا، أنجبت رينيت طفلًا؟ سألته بصوتها الأجشّ.

ـ أجل! ابنة! أجاب وهو يرتعش من خوفٍ جنونيّ.

ـ متى ستحضرها لنا؟ ستريلّا تتعجّل التعرُّف عليها بالتأكيد.

كان الشرر في عينيْها وتعابير وجهها الكئيب تدحض كلامها العطوف.

ـ ستهاتفني حين تعود من جنوب إفريقيا! تلعثم باباكار، وقد استولى عليه ذعرٌ حقيقيّ.

اجتاز الحديقة وقلبه يخفق بشدَّة، واصطدم بمجموعة أفرادٍ مدجَّجين بالسلاح، حرَّاسٌ شخصيّون على الأرجح، يُحيطون برجلٍ شابّ، حافي القدميْن، وقميصه مفتوح، وعُصابةٌ حمراءُ تربط خصلات شعره، بلون أوراق التبغ الصهباء. ابتسم الرجل المجهول بحفاوةٍ، وقدَّم نفسه بتلقائيَّة:

ـ أنا هنري كريستوف الثاني، حفيد الملك كريستوف مهما قيل.

إذًا، هذا رفيق ستريلّا. امتعض باباكار إذ وجده فائق الجمال.

ـ هل زرتَ سان سوسي؟ قال الآخر، وهو يتأبَّط ذراعه بعفويَّة.

اعتذر باباكار. فهو يعمل كثيرًا وليس لديه أوقات فراغ. ومن

جهةٍ أخرى، أخبروه أنَّ هذا الجزء من البلد ليس آمنًا. ألم ينفصل فعليًّا؟

ـ هراء! ليس آمنًا بالنسبة لمن؟ أرعد هنري كريستوف الثاني. بالنسبة للأميركان وأعوانهم! في بلد الخدم والأوغاد هذا، الجميع مذعن لإملاءات الغرب. أمَّا نحن، فلدينا الجرأة على قول لا، والدفاع عمَّا نحبّه. تناهتْ سمعتك العطرة إلى أذنيَّ، استطرد. يبدو أنَّ لديك دارَ أيتام في سان سوليداد، وأنَّك استلمتَ مركز الأمّ تيريزا بعد أن تركه ذلك الخلاسيّ. هل جئتَ من إفريقيا، كما أخبروني؟

ـ أنا قادم من مالي، أجاب باباكار. أصلُ عائلتي من سيغو.

لاحظَ أنَّه تحدَّثَ بزهوٍ عفويّ، وقد أدهشه ذلك. لكنْ من الواضح أنَّه لم يكن لهذا الاسم أيُّ وقعٍ على هنري كريستوف الثاني.

ـ ألا ترغب بالعمل معنا؟ سأل. نحتاج إلى رجالٍ من أمثالك.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ ضحك باباكار. لا أعرف سوى التوليد!

ـ بالتأكيد لا! ما أحاول فعله، هو إعطاء الثقة لشبابنا. ونموذجك قد يلهمهم. أرجوك، عدْ لرؤيتي. ستحدِّثني عن إفريقيا. إنَّها تسحرني. وظلَّت تسحرني دومًا.

عن أيِّ إفريقيا تريد أن أحدِّثكَ؟ فكَّر باباكار. هناك المئات من إفريقيا. إفريقيَّتي المعذَّبة وشهيدة الحروب العبثيَّة قد لا تُعجبك.

كانت سيَّارة دفع رباعيّ تنتظره لتقلُّه إلى ألكسندرا. ومع أنَّ ذعره هدأ، لكنَّ قلبه ظلَّ مكلومًا. فقد عانى للتوِّ أيضًا صدّ ابنة أوفيد ذات السحر الفتَّاك. بداية صدَّته رينيت، ثم ستريلَّا.

من حوله، خيَّم الليل بلون الحبر، وأضاءت مصابيح السيَّارة جذوع الأشجار الملتوية، الشبيهة بحيواناتٍ مذعورة.

كان فندق ألكساندرا مُنارًا كباخرة تبدأ بالمغادرة. وأشارت موسيقى الأوركسترا إلى أنَّ حفلةً راقصة تُقام في القاعة الكبيرة. اكتفى موڤار بالتدخين، موليًا ظهره إلى النافذة، بينما راح فؤاد يرقص ببراعةٍ رقصة الميرنغا مع ميريام. اقترب منه باباكار بخفَّة، وقال له بغضب:

ـ أين كنتم جميعكم؟ وأين ذهبتَ؟

وردًّا على ذلك، هزَّ موڤار رأسه بعنف، وعاد إلى لازمته المكرورة بالكريوليَّة:

ـ *هؤلاء الناس ليسوا طيِّبين. دعونا نغادر هذه المنطقة.*

ـ كلّ هذا ليس إلَّا أقاويل في مجتمع جامح المخيِّلة! بماذا أساءت ستريلَّا وتونين بالضبط؟

أخذ يتساءل الآن هل كان يجب تصديق هذيانات السكِّير رورو. «خنزيرٌ ضخم» كانت ستريلَّا قد قالت. لا شكَّ أنَّها رفضته وهو يثأر لنفسه! أمَّا تونين، فهل هو ذنبها لأنَّها فاحمة السواد وشديدة القبح؟ لعلَّ هذا المظهر المنفِّر يخبِّئ قلبًا من ذهب!

رأى عندئذٍ جهيرة ترقص وقد ضمَّها النقيب دالامبير بحماسةٍ إلى صدره.

في الأيَّام التالية، لم يستطع باباكار أن يمنع نفسه من التفكير بستريلَّا، وعانى وجدًا حقيقيًّا. ومع أنَّه راح يردِّد في سرِّه أنَّ هذا الأمر غير معقول، لكنَّه لم يستفد شيئًا: «الساحرات» لسن فقط زنجيَّاتٍ بعيونٍ زرقاء. فتلك المرأة فَتَنَتْهُ فعلًا!

وفي محاولة منه لنسيانها، أغرق نفسه أكثر من أيِّ وقت مضى في العمل. ولم يكد يجد وقتًا ليلعب مع آنابيس التي جسَّدت حتى تلك اللحظة سعادته. أمَّا أمّه، فراح يزجرها حين تظهر له:

ـ ماما، أنا منهك.

وذات مساء على العشاء، أعلن موڤار:

ـ غدًا، يجب أن يرافقني باباكار مرَّةً أخرى إلى منزل سو فانفان. أخطرتني للتوّ أنَّ لديها أمرًا هامًّا تخبرني به.

باباكار لم يطاوعه قلبه أن يرفض، واكتفى فؤاد برفع ناظريْه إلى السماء.

في اليوم التالي، استقلَّ الثلاثة سيَّارةَ الدفع الرباعيّ الباجيرو، الجديدة تمامًا، التي اشتريت بقرضٍ لتحلّ أخيرًا مكان الشاحنة الصغيرة «أرز لبنان ـ مطبخ متوسِّطيّ متقن». وسرعان ما تركهما فؤاد من دون استئذان، وتوقَّف عند جسكار، أحد أصدقائهم، عامل حدادة فنِّيَّة، يتمتَّع بموهبةِ صناعةِ أشكالٍ رائعة وخياليَّة من الصفائح وعبوات المعلَّبات الفارغة: طيور الطوقان، وحيد القرن، طيور الكركيّ، وفِيَلة وخيولٌ مجنَّحة... كان جسكار حفيدَ أحد أعوان دوڤالييه المشهورين جدًّا، ظلَّ وزيرًا

للداخليَّة فترةً مديدة. أطلق على نفسه اسم جسكار لاميرد، جسكار البراز.

ـ عند موت بابا دوك (فرانسوا دوڤالييه)، كان يحلو له أن يوضِّح، اقتنع أبي أنَّ عهد بابي دوك (جان كلود دوڤالييه) لن يدوم أكثر من عام بسبب غبائه، ولم تكن بلاهته خافيةً على أحد، لذلك نفى نفسه إلى المكسيك، موطن أمِّي الأصليّ. ترعرعتُ هناك من دون أن أسمع بهاييتي إطلاقًا. للأسف، دُعيتُ في سنِّ الخامسة عشرة إلى بطولة رياضيَّة مدرسيَّة في مونتريال. فاكتشفتُ هاييتيِّين آخرين. راحوا يسدُّون أنوفهم عند رؤيتي: «أيُّها القذر، رائحتك تزكم الأنف كرائحة البرا. . .» عندها، علمت بكلِّ جرائم النظام: غرفة التعذيب في القصر الوطني، كان دوڤالييه يراقب فيها المعذَّبين بعينٍ جاحظة وقحة، وميليشيا تونتون ماكوت المؤلَّفة من متطوِّعي الأمن الوطنيّ، جحافل متوحِّشة، يثملها الكحول ورائحة الدم، تبيد عائلات عن بكرة أبيها بالسلاح الأبيض. قرَّرت حينها العودة إلى البلد، لأواجه الجريمة التي ارتكبها أهلي، ولأحاول التكفير عنها.

كان قد وضع نظريَّةً عن الندم والفنّ، تقوم مقام أيّ كلام، وربَّما تُغني عن الكلام أيضًا:

ـ حين عدتُ إلى البلد، أدركتُ أنَّه لا توجد سوى طريقةٍ واحدة «للتكفير»، وهي الإبداع. وإذا كان شعبنا يقاوم الكثير من النكبات، ويواصل العيش والبقاء على قيد الحياة، فذلك بفضل سحر الآلاف من مبدعيه، بعضهم معروف، وآخرون مجهولون. فالفنّ يقاوم جرائم الأنظمة المتعاقبة، وسرقات واختلاسات

الديكتاتوريِّين، وكلّ هذه الوحشيَّة، بروعة الموسيقى والرسم والنحت، ويبدِّد القبح والشرّ.

لم يكن باباكار قادرًا على المشاركة في هذه الأحاديث التي تستهوي فؤاد. فهو رجلٌ عمليّ. التهابات، نزيف حادّ، تمزُّقات عضليَّة، هذا نصيبه. أخذ المقود من فؤاد، وأكمل بقيَّة الطريق حتى مدينة ليوغان. ولسوء الحظّ، لم تكن جوانا موجودةً في ذلك اليوم، ولم يستطع أن يحظى بجلسة تدليك. واضطرّ أن يكتفي بحرق لفافات تبغ تلو لفافات تبغ في حديقة سو فانفان الصغيرة. دام انتظاره فترةً مديدة. ونحو الساعة العاشرة والنصف ليلًا، ظهر موڤار أخيرًا:

ـ سو فانفان تريد رؤيتك! أعلن.

وسبقه إلى حجرةٍ صغيرةٍ، كانت تتصدَّرها وهي لم تزل ترتدي الأحمر، غارقةً في أبخرة البخور ودخان الشموع.

ـ قضيَّة موڤار، شرحت وهي تهزّ رأسها، قضيَّةٌ صعبة جدًّا، جدًّا. من قتلوا رينيت ليسوا أشخاصًا عاديِّين. قتلوها عن بعد، بواسطة أقزام لا يمكن لأحدٍ أن يراهم. يسافرون في كلِّ مكان. اقتادوا رينيت بعيدًا، بعيدًا، بعيدًا جدًّا إلى مكان يكاد يستحيل إعادتها إلى الأرض ثانية. مع ذلك، يمكنني أن أحاول إنجاز هذه المأثرة، لأنَّه لديَّ أصدقاء في جميع كواكب العالم الآخر. لكنْ هذا سيستغرق وقتًا، وعلى الأخصِّ الكثير، الكثير من المال. يجب أن أدفع للوسطاء. وحتى أتابع العمل، أحتاج إلى عشرة آلاف دولار أميركي.

عشرة آلاف دولار أميركي! تساءل باباكار عمَّا إذا كانت سو فانڤان تعتبرهم ثلاثيًّا أبله وغبيًّا وأحمق! فبينما هم يُغطُّون نفقاتهم بجهد، و«الدار» تتداعى تحت وطأة العجوزات، وأطبَّاء التوليد خفَّضوا طواعيةً أجورهم، من أين سيحصلون على عشرة آلاف دولار؟ أميركيّ أو غير أميركيّ؟

حين قفلوا راجعين في سيَّارة الباجيرو، أمسك موڤار ذراع باباكار بحرارة:

ـ ولا كلمة لفؤاد، أرجوك. أعرف أنَّه ليس بوسعك تأمين هذا المبلغ، ولا أطلبه منك. رينيت، كانت زوجتي. وبالتالي، هذه قضيَّتي أنا وأنا وحدي! هذا لا يخصّ أحدًا. سأبحث عن عمل، وأحاول أن أتدبَّر أمري.

ـ وأين تظنّ أنَّك ستجد عملًا؟ ردَّ باباكار. يوجد آلافُ العاطلين في البلد. وجميع الناس يهاجرون.

ـ لديَّ فكرة! أجاب بغموض.

وابتداءً من اليوم التالي، توقَّف عن الاهتمام بالحديقة التي كانت بؤبؤ عينيْه. وراح كلّ صباح يغيب، ولا يعود إلى «الدار» إلَّا عند حلول الظلام.

ـ أين يذهب؟ راح فؤاد يتساءل ساخطًا. وماذا يفعل طيلة النهار؟

ـ يبحث عن عمل.

انتهى باباكار إلى إخباره بكلِّ القضيَّة.

ـ من أين تريدنا أن نحصل على عشرة آلاف دولار؟ قال

الآخر مندهشًا. هل تحسبنا مغفّلين؟

ذات مساء، عاد موقار وقت العشاء، أخذ مكانه على المائدة، وأعلن:

ـ سأغادر إلى لابادي.

ـ وما هي لابادي؟ قال باباكار وفؤاد بالحيْرة ذاتها.

أوضح موقار بأسلوبه الغامض:

ـ إنَّها في الشمال، قرب كاب هاييتان. كلّ شهر، تتوقَّف فيها سفن الرحلات السياحيَّة الأميركيَّة، مكتظَّةً بالسيَّاح.

ـ وعمَّ ستبحث هناك؟ سأله فؤاد.

ـ يوظِّفون الكثير من الأشخاص، ويدفعون لهم بالدولار الأميركي. ثمَّة من يعملون على متن السفن. وآخرون يهتمُّون بالسيَّاح عند وصولهم إلى اليابسة، يصطحبونهم إلى الشواطئ، ويراقبونهم عندما يسبحون، أو يأخذونهم لشراء التذكارات.

ـ أنت لست بحَّارًا، ولا مرشدًا سياحيًّا، ولا منقذًا! قاطعه بابكر بحزم. وفوق ذلك، أنت لا تفهم كلمةً واحدةً إنكليزيَّة. أرجوك يا موقار، لا تتَّخذ أيّ قرار قبل أن تُخبرني.

بعد يومين، ومن دون أن يصغي لأحد، اختفى موقار.

في الصباح الباكر، وبينما كنَّ نائمات، جاء وقبَّلَ شقيقتيْه وآناييس برقَّة بالغة.

ـ لا تنسوني! همس فقط.

أمضت ميريام وجهيرة الأيَّام التالية في البكاء. فالمعلومات

التي استطاع باباكار الحصول عليها لم تكن مطمئنة.

كانت لابادي جيبًا سياحيًّا استأجرته شركة رويال كاريبيان أنترناشونال، ومقرُّها فورت لودرديل في فلوريدا منذ عام 1986 من الحكومات المتعاقبة. وكانت هذه الشركة تدفع للدولة الهاييتيَّة ستَّة دولارات على كلِّ سائح. ومقابل هذا العطاء، لم تبادر جحافل الموت جوعًا إلى إزعاجها. لذلك أُحيطت لابادي بطريقٍ دائريٍّ تجوبه دوريَّات قوَّة أمنيَّة خاصَّة، تساعدها كلاب الدرواس الكوبيَّة.

رحيل موڤار الذي جاء بعد حبَه التعس لستريلَّا، غمر باباكار باليأس. اتَّضح بجلاء أنَّه غير جديرٍ بحماية من يحبّهم. لم يستطع أن يمنع علي من ملاحقة أحلامه الجوفاء والموت على شاطئ لامبيدوزا. ولم يتمكَّن من إنقاذ أزيليا. ولم يفلح في منع موڤار اللطيف والحنون من المضيِّ نحو مستقبلٍ غامض. وفي الليل، راحت الكوابيس تقلقه.

لنتابع موقار في طريقه إلى لابادي.

وهو يؤرجح صرَّته، صعد متن أوَّل سيَّارة بوسطة «الله جبَّار ورحيم»، المكتظَّة مثل الأخريات، أقلَّته إلى غونابيف. لم تشفَ «مدينة الاستقلال» من إعصار العام الماضي، ولم تكن أكثر من كومة أنقاض، يجوبها السكَّان والكلاب الكبيرة، المتضوِّرون جوعًا على حدٍّ سواء. في السوق، نجح موقار على الرَّغم من ذلك في الحصول على خبز وعلبة جبنة «البقرة الضاحكة». للأسف، اضطرّ أن يتخلَّى عن هذه الوجبة البسيطة إلى مجموعة أطفالٍ متسوِّلين لاحقوه وهم يزعقون. ولم يكد يتخلَّص منهم حتى أوشك عجوزٌ يهزّ زبديَّته بضراوة أن يُمسك به. لأوَّل مرَّةٍ في حياته، امتلأ قلبه بشعورٍ قريب من التمرُّد. اضطراره أن يفارق للمرَّة الثانية شقيقتيْه الحبيبتيْن، وفؤاد، وباباكار الذي يبجِّله تبجيلًا فائقًا، والصغيرة آنابيس، طفلة

رينيت التي يعتبرها مثل طفلته، بدا له ظلمًا رهيبًا. لماذا يجب أن تكون بطونُ البعض خاويةً باستمرار وعيونهم دامعة؟ هذه الأفكار التي لم تخطر بباله قطّ حتى ذلك الحين، راحت تصول وتجول في رأسه.

في سيَّارة البوسطة الثانية، واسمها «الإيمان ينجِّي» التي تترجرج نحو كاب هاييتان، اتَّخذ مكانه بجانب رجلٍ منحه الوقت ليجترَّ غضبه الوليد، لأنَّ الرجل لم يتوقَّف عن الشخير، فاغرًا فمه، وكاشفًا عن أسنانٍ تالفة. كان موقار يعرف سلفًا المناظر الخلَّابة، وتزاحم الجبال الموحشة ذات السفوح الجرداء التي تُعتبر في النورد مستودع العَوَز والفاقة. لماذا يعيش البؤس المزريّ في قلب الجمال الخلَّاب؟ راح يتساءل. من المسؤول عن ذلك؟ وما السبيل لعلاجه؟

بلغ كاب هاييتان نهاية النهار، حين كانت الشمس الأرجوانيَّة تتأهَّب للغطس في البحر. كان لموقار في هذه المنطقة خال، يُدعى إيفرم، أخٌ غير شقيق لأمِّه لم يره منذ سنوات، لكنَّه يعوّل عليه أن يستضيفه الليلة. فالدم لا يصير ماءً، أليس هذا صحيحًا؟ خيَّم الليل عليه فجأةً وهو يغذّ السير، ولفحته ريحٌ قارسة اخترقت قميصه القطنيّ. وبلا أدنى توجُّس، سلك طريق سانت ترينيتي، الحيّ الفقير الكبير الذي ينشر أبواغه تحت أطلال قصر سان سوسي. حلم الأمس. وواقع اليوم.

عثر بلا عناء على مكان إقامة خاله في متاهة أزقَّة تحفّ بها أكواخٌ فقيرة، وأكوام موادّ عشوائيَّةٍ مستهلكة. وهذا بوجهه

المراوغ والماكر، لم يتذكَّره حتى دسَّ في راحة يده دولارَيْن أميركيَّيْن أنعشا ذاكرته. لديه زوجة، بولشيري، وستَّة أبناء، جميعهم بنات يشبهن جهيرة وميريام، ما جعل الدموع تطفر في عينيْ موڤار. وحول ما يشبه الوجبة، راح خاله ينتحب بلا توقُّف. لم تعرف هاييتي قطّ إلَّا رئيسًا واحدًا يهتمّ بشعبه، وانظر ماذا حدث له! خيَّب هنري كريستوف الثاني آمال جميع الناس. بعد أن وعدهم بالانتقام له، انظر كيف سحب هذا الجبان قوَّاته من النورد، ولاذ بقصره كيسكيا كلير لأنَّه خاف من الأميركيِّين. ثم أخذ يُمطر موڤار بوابلٍ من الأسئلة. عمَّا جاء يبحث في الكاب؟ حاول أن يشرح له بوضوح فائق لم يسبق له أن مارسه حتى ذلك الحين. جاء يبحث عن العمل في لابادي. علم أنَّ مالكتها شركة رويال كاريبيان أنترناشيونال ملزمةً بتشغيل مواطني البلد للعمل في المطابخ على متن سفنها، والتنظيف، وترتيب مقصورات الركَّاب. هزَّ الخال رأسه. لا يمكن لأحد الدخول إلى لابادي. إنَّها في هاييتي، وفي الوقت نفسه ليست في هاييتي. فالمكان مُحاط بجدرانٍ تعلوها الأسلاك الشائكة المكهربة. ولأنَّ موڤار لم يكن يريد أن يسمع شيئًا، وبدا مصمِّمًا على الرَّغم من كلِّ شيء أن يجرِّب حظَّه، لم يلحّ خاله، واقترح أن يقوما بجولةٍ في شي المارموت، وهي حانة تفتح نهارًا وليلًا وتبيع أفخر أنواع الكليران في البلد. وفي طريقهما، توقَّفا ليأخذا فوي ديودونّيه، صديق. فوي ديودونّيه الذي يسكن غير بعيد ضخمُ البنية، وقد حقن إفراطه في المخدّرات والكحول عينيْه بأليافٍ حمراء. وخرج الثلاثة معًا.

هنا وهناك، كانت بقعٌ ضوئيَّة تُضيء نساءً يجلسن على مقاعدَ

صغيرةٍ، ويبعن أطعمة لا اسم لها. وما خلا ذلك، كان الظلام دامسًا. مكانٌ موحشٌ فعلًا!

وهناك، على طريق المارموت حدث كلّ شيء.

طرح إيفريم وديودونّيه موڤار أرضًا، وسلباه محفظة نقوده التي تحتوي فقط ورقتيْن من فئة الخمسة دولارات أميركيَّة مطويَّتيْن بعناية، وبنطاله الجينز وقميصه الجديد المخطَّط. وبعد ذلك، أوسعاه ركلًا، وألقياه في مجرورٍ فغاص في مياهه الآسنة، وقد تحطَّم عظم صدره.

يا له من مشهد حزين ومؤثّر!

مع ذلك، دعونا لا نُسهب في هذا الأمر. والأجدر بنا أن نتخيَّل الصُّوَر الأخيرة التي تزاحمت تحت أجفان موڤار وهو ينزف دمه وحياته. رينيت في أوَّل مرَّة التقاها فيها في ديسبيراسيون. كانت تجرِّب قبَّعة قشّ كبيرة. أوَّل مرَّة مارسا فيها الجنس معًا. ولقَّبته ليو. وها هي قد عادت الآن من هناك، من مكانٍ لم تستطع سو فانفان العثور عليها فيه، وانحنت فوقه:

ـ أنتظرك! لن نفترق ثانيةً. أبدًا.

مرَّ مقتل موڤار من دون أن يلحظه أحد.

لم تكن الشرطة تطأ إطلاقًا سانت ترينيتي، بؤرة جميع الأخطار. كان بعض مرتزقة هنري كريستوف الثاني يُديرون فيها أوكار قمار غالبًا ما يموت فيها رجال. يثملون فيها، يدخِّنون المخدّرات، ويلعبون كلّ الألعاب الممنوعة. ومن حين لآخر،

تدخلها شاحناتُ جمع القمامة. وكان العمَّال يفضِّلون ألَّا يعاينوا عن كثب ما يجمعونه.

لم تكن أوَّل فعلة شنيعة لإيفريم وديودونّيه. جَنَيا مبلغًا جيِّدًا من بنطال جينز موقار وقميصه، وكذلك ممَّا وجداه في حقيبة ظهره. بنطال من الكتَّان، وقميصان آخران وثلاثة سراويل داخليَّة.

حين بدأ بطن ميريام يبرز قبل أن ينتفخ أمامها، مهيمنًا، مثقلًا بثمرةٍ يحملها، لم يلاحظه باباكار المنشغل بهموم كثيرة. وتتطلَّب الأمر أن يدخل فؤاد ذات مساء، ووراءه الشقيقتَيْن، إلى غرفة باباكار ليُدرك ما حدث.

ـ ولكنَّكِ حبلى! هتف وهو يتفرَّس في ميريام باندهاش.

ـ إنَّه صبيّ! أجابته باعتزاز.

ـ أخ صغير لآناييس! أضافت جهيرة.

وعندها، خرجتا مقهقهتيْن. وظلَّ الرجلان لوحدهما.

ـ من هو أبوه؟ سأل باباكار.

ـ أبوه، هو أنا! أعلن فؤاد بفظاظةٍ تخفي ارتباكه بصعوبة.

لزم باباكار الصمت، لأنَّ الكلمات خانته.

ـ أعرف، أعرف، استطرد فؤاد. لقد صدعتُ لك رأسك

بقصصي مع كوكا، كوكا زوجتي الحبيبة. الحقيقة هي أنَّه من كثرة الاستعمال، صارت كوكا مثل عطرٍ متطايرٍ تبخَّرت رائحته. وكانت ميريام حاضرة هنا برائحة زيت بالما كريستي على شعرها الكثّ، ومذاق قصب الكونغو على بشرتها. لم أكن أطيق الذهاب إلى الفراش وحيدًا. وذات مساء، انهرتُ. في البداية، كان جسدي وحده هو المعنيّ. وبعد ذلك، حلَّ الحبّ.

عُقِدَ قرانُ فؤاد وميريام في الشهر التالي. زواجٌ مدنيٌّ، لأنَّ فؤاد مسلمٌ. وهذا لم يمنع ميريام من ارتداء إكليلٍ أبيضَ فاخر من الدانتيل. وإذا كان فؤاد قد استعدَّ لهذا الاحتفال، فذلك فقط ليُرضي ميريام التي طالما حلمت أن تُدعى بالسيِّدة، وتضع خاتم الزواج في إصبعها. لم يظهر موڤار الذي ما يزالون يأملون به، وهو ما أرخى بظلاله على الأذهان. أين هو؟ بأيِّ عمل شاقّ تورَّط؟

كان السيِّد سان أومير يحتفظ من ماضيه المنهار بعادة الخطابات المسهبة بالكريوليَّة. استدرَّ من الحضور دموعًا وهو يشيد بجمال حبّ جمع لبنانيًّا بهاييتيَّة.

حدث حفل الاستقبال في حضانة «الدار» المزيَّنة بزهورٍ اصطناعيَّة وباقات أغصان شجر مورقة، وأعمال فنِّيَّة حديديَّة أعارها جسكار. لم يكن بوسع باباكار أن يشارك في هذا الابتهاج. بدا له أنَّ فؤاد، مثل موڤار، هجره مقدِّمًا مثالًا يُحتذى في الاتِّجاه المعاكس. تخلَّى عن أحلامه. رمَّم حياته. وتوقَّف عن الركض وراء الوهم.

وُلِد زهران، ابن فؤاد وميريام، بعد أربعة أشهر. صبيٌّ جميل، يزن أربعة كيلوغرامات، تعلو رأسه جزَّةُ شعرٍ شقراء مجعَّدة إلى حدٍّ ما، لا تُشبه الشعر التاهيتي. حضر الأب والخالة ولادته، لأنَّ باباكار لم ينجح في طردهما من الغرفة. وحين انتهت الولادة بسلام، وغسلوا المولود الجديد وقمَّطوه، خرج فؤاد وبابكر إلى حديقة «الدار» الواسعة.

كان المساء ساكنًا وعلى غير العادة، الهواء مشحونٌ برطوبةٍ باردة. لم يستطع باباكار منع نفسه من تذكُّر ولادة آناييس في ليلةٍ ظلماء ومأساويَّة، ولقائه بموقار.

ـ ها أنتَ لبَّيتَ رغباتك! قال لفؤاد. لديكَ كلّ ما يمكن أن تتمنَّاه: زوجة وابن!

ومن دون أن ينتبه إلى نفسه، تحدَّث بسخريةٍ لم تخفَ على فؤاد.

ـ أنت لا تؤمن بما تقول! ردَّ عليه. افهمني جيِّدًا. على نحو ما، أنا سعيد للغاية. ميريام مثاليَّة. شفتني من الهراء الذي كان يعشعش في رأسي. مع ذلك، ثمَّة أمورٌ كثيرة لم أزل غير راضٍ عنها. كنتُ أحلم أن أكون محمود درويش ثانٍ. ولا أستطيع أن أنسى بلدنا المنكوب الممزَّق الذي لم أفعل شيئًا من أجله. أشعر مع كلّ يوم يمرّ أنَّني أخون المعركة التي قادها زهران نفسه.

وبعد صمت، استأنف:

ـ كيف سينظر لي ابني حين يعرف أنَّني اخترت أن أعيش حياةً آمنةً بسيطة في الخارج؟ لا أفكِّر إلَّا في هذا منذ ولادته، وهو ما يؤجِّج ندمي.

«كم نحن معقَّدون! فكَّر باباكار. لذلك لن نكون سعداء أبدًا.»

بعد بضعة أيَّام، جاء فؤاد للقاء باباكار في مكتبه.

ـ هل سمعتَ نشرة الأحوال الجوِّيَّة؟ سأله بلهجة قلقة.

رفع باباكار رأسه.

ـ لا! ماذا يجري؟

ـ إعصارٌ رهيبٌ يقترب منَّا. إنَّه الآن فوق مدينة غونايِيف. وهذه ثالث مرَّة يضربها. ويُتوقَّع أن يضربنا في أيَّة لحظة.

إقامته في الجزيرة المجاورة التي تلقَّت على مرِّ السنين عواقبه المألوفة، عوَّدت باباكار على العواصف المداريَّة والزوابع وسورات غضب الطقس الأخرى. لذلك لم يتأثَّر. لكنَّه اتَّخذ إجراءات الأمان المعتادة. أمضى نهاره يشتري ألواحًا خشبيَّة رقيقة لِيُحْكِم إغلاق الأبواب والنوافذ. تسلَّق سقوف الكتل الثلاث التي تشكِّل «الدار» ليتحقَّق من إحكام سدِّها، وجمع في الأكثر اتِّساعًا، الحضانة، عددًا كبيرًا من الأَسِرَّة والفُرُش. هيَّأ فريق الدعم ـ وغالبيَّته من الأمَّهات الوحيدات مع أطفالهنَّ ما يدعو للتساؤل أين هم الرجال ـ وكذلك جسكار الذي بقي في كوخٍ خشبيٍّ ملتجئًا في «الدار»، لكنَّه لم يتوقَّع أن يأتي هذا العدد من أصحاب المساكن الرديئة إليه طالبين إيواءهم، وأنَّه سيضطرّ إلى تأمين منامة حشد من الرجال والنساء والأطفال المذعورين.

حتى بداية السهرة، لم يحدث شيء. ونجح فؤاد، المُجِدُّ دومًا، بمساعدة ميريام، أن يؤمِّن توزيع الأرزّ وأسماك الرنكة

المدخَّنة. وبعد أن شبعوا، لم يلبث الأصغر سنًّا أن غفوا، بينما راح الرجال يحتسون مشروب الروم والنساء ينشدن التراتيل المعتادة:

«أقرب يا إلٰهي إليك

أستجير بك

الظلام يغشى عينيَّ

لكنَّني أحمل الإيمان...»

قبيل منتصف الليل، هبَّت عاصفة مطريَّة. لم يسبق لها مثيل! سحقت القطرات بحجم كرات البينغ بونغ كلّ ما أصابته. وفي الصباح توقَّف كلّ ذلك تمامًا. لكنْ لم تكن هنالك جدوى من الضغط على أزرار المذياع أو التلفزيون. فالكهرباء، الغريبة الأطوار على الدوام، تلاشت. لذلك كان يستحيل معرفة ما يحدث في غونابيف وبقيَّة البلد. وابتداءً من التاسعة صباحًا، حلَّت الحرارة الكاوية، وظهر قرص الشمس العنيد متوعِّدًا، قاسيًا. خرج فؤاد وباباكار يستطلعان الأخبار، ويسدَّان نقص المؤونة. كانت المتاجر الكبيرة محروسةً كأنَّها معسكر فور كنوكس، وتعجّ بالرجال المسلَّحين، المتأهِّبين لإطلاق النار، لأنَّ حشدًا معدمًا هُرع إلى فروعها لينهب كلّ ما يقع تحت يده. وقد نُهِبَتْ متاجر كارفور وجامبو بكاملها. صادف باباكار وفؤاد السيِّد سان أومير برفقة فريقه البلديّ، جاء ليعاين حجم الأضرار، البالغة فعلًا. لم يعد هنالك سوى أكواخٍ مبقورة، وألواحِ صفيحٍ متناثرة في الشوارع وحطامٍ دعامات. وفي بعض الأماكن، حُفِرَتْ

مستنقعاتٌ حقيقيَّة، ووصلت المياه الموحلة إلى منتصف الجسم.

ـ أمر محيِّر! تذمَّر سان أومير. فيما مضى، كانت الأعاصير أحداثًا نادرة، متباعدة زمنيًّا. وأصبحت الآن أحداثًا يوميَّة. ثلاثة، أربعة في فصل واحد. كأنَّ غونايف لم تعد موجودة. خمسمائة قتيل على الأقلّ، تابع. ناهيكم عن المشرَّدين. هذه المرَّة، هي فعلًا نهاية هاييتي. سنموت جميعًا، وما لم يفلح أنصار دوفالييه في فعله والجنرال سيدراس وطغاة آخرون، سيتكفَّل غضب السماء بفعله.

ثم شكرهما بحرارة على العون الذي يقدِّمانه للمحرومين في المدينة.

ـ إن نجوْنا، سأعرِّفكما على الرئيس الموقَّت. ستريان، إنَّه إنسانٌ يحبّ شعبه!

«ألا يزعم الجميع أنَّهم يحبّونه»، فكَّر باباكار. وأنَّهم يعملون لمصلحته؟ لم يرتقِ حتى إلى مستوى بابا دوك الذي ادَّعى أنَّه يعمل لإعلاء كرامته وإدخاله الجوقة الكونيَّة.

ترك باباكار فؤاد يهتمّ بالمؤونة، وعاد إلى «الدار». عَبَر الشوارع المدمَّرة والمنكوبة. أيُّها الربّ، ماذا سيحدث بعد انتهاء الإعصار! يُفترض مراقبة بناء الأقنية الواجب استخدامها في تفريغ المياه، وقد رأى من الفطنة أن يطلب ذلك من عاطلين عن العمل، يسرُّهم اقتناص الفرصة. على شرفة المبنى أ، كانت جهيرة تراقب آنابيس التي علَّقت عليها كلّ أنواع التمائم منذ زيارتهم إلى جاكميل.

ـ تحسُّبًا من أيَّة أخطار؟ سألها باباكار مغتاظًا بعض الشيء.

ـ الأخطار منتشرة في كلِّ مكان، أكَّدت. لكنَّ العيون لا تراها.

كانت آنابيس تكدِّس بشكل أخرق المكَّعبات الواحد فوق الآخر. بذلت جهدها في التركيز، واكتفت بالزقزقة عند رؤية أبيها:

ـ بابا، بابا!

اتَّكأت جهيرة على الدرابزين غير بعيدةٍ عنها، وبدت حزينةً وبلا حماسة، على غير عادتها.

ـ هل أنتِ خائفة من الإعصار الذي يقترب؟ سألها باباكار بحنوٍّ.

ـ خائفة جدًّا! اعترفتْ. جميع الناس يعتقدون أنَّ الله يريد التخلُّص منَّا!

قال بلهجة مُطَمْئِنَة:

ـ لا أعرف ماذا كان يدور في ذهن الدكتور ميشيل حين أشاد هذا المكان. ليس لدينا ما نخشاه هنا. لا يمكن لجميع إعصارات هوغو في العالم أن تنجح في ذلك!

ـ وأنا قلقة بشكلٍ خاصّ على موڤار، تابعت. مضت ثلاثة أشهر على رحيله من دون أيٍّ خبر.

ضمَّها باباكار إلى صدره، وقبَّلها. وتذكَّر في الوقت ذاته كلماتٍ تفوَّه بها فؤاد: «صارت كوكا مثل عطرٍ متطاير تبخَّرت رائحته. وكانت ميريام حاضرة هنا برائحة زيت بالما كريستي على

شعرها الكثّ» وشعر جهيرة الكثّ، هو أيضًا، يفوح برائحة زيت بالما كريستي. شعرها معذّب، ممسَّد بمكواة الشعر، لكنَّ جبهتها المحدَّبة ووجنتاها المستديرتان تغطِّيهم بشرة رقيقة. ألم تكن السعادة موجودة هنا، في متناول اليد؟ مرَّة أخرى أيضًا، شعر باباكار بالخجل من نفسه، وترك الشابَّة تذهب.

في فترة العصر، اختفت الشمس فجأةً. واحتضنت سماءٌ واطئة مكفهرَّة الأرض. سارع المتهوِّرون الذين يتسكَّعون في حديقة «الدار» بحثًا عن المانغو للعودة إلى الداخل. سدَّ فؤاد وباباكار أصغر فتحات المبنى ث بعناية. أخذ الأطفال يبكون وقد أصابهم الذعر من الظلمة التي خيَّمت. فترتّب إنارة مصابيح الآسيتيلين الكبيرة لتهدئتهم.

لم يلبث الناس أن تجمَّعوا تبعًا لتجانسهم. ذهب باباكار واستلقى على الفراش بجانب جهيرة التي تهدهد آناييس. ذُعِرَتْ الطفلة من غرابة المكان، وكلّ هذه الوجوه الغريبة، فراحت تبكي وتتخبَّط. شعر رغمًا عنه، أنَّه دلف حتمًا في طريقٍ أراد أن يمتنع عنه.

وغير بعيد عنهم، راح كارل الطبيب النمساويّ، ضامًّا حسناءه إليه، يستمع بواسطة جهاز الأيباد إلى موسيقى آرفو بارت، موسيقاره المفضَّل. وأعطت ميريام ثديْها لزهران الذي يرضع بنهم، غير واعٍ للقلق من حولهم، فيما أخذ جسكار يتحدَّث مع فؤاد عن موضوعه الأزليّ: دور ووظيفة الفنّ في المجتمعات المأزومة.

ـ الفنَّان صانع معجزات! أرعد. صانع معجزات شعبه. لذلك نطالب الكُتَّاب أن يكتبوا بالكريوليَّة، اللغة التي ابتكرها شعبهم. ما يلزمنا هو مئات الكُتَّاب من أمثال الكاتب المسرحيّ فرانكتيين.

في رقاده المتقطِّع والمضطرب مثل محموم غلبه النوم، ظهرت أمّ باباكار التي طردها أحيانًا من أحلامه بفظاظة. بدت منهكة ومستسلمة، وعيناها الزرقاوان ذابلتان على نحوٍ غريب:

ـ ما ظننته مستحيلًا حدث، تنهَّدتْ. أنا أفقدك، أفقدك. لماذا ننتهي دومًا إلى فقدان أطفالنا؟

ـ أنتِ لا تفقدينني، يا أمِّي! هتف باباكار مضطربًا. هذا مستحيل. ببساطة، تراكمت عليّ الأشغال. «الدار» عبءٌ ثقيلٌ جدًّا على كاهلي.

تابعت كأنَّها لم تسمعه:

ـ مصيبتك، أكرِّر، هو أنَّك تتورَّط خطأً في الحبِّ، ومع أيِّ فتاة. في البداية أزيليا، ثم رينيت. والأسوأ أيضًا، خادمة الشيطان، ابنة فرانسوا دوڤالييه الفاضلة، ستريلَّا أوفيد. وعمَّا قريب، ستكون هذه الهاييتيَّة الصغيرة، شبه الجاهلة. حسنًا! إنَّها أمٌّ بديلة ممتازة لآنابيس. لا أكثر!

وبعد أن أطلقت هذا السهم، انصرفت، تاركةً ابنها مكلومًا.

يا للظلم! يا للنفاق! كأنَّها لا تعرف أنَّها في الصميم هي المرأةُ الوحيدة التي يحبّها ويفضِّلها. وهنا، تكمن كلّ مصيبته!

مع ذلك، القلب الإنسانيّ فائقُ الغرابة إلى حدٍّ أنَّه لن يتوقَّف

عن إدهاشنا. لم يستطع هؤلاء الرجال والنساء المجتمعين في المبنى ث، وقد لفَّهم القلق جاهلين ما يخبِّئه لهم الغد، أن يمتنعوا عن الصخب والمزاح. راح بعضهم يروي نكاتًا بالكريوليَّة. وأروع مثال عن العولمة، أخذ مجموعة طلّاب في المعهد الفندقيّ حوَّلتهم الأمطار المدرارة بلمح البصر إلى مصفاة، يعزفون على الغيتار، ويقلِّدون مغنِّيًا فرنسيًّا عزيزًا جدًّا على الإذاعة الهاييتيَّة الوطنيَّة: اسمه فرانسيس كابريل.

«حين ترتفع الجدران أمامي

في منزل السيِّدة هوت سافوا سأخلد إلى نومي»

وأبعد من ذلك بقليل، طفقت امرأةٌ تغنِّي أغانيَ فلكلوريَّة. وغدا الجوّ احتفاليًّا.

عندها نهض رجلٌ قصيرٌ متوسِّطُ العمر، وَخَطَ الشيب شعره ولحيته، يرتدي الأسود مثل رجل كهنوتٍ إنكليزيّ، وصرخ بصوتٍ حادٍّ للغاية بلغةٍ فرنسيَّة ممتازة قبل أن يركع:

ـ كفى! كفى! الله هو من يجب أن نصلِّي له! اركعوا!

احتجَّ البعض. لكنَّ الأغلبيَّة أذعنت له على الفور، بل إنَّ بعض الأمَّهات أجبرن صغارهنَّ على الركوع، وضمِّ اليدين ابتهالًا.

تابع الرجل بقوَّة:

ـ هل تظنُّون أنَّنا نعاني كلّ ما نُعانيه صدفة؟ ديكتاتوريُّون يقتلوننا أو يُرغموننا على الهجرة، ولاجئون يغرقون بالآلاف على متن المراكب. ومدارس تنهار فوق رؤوس أطفالنا. والأعاصير،

ثلاثة في فصل واحد. وفيضانات.

ساد الصمت حوله، فأعلن:

ـ هذا لأنَّ الله يئس منَّا. لم تتوقَّف هاييتي عن اقتراف الإثم. أجل، اقتراف الإثم. في البداية، اعتناق ديانة الفودو. ثم الزنا. ثم المخدّرات. ثم كلّ أنواع العنف والنهب. اركعوا، أقول لكم وردِّدوا معي: «باسم الآب والابن والروح القدس...».

لقد طُرح السؤال الحقيقيّ، سؤالٌ ظلَّ بلا جواب. هل كانت الأُمَّة «المثيرة للشفقة» على حدِّ تعبير أحد أبنائها آثمةً؟ وبماذا؟ فعلًا الضحايا هم دومًا آثمون.

ساد الآن مزيج أصوات جميل. وبعد «أبانا»، أنشد البعض:

«الربّ يرعاني

فلا شيء يعوزني حيث يقودني.»

هكذا بدأ الليل الأوَّل. في الفوضى.

مع ذلك، سرعان ما تخامد الضجيج. بدأت الرياح تعصف وقد سبقتها ضوضاءٌ هائلة، بدأت تنبعث من أحشاء الأرض العميقة. عندها احتضن الناس بعضهم بعضًا. قصفت الرياح بقيَّة الليلة. ثم نهارًا وليلةً أيضًا. ثم نهارًا بكامله. ثم ردحًا من الليل التالي. وأخيرًا، هدأتْ تمامًا، وجفَّتْ السيول التي صنعتها العواصف المطريَّة. فتح الرجال والنساء الأبواب وهم يرتعشون وفي آذانهم صمم، وجازفوا بالخروج إلى الشرفة، فلم يتعرَّفوا إلى شيءٍ من حولهم.

الإعصار هو يد الله الغاضبة التي تضرب بلدًا. لذلك تنتزع أوراق شجرة البيبه بيا ورقةً ورقةَ، وتكسر أغصانها، وتقتلع أقوى جذورها، وتحني أضعفها. لا تُميِّز بين فقراء وأغنياء. وبالغضب ذاته، تُحطِّم زوارق النزهة للبرجوازيِّين في المراسي، وأكواخ البؤساء المتداعية في القيعان. وتتسلَّى بتقليب السيَّارات والدرَّاجات الناريَّة التي ظلَّت مركونةً في المرائب. وحين تحطِّم كلّ شيء، وتدمِّر، حينها «يضحك الله».

الأيَّام التالية لأيِّ إعصارٍ تجسِّد معركةَ هرمجدون، معركةَ نهاية العالم التي نتوجَّس منها جميعًا. يسعى كلّ واحدٍ إلى العثور على معالم حياته الماضية، متسلِّحًا بأدواتٍ بسيطة، معاول، دِلاء، ومكانس. حقَّق السيِّد سان أومير معجزةً، ونجح في إيواء جميع المشرَّدين في خيامٍ عسكريَّة. ووجد باباكار الوقت لتقديم نصائحَ طبِّيَّة مجَّانًا إلى النساء الحوامل. كان يعرف أنَّهنَّ يلقِّبنه من

وراء ظهره «بابا لوكو»، أي معلِّم الشفاء والنبات. ولم يكن يعرف هل تحمل الكلمة الكريوليَّة المعنى ذاته الذي تحمله الكلمة الإسبانيَّة. لكنْ هذا سرَّهُ في العمق:

ـ هل يعني ذلك أنَّ الناس يرونني مجنونًا؟ راح يتساءل بنوع من الافتتان. إنَّني ابن زنجيَّة ذات عينيْن زرقاويْن وأب فاشل. من يزيد؟

ردَّدت الصحافة الدوليَّة بكاملها أنَّ هذه الأعاصير المريعة كادت تمسح هاييتي عن خارطة الأرض. وبحسب الأهمِّيَّة التي توليها لهذا البلد البائس، نشرت الصحف هذا الخبر في الصفحة الأخيرة أو على صفحتها الأولى. وحين ذُكِرَت هذه الاضطرابات الجوِّيَّة، فضَّلت صحيفة أومنيميديا، من جانبها، أن تتحدَّث مطوَّلًا عن زعيم عصابة كاريزمي أطلق على نفسه اسم هنري كريستوف الثاني تذكيرًا بالأمبراطور السابق. كان يرفض إلقاء السلاح قبل أن يصفِّي حسابه مع الرئيس الموقَّت، الصديق الحميم السابق للرئيس المخلوع الذي اتَّهمه بالخيانة. وحتى يجعل قرَّاءه يحلمون على نحوٍ أفضل، لم يتردَّد كاتب المقال في تصوير نوع من رجلٍ مثاليٍّ أفسدته المخدّرات والكحول، لكنَّه صادقٌ، صادقٌ للغاية. وسلسلة صور ـ من نمط الصور التي جعلت هذا النوع من الصحافة مشهورًا ـ تمثِّل هنري كريستوف الثاني في ديكور جبليٍّ، يعتمر قبَّعةً على طريقة فيديل كاسترو، مصوِّبًا بندقيَّته؛ أو على العكس، وسط *حفلةٍ* راقية، يرتدي بزَّةً أنيقة ماركة جيورجيو أرماني؛ أو أخيرًا بلباس سباحة مبرزًا عضلاته. وفي إحدى الصور، كان يمدّ ذراعه إلى امرأةٍ فائقة

الجمال، ترتدي ثوبًا لائقًا مزيَّنًا بالمسكوكات اللامعة.

وبقلبٍ منقبض، قرأ باباكار بنهم، وتعرَّف على ستريلَّا في الصور. ما أجملها! كيف أصبحت؟ لم يكن لديْه أيُّ خبرٍ عنها. هل ما زال الزوجان في جوهانسبورغ؟

وبينما راح يعذِّب ذهنه في طرح هذه التساؤلات، أعلن هنري كريستوف الثاني عن عودته إلى البلاد باحتفاليَّةٍ صاخبة.

وفجر ذات يوم، هاجم رجاله القصر الوطنيّ بقذائف الهاون، مستغلِّين الفوضى التي أحدثتها الأعاصير. لم يجدوا فيه الرئيس الموقَّت الذي راح من باب الحيطة والحذر يقضي كلّ ليلة عند عشيقة مختلفة، لكنَّهم حطَّموا كتيبة القوَّات الديموقراطيَّة التي تحرسه. في البداية، رفض الجيش تسليم جثامين الجنود. فقد قتلتهم عصابة هنري كريستوف الثاني في منتهى الوحشيَّة، وارتكبت مذبحةً فصلت رؤوسهم عن أجسادهم، وقطعت أوصالهم، وبقرت صدورهم، ورمتهم على عجلٍ في مقبرة جماعيَّة. لكنَّ يأس أهل الضحايا شجَّعهم. هل نسوا أنَّهم لا يستطيعون اللقاء ثانيةً بمن لا تُقام لهم مراسم جنائزيَّة دينيَّة قبل دفنهم؟ لذلك عسكروا نهارًا وليلًا يصلُّون وينتحبون في محيط القصر الوطنيّ ما اضطرَّ الرئيس الموقَّت إلى التدخُّل. أمر بإخراج الجثث من القبور الجماعيَّة التي كُدِّسَتْ فيها، وتسليمها إلى عائلاتها بأكياس بلاستيكيَّة رماديَّة. تسليم هذا الكيس ترافق مع تسليم شيك بقيمة مئتين وخمسين دولارًا أميركيًّا، يمثِّل راتب آخر شهر للمتوفَّى. لم تجد معظم العائلات بحوزتها مثل هذا المبلغ قطّ، وهذا ساعدهم في مواساتهم بفقد عزيزٍ عليهم.

كانت أيَّام تلك الفترة كئيبة.

لم يصل أيّ خبر عن موڤار، وصارت أسوأ الفرضيَّات مقبولة الآن. راح الندم يتأكَّل باباكار. لأنَّه في النهاية، أَمَا كان يفترض به أن يؤمِّن هذه العشرة آلاف دولار المنحوسة التي طلبتها سو فانفان، لو شاء أن يمنع ذاك الرحيل وذاك الاختفاء؟ أن يقترضها؟ من مصرف؟ من صديق؟ من جسكار مثلًا الذي يجني ذهبًا من أعماله الفنِّيَّة المعدنيَّة؟ وعلى عكس ما توقَّع الجميع، لم تقاوم «الدار» الإعصار. فالرياح التي هبَّت أحيانًا بسرعة تقارب ثلاثمائة وخمسين كيلومترًا في الساعة انتزعت الأسقف، وخرَّبت العبَّارات التي تربط بين المباني، ونجحت في التسرُّب من فجوات ألواح الخشب التي وضعها باباكار ليسدّ الأبواب والنوافذ فخلعتها وطيَّرتها. لذلك، اندفعت المياه بغزارة، وأغرقت الطوابق. أمَّا السيل، فأصبح شلَّالًا حقيقيًّا تجاوز مجراه، وراح يغذِّي الجداول التي تسيل في كلِّ الاتِّجاهات. وصارت التربة الموحلة مغطَّاة بجذوعِ أو أغصانِ الأشجار، وألواح الصفيح، وحطام المفروشات وشتَّى أنواع القمامة. عاش الناس في فوضى وقذارة لن يتخلَّصوا منها قبل أشهر. وفي إحدى الليالي، ازدادت وطأةُ الإحباط على باباكار، وتمدَّد على سريره بكامل ملابسه. فهو لم يذق طعم النوم منذ ليالٍ. وكما في فيلم، راحت الصور تتوالى في رأسه. موڤار تحت المطر يحتمي بورقة شجرة موز، موڤار يبكي رينيت، موڤار وسو فانفان، لكنْ أيضًا وبشكل خاصّ ستريلَّا، التي لا تُشبه الصورة التي التُقطت لها بصحبة زعيم العصابة المسلَّحة، وإنَّما ستريلَّا التي سحرته. سمع صوتَ إغلاق باب غرفة آنابيس

الملاصقة لغرفته، ثم دخلت جهيرة الحجرة.

ـ ماذا تريدين؟ سألها بفظاظةٍ بالغة، لأنَّها لم تكن تشغل أيّ حيِّز في تفكيره.

لم تجب، أسندت ظهرها على الحائط، وظلَّت ساكنة في البداية. ثم زلقت فستانها حتى الأرض، وبقيت للحظات بسروالها الداخليّ وحمَّالة نهديْها القطنيَّة الورديَّة القبيحة، قبل أن تنزعهما بدورهما. وظلَّت ترتدي جمال جسدها الفتيّ الفاسق وحده. باباكار المذهول، المرتعش من شهوة لم يتوقَّعها، نظر إليها صامتًا، من دون أن يستطيع التفوُّه بكلمةٍ واحدة. كانت تُشبه لوحة للرسَّام آنغر أو بوتيشيللي تحتفي بجمال المرأة مع أنَّ بشرتها سوداء. اجتازت الغرفة بثبات، واندسَّت في فراشه. وهناك، عرَّت باباكار بيديْها الحازمتيْن والناعمتيْن، واحتضنته وأرشدت قضيبه، المنتصب، المتأهِّب للإيلاج.

ـ ماذا تفعلين؟ نجح في الهمس.

ـ رأيت موقار الليلةَ الماضية في الحلم، تنهَّدتُ. أخبرني أنَّه سيُسرّ إن مارسنا هذا.

انغمس باباكار في اللذَّة. وعلى النقيض من أزيليا، لم تكن جهيرة عذراء.

«آه تبًّا! قال في سرِّه، وهو مستاءٌ من شعورٍ راوده بأنَّه تعرَّض للخداع. نحن في القرن الواحد والعشرين.»

لم يقلِّل ذلك من متعة اللحظات التالية.

ـ أحببتكَ منذ رأيتكَ أوَّل مرَّة، أكَّدَتْ. منذ ترجَّلتَ من

شاحنة فؤاد الصغيرة. فكَّرتُ: «هذا الرجل لي. أجل، سأكون ربَّة منزله.»

ـ بالنسبة لي الأمر أكثر تعقيدًا! اعترف. رأسي مترعٌ بكلِّ أنواع الصور والذكريات، والأشباح التي لم أفلح في التخلُّص منها.

ـ أعرف، أعرف! قالت بحنان. شرح لي موقار. كانت لك زوجة في إيبرنيا، وقتلوها مع ابنك.

ـ وهل شرح لك موقار كلّ شيء؟ سألها باباكار بحماسةٍ صادقة. هل أخبركِ أنَّ آناييس قد لا تكون ابنتي كما تخيَّلتُ؟

ـ إنَّها ابنتك! أكَّدتْ، وهي تغلق فمه بقبلة. أنت تحبّها كأنَّكَ أنجبتها.

كان يستحيل المقارنة بين أزيليا وجهيرة، لأنَّ أيّ مخلوق لن يسعه وضع إحداهما مقابل الأخرى. كانت أزيليا خجولةً ووجلة، أدرك باباكار ذلك الآن بسبب هشاشة وضعها كامرأة. ظلَّت طيلة حياتها مسحوقةً ومهمَّشةً من الرجال، من والدها وأشقَّائها، وسُلبت حقّ الاختيار واتِّخاذ القرار. لذلك لم تستطع أن تثق بنفسها. أمَّا حالة جهيرة فكانت مختلفة تمامًا. كانت مرحة، وتواجه بابتسامةٍ حالاتِ شرود وصمت باباكار. وعلى الرَّغم من صغر سنِّها، كانت تشعّ قوَّةً وإيمانًا بنفسها متمتِّعةً على الدوام بهبة قراءة العلامات في الطبيعة كما لدى موقار، وهو ما كان يسرّ باباكار ويغيظه في آنٍ معًا: قوسُ قزح يخلع باب الغيوم، ونباتُ الخطميَّة يُزهر من جديد بعد الإعصار، وصقرٌ يجتاز السماء من

اليمين إلى اليسار، وليس من اليسار إلى اليمين. ودَّت لو أنَّها أصبحت موسيقيَّة. وفي المساء، راحت تنيم آناييس بصوتها الآسر الجميل. انضمَّت في الماضي إلى فرقة كورال متواضعةٍ للأغاني الشعبيَّة، أصبحت اليوم مشهورةً في العالم كلّه بعد أن اضطرَّ معظم أعضائها للهجرة إلى كندا. يخطر ببالها أحيانًا أن تلحق بهم، لكنَّها سرعان ما تطرد هذه الفكرة:

ـ قلبي متعلِّقٌ بهذا البلد! تقول.

لم تكن المشاعر التي يكنّها باباكار لها محدَّدة. تارةً يطفح قلبه بالامتنان، ويشكرها على حبِّها لآناييس، وعلى الجوِّ العاطفيّ الذي نسجته حوله. وأحيانًا أخرى، يستيقظ في عزِّ الليل، ويتساءل عمَّا تفعله هذه الشابَّة الجميلة، الممتلئة الجسد، في فراشه!

السلام لا يدوم في بلدنا. هذا معروف. استؤنفت المجازر بقوَّةٍ أكبر. ومع أنَّ هجوم هنري كريستوف الثاني على القصر الوطنيّ فشل، لكنَّه ملأ الرئيس الموقَّت ذُعرًا وهلعًا. فجمع حلفاءه من جديد. وأثناء عمليَّة عقابيَّة، سُمِّيت صراحة «الاستئصال الكامل»، نجحت قوَّاته في محاصرة خصمه في قصر كيسكيا، وأمطروه بوابل من الرصاص مع مرافقته المحبوبة ستريلَّا النائمة بين أحضانه. وإمعانًا منه في التأكيد على عقابه، قتل العشرات من حرَّاسه الشخصيِّين. ولم يعثر أحدٌ على جثَّة تونين في أيِّ مكان، وانتشرت نظريَّاتٌ في غاية الغرابة. إنَّها «غيدي»، روح الموت، أليس كذلك؟ «غيدي» تركت جسدها في أوَّل نعش له؛ ومنذ ذلك الحين، تهيم في الأرض وتمارس شرورها.

تألَّم باباكار ألمًا بلا حدود. ستريلَّا، تلك المرأة التي لم يرها إلَّا مرةً واحدة، ووحيدة، التحقت بمحفل المختفيات الذي يضمّ كلّ اللاتي أحبَّهنَّ. أيُّ قدر محتوم يرافقه؟ وأيّ ڤيروس يحمله سرًّا؟ لم تنزعج جهيرة لأنَّه لم يعُد ينجح في ممارسة الجنس معها، وراحت تقدِّم له منقوعات أعشابٍ خاصَّة لتجعل قضيبه ينتصب.

ـ ثمَّة من يغار منك ويضمر لك الشرّ! أخذت تؤكِّد.

اقتحمت ثيكلا أحلامه عنوةً، لكنَّها ظلَّت في غاية البرود:

ـ أعرف أنَّك لا ترغب برؤيتي الآن. لكنَّني لم أستطع أن أمنع نفسي من المجيء لأحذِّرك. استعدّ لحدث هامٍّ سيُرغمك على مواجهة الحياة التي تعيشها وجهًا لوجه. أنت تظنّ نفسك سعيدًا، أليس كذلك؟

ـ لا، لا أظنّ ذلك! تلعثم باباكار. لكنْ ماذا تريدينني أن أفعل؟

اختفت ثيكلا من دون أن تُجيب.

وبعد يومين، تلقَّى رسالة من مؤسَّسة إيراديكات بوفرتي.

اعتذرت المؤسَّسة بشدَّة، وأوضحت أنَّها لا تستطيع أن تحوِّل إلَّا ثلث إعاناتها الماليَّة التي اعتادت منحها «للدار». ونظرًا للأزمة الشديدة التي تضرب العالم برمَّته، وخاصَّة الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ترى نفسها مضطرَّة للبحث عن شركاء آخرين إن كانت تنوي متابعة نشاطاتها الخيريَّة في هاييتي. وإن لم تفلح في ذلك،

ستجد نفسها مضطرَّةً إلى إقفال المركز وبيعه. ستُعلمه عن تطوُّر الوضع.

واجه باباكار إغلاق المركز لأوَّل مرَّة. هذا يعني أنَّ عليه مغادرة هاييتي! هل تعلَّق بهذا البلد وسيؤلمه مغادرته؟ لا يسعه أن يقول ذلك.

لماذا تصبح أرضٌ ذاتَ يوم وطنًا؟ ليست برودةُ نسمة أو حدَّةُ الشمس أو على العكس رطوبةُ الغابات. إنَّه شيء لا يوصف وغامضٌ، ولا يمكن تعريفه. لكنْ ما بينه وبين هاييتي، يضمّ ما يعتبره الأغلى على قلبه، آناييس وجهيرة وذكرى موڤار، وعلى ما يبدو، حادثٌ لم يحدث بعد. ذلك أنَّها على الرَّغم من معاناتها، كانت هاييتي تظهر حيويَّةً بالغة ومتفجِّرة، تُخيف طبيعتها الغامضة.

أدهشته ردَة فعل فؤاد التي كشفتْ له أنَّ لدى صديقه مشاعر لا يعرفها:

ـ لعلَّ حياتنا الروتينيَّة مهدَّدة! قال فؤاد.

روتينيَّة؟ لم يخطر ببال باباكار استخدام هذا التوصيف! فعلًا كانا يقضيان معظم وقتهما يعملان. وهو لم يعرف عطلةَ نهاية الأسبوع ولا أيَّام أعياد، لأنَّ أرحام النساء لا تعرفها. لكنَّه كلَّما ساعد طفلًا على إبصار النور، راوده شعور لا يَكَلّ بالنصر. كان يسافر معه ويجتاز ذهنيًّا الطريقَ الطويلَ والمتعرِّج الذي سيقوده إلى ساعته الأخيرة. وأيضًا، كلَّما نجح في أن يعهد بيتيم إلى عائلة، يتخيَّله في مسكنه الجديد. لأنَّ هاييتي أضحت أرضًا متميِّزة بالتبنِّي. وأولئك الذين يتحرَّقون شوقًا للأطفال يتشاجرون على

ثمار البؤس، ويغادر المحرومون ليلتحقوا بشطآن الرخاء والهناء. الأسبوع الماضي، غادر طفلٌ إلى لاروشيل؛ وليلة أمس، غادر طفلٌ آخر إلى ميامي.

في خضمِّ القلق الذي يتخبَّط فيه، خطرتْ فكرةٌ ببال باباكار. أليس بوسع الحكومة أن تساعد مركزًا طبِّيًّا، مشهودًا له بالمنفعة العامَّة؟ أقنع فؤاد أن يطلب مقابلة السيِّد سان أومير. منذ الانتخابات الأخيرة، وتحت مُسمَّى غريب «مسؤول التحديث الوطنيّ»، شغل مناصبَ هامَّة. وأصبح القصر الوطنيّ محروسًا حراسة مشدَّدة من مجنَّدين جُدد، فِتْيَةٍ صغار في السنِّ، شبهِ أطفال. نظر باباكار وفؤاد بألم إلى هؤلاء اليافعين، الساذجين والمعوزين الذين يجازفون بحياتهم. استقبلهما السيِّد سان أومير بحفاوةٍ أكثر من المعتاد، في مكتبٍ فخم أثاثه من خشب الأكاجو الهندوراسيّ، المرصَّع بخشب الأبنوس. ابتدرهما بثرثرةٍ وعظيَّة عن إفريقيا التي عليها أن تتبوَّأ بأيِّ ثمن المكانة التي تبوَّأتها في الماضي، والتي أفقدها الاستعمار إيَّاها، والتي هي اليوم حقٌّ لها. بدا ذلك شبيهًا بخطاب حسن، في آخر مرَّة رآه فيها باباكار في إبرنيا. هل يتعيَّن أن يتحدَّث جميع رجال السياسة بالعبارات المستهلكة ذاتها؟

بعد ذلك، أصغى إليهما السيِّد سان أومير بانتباه، وقال:

ـ اتركاني أحدِّث أخي الرئيس بالأمر. إنَّه يحبّكما حبًّا جمًّا، ومعجب بطريقة مساعدتكما للناس في سان سوليداد، خلال الإعصار من دون أن تتوخَّيا شيئًا في المقابل. يودَّ أن يقلِّدكما وسام الاستحقاق الوطنيّ، لكنَّه بسبب سفره المستمرِّ إلى كلِّ

مكان لاستعادة سمعة هاييتي المشوَّهة، لم يجد بعدُ وقتًا لهذا الاحتفال.

بعد بضعة أيَّام، اتَّصل هاتفيًّا. أخوه، الرئيس، يعرض على باباكار منصبًا إداريًّا في وزارة الصحَّة. وعلى فؤاد، يعرض قلنسوة رئيس طهاة القصر الوطنيّ الذي تُقدَّم فيه وجباتُ عشاءٍ لمرَّات عديدة في الأسبوع، تجمع رجال الأعمال الأجانب الذين يُضاهي عددُهم عددَ رجال أعمال عهد فرانسوا دوڤالييه. ندَّت عن فؤاد وباباكار البرطمة ذاتها. فضَّل كلاهما البقاء بعيديْن عن السلطة. وفؤاد بشكلٍ خاصّ، لم يرغب بالوجود يوميًّا في القصر الوطنيّ.

ـ أنا لست موظَّفًا! تذمَّر باباكار. ماذا سأفعل في مكاتب وزارة!

لذلك قرَّرا البدء ببرنامج ادِّخار يضمن استمرار «الدار». للأسف، كما هو معروف، الحياة أتانٌ لا تفعل إلَّا ما يحلو لها. وكلّ ما فعلاه انقلب ضدَّهما.

قدَّمهما جسكار إلى أوتو، مثله، حفيد أحد وزراء دوڤالييه، عاد إلى البلاد حتى «يكفِّر» عن جرائم جدِّه. كان يُدير برنامج «لافونير، المستقبل»، يموِّله أثرياء شعروا بعذاب الضمير لحالة الناس. وبناء على نصيحته، الموت هو في الروح، عهدَ باباكار بأطفاله الصغار الأثيرين لديه إلى ميتم يُديره قساوسةٌ كاثوليك جاؤوا من البرتغال. ثم أجَّرَ هو وفؤاد المبنى ث من «الدار» لرجلٍ كوريّ يريد افتتاح معهد لغات. ونتيجة لذلك، تضاءل عدد الوجبات المُراد تحضيرها، فترك فؤاد أمرَ المطبخ لميريام

وحدها، وغادر «الدار» بدوره. تولّى إدارة تورين، المطعم الفلسطينيّ الوحيد في الجزيرة، وربَّما في المنطقة. تأسَّس بقوَّة منذ سنوات. مالكته، ربّوب، ذهبت للاستمتاع بتقاعدها في سان مارتان وإنفاق ثروة جنتها بنزاهة، وكانت قد شاهدت قبل عشرين عامًا زوجها وابنيْها يُقتلون في أثناء عمليَّةٍ إسرائيليَّة سُمِّيت «السلام للجليل».

سبق أن قلنا ذلك، الحياة لا تفعل إلَّا ما يحلو لها، وسيكون لكلِّ هذه التغييرات عواقبُ وخيمة. وبينما زاد اختفاء موڤار القرب بينهما في البداية، لم يعد فؤاد وباباكار يلتقيان. صار الأوَّل ينهض ويغادر مع مطلع الفجر، ولا يعود إلى «الدار» إلَّا بعد أن يُطعم آخر زبائن تورين. انتهت المسامرات الطويلة، ومطالعة القصائد المفضَّلة.

ومع أنَّ الأمور لم تتدهور إلى الأسوأ، إلَّا أنَّ كارل، أحد الأطبَّاء، اضطرَّ للعودة إلى بلده. اكتُشف أنَّه مصابٌ بمرضٍ عصبيٍّ خطير. وترك وراءه زوجة متعة وثلاثة أبناء زنا، وجميعهم بلا مُعيل.

ألفى باباكار نفسه غارقًا في العمل. وبين الولادات، كان ينهكه البحث عن الأدوية والتموين في الأسواق، ويظلّ عاجزًا عن ممارسة الجنس مع جهيرة. يداخله شعورٌ عميق بالذنب، راح يتساءل أيّ نوع من الرجال هو. بدت له حياته الجنسيَّة كئيبةً وبلا أَلَق.

اقتنعت جهيرة وميريام الآن أنَّ موڤار مات. غادر منذ أكثر

من ستَّة أشهر، ولم يرسل أيّ خبر. تعرَّفتا إلى شخصٍ يُدعى ديمتري، أحد الناجين من لابادي. حاول التسلُّل إلى الجيب الآمن من دون إذن ليبيع لوحاته التي أحبَّها السيَّاح للغاية. وحين رصدوه، دان في نجاته لسرعة ساقيْه في الجري. وهو يظهر الندبة الناتجة عن رصاصة اخترقت كتفه، أكَّد أنَّه عند مرور أيّ سفن نزهة أميركيَّة، لا تتردَّد قوَّات الأمن في قتل كلِّ من يحاول الاقتراب منها. وكانوا بعد ذلك يلقون الجثث في قبر جماعيٍّ، بلا أيَّة إجراءات أخرى. فيما مضى، كان يوجد فعلًا في لابادي مكتبُ تشغيل تابع لرويال كاريبيان أنترناسيونال. وكانت الشركة توظِّف مئات الخدم الهايتيِّين في الرحلات البحريَّة. ولأنَّ آلاف العاطلين عن العمل تهافتوا عليه وهُرعوا إليه من كلِّ أنحاء البلد، ما أفضى إلى أحداث شجارٍ وعنف، أغلقوه ونقلوه إلى فور لوديردال.

ـ إذًا، هتف باباكار متشبِّثًا بهذا الأمل الضعيف، لعلَّ موفار غادر إلى فور لوديردال!

ـ في هذه الحالة، كان سيراسلنا، ردَّت جهيرة. إلَّا إذا كانت سفينته غرقت وكنَّا سنعرف ذلك من الصحف.

عثرت هي وميريام حينئذٍ على المدعوَّة سو أوفرازي، وهي نموذج أقلّ تكلفة من سو فانفان. وعلى الرَّغم من الجلسات التي لا تُحصى حول الشموع، بين روائح البخور، لم تفلح في نفي موت موفار ولا في تأكيده!

حينذاك، بوغتوا بزيارة النقيب دالامبير المفاجئة.

ذاك الأربعاء كان أربعاءً سيِّئًا. لم يستطع باباكار إنقاذ جنين وسحبه متصلِّبًا ومزرقًّا من رحِم أمِّه. وهذه الأخيرة لم تكد تبلغ من العمر الخامسة عشرة، كانت محتارة بين الارتياح والتظاهر بالحزن. مع ذلك، سيدوم هذا الارتياح لفترةٍ قصيرة. ولن تلبث أن تحمل من جديد وتتابع طريق الأمومة. لم يستطع باباكار بعد قضائه كلّ هذه الأعوام في التوليد أن يعتاد على هذه الفضيحة التي هي موت طفل. اجتاز مكتئبًا الحديقة الواسعة التي أصبحت تُثير الرثاء منذ الإعصار واختفاء موقار. لم يكن قطّ مرهف الحسِّ هكذا إزاء المظهر المهمل، وحتى الكئيب الذي بدا عليه «الدار».

كان شابٌّ جالسًا على شرفة المبنى أ، يرتدي بزَّةً عسكريَّة، حاسر الرأس، وخصلاته المتشابكة جعلت شعره أشبه بلبدة أسد أنيقة. وانشغلت جهيرة قربه بصينيَّة مشروبات. وفي كرسيِّها المرتفع، راحت آناييس تلطِّخ وجهها بالكريم كاراميل، ومدَّت ملعقتها إلى أبيها:

ـ خذ! أشارت ببشاشة.

كان هذا الرضى يزيدها إدهاشًا كما يزيدها تقلُّبًا، فتتعرَّض لنوبات غضبٍ أو بكاءٍ غير مبرَّرة. في تلك الأثناء، كانت جهيرة وحدها تفلح في تهدئتها وإعادة البسمة إليها.

ـ تبحث عن أمِّها الحقيقيَّة، فلا تجدها، كانت توضح.

لأوَّل وهلة، لم يتعرَّف باباكار إلى النقيب. ولمَّا تبيَّنه، هتف متعجِّبًا بلا دماثة:

ـ أنتَ!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم حاول أن يُلَطِّفَ استقباله مقدِّمًا له تعازيه المتأخِّرة. لكنَّ دالامبير تلقَّاها بشيءٍ من الاستعلاء:

ـ لم ينفكُّوا يتحدَّثون عن أخي. عدتُ إلى مسقط رأسي، إلى جيريمي وأكتب مذكَّراته، بإملاءٍ منه إلى حدٍّ ما. سيكون عملًا شيِّقًا، لأنَّ أخي عاش حياتيْن، حياة جدِّنا وحياته. يجب أن ترافق جهيرة حين تأتي لزيارتي. جيريمي هي أجمل مدينة في البلد برأيي. وثقافيًا، هي الأكثر ثراءً أيضًا. الكاتب إميل أوليڤييه، والشاعر إميل رومر، على سبيل المثال لا الحصر، ولدا فيها. وهناك الكثير من حالة ألكسندر دوما الذي وُلد فيها، لكنَّني لم أقرأ قطّ رواية *الفرسان الثلاثة*، ولا رواية *الكونت دي مونت كريستو*. وأنت؟

هزَّ باباكار رأسه بالنفي.

ـ وإميل أوليڤييه؟ وإميل رومر؟ ورينيه فيلوكتيت؟ هل قرأت لهم؟ سأله.

ـ ولا هؤلاء أيضًا! أعلن باباكار.

ـ أنت لا تعرف الأدب الهاييتي إذًا؟ قال النقيب بازدراء.

شعر باباكار بالإهانة، لكنَّه نجح في التبسُّم:

ـ أعرف مثل جميع الناس. جاك رومان. جاك ستيفن ألكسيس. رينيه ديبيستر. أنت تعرف أنَّ ابنتي تُدعى آناييس تيمُّنًا برواية *حكَّام الندى*.

ـ ابنتك، حسنًا!

اللهجة الغامضة التي لُفظت بها هذه الكلمات جعلت

القشعريرة تسري في أوصال باباكار. اجتاحه خوفٌ جامح. من أين خرج هذا الرجل؟ ومن هو فعلًا؟ وماذا يريد منه؟

لحسن الحظّ لم تكن الزيارةُ مديدة. وإذا لم يستقلّ العبَّارة أو الطائرة، فإنَّ حالة الطرق البالغة مئتيْن وخمسين كيلومترًا بين بورت أوبرنس وجيريمي لا يمكن اجتيازها بيسر. رفض دالامبير دعوته للبقاء على العشاء، ونهض. ضمَّ جهيرة إلى صدره بقوَّة، وقبَّلها بحنان:

ـ أراكِ قريبًا. لا تجعليني أنتظر كثيرًا.

بادلته قبلته:

ـ أعدكَ. سآتي في أقرب وقت.

اللغة الكريوليَّة التي تحدَّثا بها عزلتهما في جزيرة صغيرة حميمة. بدا أنَّهما متشابهان، وأنَّهما خرجا من الأرض ذاتها. وحينما توارى النقيب وراء مقود سيَّارته المازيراتي الحمراء، التفت باباكار نحو جهيرة، مندهشًا من الغيرة الجامحة التي تتأكَّله:

ـ هل تضاجعينه؟

انفجرت ضاحكةً، كأنَّ السؤال أسعدها في العمق، ثم قالت بلا غضب، وبنبرة من يخاطب طفلًا طائشًا:

ـ هيَّا، لو أنَّني أضاجعه، لما جئتُ به إلى هنا. أمامك. لكنت وافيته في مخبأ. سبق أن أخبرتك أنَّ دالامبير أخي. هو في عمر موڤار. ويعرف بحزني العميق على موڤار. يعمل في جيريمي مع شخصٍ قويٍّ جدًّا، رجلٍ اسمه: فوي أولوج. وبفضله، عثر

على شقيقه الكبير وكلّ عائلته أيضًا. وحاليًّا، يرى أخاه كما يشاء. ذهبا للسباحة في النهر والتنزُّه وقطاف المانغو، مثلما كانا يفعلان حين كانا صبيَّيْن صغيريْن.

ـ آه حقًّا! قال باباكار بنبرةٍ تعمَّدها ساخرة.

أطبقت على وجهه براحتيْها الناعمتيْن جدًّا، وقبَّلته:

ـ سيعرِّفنا عليه أنا وميريام. وسيرتِّب لقاءً.

ـ فكرة ممتازة! قال باباكار ممعنًا في سخريَّته.

اقتربت منه:

ـ لماذا تُزعج نفسك بهذه الأفكار الغبيَّة؟ همست برقَّة.

شعر باباكار بالخجل، فلم يلحّ.

كان طلَّاب وأساتذة معهد اللغات يجتازون الحديقة أربع مرَّات في اليوم قاصدين قاعات صفوفهم. وهم يمرُّون، كانوا يثرثرون ويقهقهون بصخب. وخلال الاستراحات، ينخرطون في الضجيج، يزعقون، يتعاركون أو يلعبون ألعابًا عنيفة. وعند الظهيرة، يجلسون على الأرض ويتغدُّون، لأنَّه ليس لديهم مطعم، ويواظبون على الضجيج، ملتهمين سندويشاتهم من سمك المورة أو زبدة الفستق، ويلقون على الأرض الأكياس الفارغة وأكوام الورق الملطَّخة بالدسم.

ومع موسم المانغا، أصبح الوضع لا يُطاق أكثر أيضًا.

متسلِّحين بمضارب التنس، أو الحصى ببساطة، راحوا يتشتَّتون بين أشجار البيبه بوا، يصوِّبون على الثمار الناضجة، ويصيحون فرحًا عندما ينجحون في إسقاطها، يتلذَّذون بلبِّها

السميك، ويخلِّفون في كلِّ مكان أكوامًا من قشورها التي تجذب الذباب. استاء باباكار، وعزم أن يذهب إلى مدير معهد اللغات للتقدُّم بشكوى حين وقع حدثٌ آخر غَيَّر أفكاره.

المدَّخرات التي توقَّعا تحقيقها مقابل تضحياتٍ جمَّة لم تفد شيئًا. وجَّهت مؤسَّسة إيراديكات بوفرتي رسالةً جديدةً إلى باباكار تُخبره فيها أنَّها مضطرَّةٌ لبيع أراضيها في سان سوليداد إلى شركة يين كاو الصينيَّة، صاحبة سلسلة فنادق ذات شهرة عالميَّة التي تنوي إقامةَ فندقٍ فخمٍ إضافيٍّ عليها.

هذا غير معقول! فكَّر متألِّمًا. ماذا يفيد استبدالُ مركزٍ إنسانيٍّ بمشروع سياحيٍّ؟ وفضلًا عن ذلك، هذا لن يُجدي. لم يعد يوجد سائحٌ واحدٌ في هاييتي.

كان يترتَّب عليه أن يبحث خبرًا بهذه الأهمِّيَّة مع فؤاد في أقصى سرعة، وقرَّر الذهاب للقائه في عمله. وفي آخر النهار، حاول أن يشقَّ طريقه في زحمة سيَّارات البوسطة وسيَّارات الدفع الرباعيّ ومركبات تلفظ أنفاسها الأخيرة، وجميعها، في ساعة الذروة أو غيرها، تتَّجه نحو بورت أوبرنس. وبعد ساعة من الزحام والضجيج، استطاع أن يركن سيَّارته في دالماس، ويتخلَّص منها.

المطعم الكائن في صدر فِناء كان مكتظًّا. مغتربون، وجنود من قوَّات المينوستا، أو من قوَّاتٍ أخرى انتشرت في البلد. طبقه المميَّز هو لحم الضأن بالباميا الصغيرة الذي كان يلقى إقبالًا كبيرًا. دفع باباكار باب المطبخ، جنَّة روائح. المساعد، وهو

شابٌّ عربيٌّ ـ من أيِّ جحيم هرب؟ ـ كان يقطِّع أعشابًا وفؤاد يُزيِّن الأطباق وتأخذها نادلتان هاييتيَّتان إلى الصالة.

ـ أيُّ ريحٍ طيِّبة حملتك إلينا؟ هتف فؤاد. أو الأصحّ ريحٌ سيِّئة؟ صحَّح ملاحظًا هيئة باباكار.

ـ سيِّئة جدًّا! زاود هذا الأخير. جئتُ أُطلعك على رسالةٍ تلقَّيتُها هذا الصباح.

قرأ فؤاد بتأنٍّ رسالة مؤسَّسة أيراديكات بوفرتي العاجلة، وأعادها بحركة عفويَّة.

ـ حسنًا! كأنَّ هذا الإله الذي لا يؤمن أيٌّ منَّا به يُجبرنا على اتِّخاذ قرار. يجب أن نرحل.

ـ نرحل؟

ـ أجل. أنت طبيب. ستجد بلا عناء مستشفًى وعيادة سيقدِّمان لك العمل. أمَّا أنا فسأقوم أخيرًا بما أحلم به.

ـ أي؟ سأله باباكار.

وبدل أن يُجيب، طوَّق فؤاد كتفيْ باباكار:

ـ اذهب إلى العشاء! سأوافيك متى استطعت.

اتَّجه باباكار إلى قاعة الطعام. أربكه موقف صديقه. فقد بدا مرتاحًا ومتحرِّرًا. هل كان يفكِّر في مغادرة هاييتي؟ منذ متى؟ ومثل زوج يكتشف زنا زوجته، راح يلوم نفسه لأنَّه لم يشتبه بشيء. لكنْ، ألم يُخبره حسن بذلك قبل بضع سنوات خلت؟ كان أعمى!

حينئذٍ اقتربت منه شابَّة شقراء ترتدي سروال كاكي قصيرًا. إنَّها آمي، مراسلة صحيفة أخبار *سان فرانسيسكو* التي كانت قبل عامَيْن تسكن في فندق أرزِ لبنان.

ـ أيضًا هنا؟ قال مندهشًا.

جلست بلا تكلُّف إلى طاولته:

ـ العام الماضي، أوضحت، استدعوني إلى سان فرانسيسكو. ثم أوفدوني منذ بضعة أسابيع إلى هنا، لأكون شاهدةً على عودة الديموقراطيَّة.

ـ عودة الديموقراطيَّة؟ أعرب باباكار عن دهشته مشيرًا إلى عدد العسكريِّين حولهما.

أحنت رأسها مؤكِّدةً:

ـ أجل، يمكنك أن تقول ذلك. توقَّفتْ فعليًّا عمليَّاتُ الخطف. والسيَّاح الذين يتدفَّقون إلى بونتا كانا في الدومينيكان، مللًا من رتابة البحر والشواطئ، يملأون الحافلات، ويزورون قصر سان سوسي ويتنزَّهون في باحات الأعمدة. ولم يعد هنالك إلَّا تهديدٌ واحد.

هنا، خفضت صوتها:

ـ الشقيق الأصغر لهنري كريستوف الثاني، النقيب دالامبير.

ـ النقيب دالامبير؟ كرَّر باباكار مذهولًا.

ـ مصادرُ موثوقةٌ تؤكِّد أنَّه أقسم على الثأر لأخيه الأكبر. تحصَّن في مدينة جيريمي، مسقط رأسه وهناك، يبدو أنَّه عبَّأ قوَّاته. ويمكن المراهنة أنَّه سيجد مجانين يناصرونه.

ـ ويمكن المراهنة أيضًا أنَّ الأميركيين سيأكلونه حيًّا بسهولة! قال باباكار متفكِّرًا.

ماذا كانت تعرف جهيرة عن هذه المشاريع؟ ماذا أسرَّ لها «أخوها» دالامبير؟

ـ كيف حال ابنتك الصغيرة المحبوبة؟ سألته آمي.

بابكر، الذي يسترسل حين يتعلَّق الأمر بابنته، أسهب في إعطاء أخبار آناييس. وهي بالفعل كانت في غاية اليقظة، مبرهنةً عن ذكاء أكبر من سنِّها. وما كان يقُلق باباكار، هو شرودها المستمرّ، وتلك اللحظات المتزايدة باطِّراد التي تبدو فيها تتحادث مع أشخاصٍ لا أحد يلحظهم سواها. من هم؟ أمّها؟ أبوها؟ اللذان لن يحتضنانها أبدًا؟

وبعد لحظة، نهضت آمي:

ـ للأسف، يجب أن أنصرف، لديَّ موعد! قالت معتذرة. متى سأراك ثانية؟

أوضح باباكار أنَّه يسكن بعيدًا، في سان سوليداد، وعلى الأخصّ أنَّه أصبح معتكفًا وانطوائيًّا.

عندما وافاه فؤاد، كان يشرب كأسه الثالث من عصير الأناناس. خرج الرجلان في الليل الحارّ. وعلى الرَّغم من الوقت المتأخِّر، ظلَّت الشوارع صاخبةً، وحيويَّةً، ومكتظَّةً بالرجال والنساء وحتى الأطفال، وبالسيَّارات والدرَّاجات العاديَّة. لم يَعِش باباكار قطّ في بلدٍ مزدحم بالناس إلى هذا الحدّ. في كلِّ مرَّة، كانت هذه الحيوات المحاذية لحياته تؤلمه بالمعنى الحرفيّ

للكلمة. كان يخاف حيويَّة هذه الأرض، يخاف أوجون، روح الحرب المتدرِّعة بالديكتاتوريَّات، والفساد والمخدّرات والمعتقدات الغيبيَّة والكوارث الطبيعيَّة.

ـ منذ متى تفكِّر في الرحيل؟ وجَّه سؤاله إلى فؤاد متفاديًا العبارة التي كادت تفلت من شفتيه: «في تركي»، الميلودراميَّة والغامضة.

ـ أنت تعرف أنَّني حلمتُ دومًا أن أصبح كاتبًا. شاعرًا. محمود درويش. أخبرتكَ كلّ شيء.

ـ كنتَ تبدو سعيدًا للغاية مع ميريام وزهران. ظننتُ أنَّك عدلتَ عن التفكير في ذلك، همس باباكار، مدركًا سوء نيَّته.

ـ أنت تعرف حقَّ المعرفة أنَّ هذا ليس صحيحًا، قاطعه فؤاد محتدًّا. كيف لرجلٍ أن ينسى أحلامه؟ وأيضًا هناك ابن خالتي زهران الذي لا أستطيع نسيانه.

حين وصلا إلى السيَّارة الداكنة والقابعة في العتمة، أبدى باباكار اعتراضًا آخر.

ـ وهل ستقبل ميريام بمغادرة هاييتي ومرافقتك إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة؟

لم يَحِر فؤاد جوابًا.

ـ هل ستأخذها معك؟ ألحَّ باباكار.

ـ إن شاءت.

ـ وابنك؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أجاب الآخر بنبرة مستسلمة:

ـ أمُّه ستقرِّر.

قطعا المسافة بلا كلام، كلٌّ واحد منهما يهجس في أفكاره. راعت باباكار، المحزون لغياب موقار، فكرة أيَّامه الكئيبة القادمة من دون فؤاد. إذا غادر هذا الأخير هاييتي، فسيحذو حذوه. أين سيذهب؟ هل سيقصد الولايات المتَّحدة الأميركيَّة؟ هل سيعتاد عليها؟ لم يَعِش قطّ في بلدٍ متطوِّر، ولم يكن يعرف سوى العَوَز والعذابات والأموات الذين يمكن تحاشيهم.

بعد تلك الليلة بوقتٍ قصير، وصل السيِّد زانغ زونغ لي الذي يتحدَّث خمس لغات بإتقان من هونغ كونغ، ليمثِّل شركة يين كاو. لم يخفِ رأيه. يجب هدم كلّ شيء. وتحويل بيئةٍ منفِّرة إلى جنَّة أرضيَّة. وبناء فندق فخم يضاهي سلسلة الفنادق المملوكة في جزيرة سان بارتليمي. بدا غير مُدرك لسخافة مشروعه.

كان مخطَّط جهيرة هو الذهاب إلى جيريمي.

ـ اعترفت سو أوفرازي بهذا: لا تستطيع إنجاز العمل الذي طلبناه منها أنا وميريام. لا يمكنها تحديد مكان موقار. وهل هو حيّ أم ميت. الشخص الذي يعرفه دالامبير يمكنه مساعدتنا.

ما كانت تتوجَّس منه، هو اصطحاب أناييس معها. كانت الطفلة مفرطة الحساسيَّة. وكانت تُثيرها التنقُّلات والأسفار ولقاء وجوهٍ جديدة.

ـ أكره أن أتركها، راحت تردِّد متأسِّفةً، لكنَّنا لن نتغيَّب طويلًا. ثلاثة أيَّام كأقصى حدٍّ.

لم تكن هذه الزيارة إلى جيريمي تروق لباباكار. أبدى أوَّل اعتراض. أليس من الخطير الذهاب إلى تلك المنطقة؟ ألم يحصل فيها مؤخَّرًا حادثٌ فظيع؟

ومثلما تحدَّثت عن الأعاصير، تحدَّثت صحف العالم أجمع عنه. العبَّارة نبتون، المنسّقة منذ سنوات وتربط بورت أوبرنس بمدينة جيريمي، وهي في حالة مزرية، كانت كالعادة محمَّلة فوق الحدِّ. كانت تنقل إضافةً إلى ما يُقارب الألفيْ راكب ثمانمئة ثور وأكياسًا من جوز الهند. وهنا، تتباين الآراء. يؤكِّد البعض أنَّ سطح العبَّارة انهار، وأدَّى إلى كارثة. وزعم آخرون أنَّ عاصفةً عنيفةً ضربتها، وأخذت المياه تتسرَّب إلى قلب العبَّارة والمضخَّات لم تعمل. ولأنَّه لم يكن يوجد على متنها سترات نجاة ولا قوارب إنقاذ، كان من السهل التنبُّؤ بالنهاية. عُثِرَ على مئات الجثث على شواطئ ميراغوان وبوتي غواف. وإذا كان البعض نجا من الغرق، فلأنَّهم ركبوا ظهور الماشية أو تشبَّثوا بقرونها. مثل تلك المرأة التي راحت تصرخ صراخًا هستيريًّا وهي نصف عارية: *هذا الثور هو الذي أنقذني!*

ومنذ تلك اللحظة حتى تحويل الثيران إلى تجسُّدات عطوفة لأرواحٍ حامية، لم يستغرق الأمر إلَّا خطوةً واحدة. كلّ ذلك أصبح موضوعَ أغنيةٍ في التجمُّعات السكنيَّة العائليَّة المُسمَّاة لاكو. وتكدَّستْ آلاف اللوَّحات الساذجة بين ليلةٍ وضحاها في الأسواق، أو أمام الفنادق السياحيَّة تُصوِّر «معجزة» نبتون. ثيرانٌ مجنَّحة تشمخ بأنوفها وتحمل على ظهرها رجالًا ونساءً وأطفالًا يُصلُّون، وأياديهم مضمومةٌ إلى صدورهم. ونشرتْ مجلَّة *دراسات*

كاريبيَّة الرصينة جدًّا عددًا خاصًّا عنونته بحذلقة «رهانات الشعب»، وكرَّسته للإبداع الاستثنائيّ للشعب الهاييتي.

ـ لا تخشَ شيئًا! قالت جهيرة. سنستقلُّ الطائرة. أعطانا دالامبير التذاكر.

قدَّم باباكار اعتراضه الثاني. هل المكان آمنٌ؟ سمعَ أنَّ النقيب دالامبير يجمع قوَّاتٍ مرتزقة هناك، بهدف الثأر لاغتيال شقيقه.

رفعت عينيْها إلى السماء:

ـ من روى لك تلك الترَّهات؟ ذلك القذر سان أومير؟ لن يشعر هو وصديقه المخلص الرئيس بالسرور قبل أن يتخلَّصا من عائلة هنري كريستوف الثاني.

ـ لا ليس سان أومير. إنَّها آمي إيفان، صحفيَّة أميركيَّة.

حدَّقتْ فيه بإشفاق:

ـ أنت تخالط الأميركان الآن، وتصدِّق أكاذيبهم؟ إلياس يدافع عن نفسه لأنَّه مضطرّ. في الحقيقة، يكره العنف. وما يبغيه، هو العمل في الموسيقى.

نكره جميعنا العنف، فكَّر باباكار. ومع ذلك، هو يلهمنا ويفعل بنا ما يشاء.

لم يتجرَّأ على التصريح باعتراضه الثالث الهامّ: الغيرة التي تعذِّبه. لذلك لم يتفوَّه بأيٍّ كلمة. وفي اليوم المحدَّد، قبَّلَ جهيرة بلا شططٍ خاصّ، ثم ذهب وأخذ ابنته النائمة في الحُجرة

المجاورة. ورغمًا عنه، شعر بالسعادة لفكرة أنَّه سيقضي وحده بضعة أيَّام معها.

جيريمي، وهي اليوم بلدة صغيرة بلا أهمِّيَّة، لكنَّها وحدها تحافظ على أصالة موقعها، يمكنها أن تتباهى بماضٍ بطوليّ. كانت على التوالي مكانًا هامًّا للهاربين، وآوت زعيميْن متمرِّديْن، بليموث وماكايا. ثم مقرّ حركة التمرُّد الفلَّاحيَّة في الأعوام المضطربة التي تلت الاستقلال. وعندما أعلن هنري كريستوف الثاني نفسه من سلالة الأمبراطور، لم يتفاجأ أحد، حتى أولئك الذين شهدوا ولادته من أمّ معوزة وصيَّادٍ بحرٍ متواضع. على كلِّ حال، يحقّ لأيٍّ واحد فينا الادِّعاء بأنَّه يتحدَّر من نسل أبطال تاريخيِّين. أليسوا هم آباء الأمَّة؟ ولاحقًا، تحمَّس العاطلون عن العمل، الكثر في جيريمي، وفي كلِّ مكان من البلد، وحتى يُقال تحت قبب جميع السماوات، وساعدوه على بناء القصر، «رويال بونبون»، الذي شيَّده لنفسه ولرفيقته البارعة الجمال في أعالي الجبال. بنوه بحجارةٍ لامعة، استخرجوها من قاع الأنهار، وسمُّوها «المرمر الاستوائيّ».

اسْتُقْبِلَ خبر اغتيال هنري كريستوف الثاني في قصر كيسكيا بذهولٍ لا يُصدَّق. هراء! كان جميع الناس مقتنعين أنَّ رصاص الأميركان وأعوانهم المحلِّيِّين لا يمكن أن يصرع رجلًا بهذا الحجم. كان لا يُقهر مثل العبد الثائر ماكاندال. لذلك لم يفاجئ أحدًا حين ظهر من جديد في المنطقة بعد بضعة أسابيع. رآه البعض في عزِّ الظهيرة يتنزَّه متأبِّطًا ذراعيْ ستريلَّا وأخيه الصغير، النقيب دالامبير. وفي بعض ليالي الصفاء، كان قصر «رويال

بونبون» يُضاء ويشعّ أنواره كسفينةٍ تتأهَّب للإبحار. وعلى الشرفة، هناك الأريكة التي تتصدَّرها من قامت مقام أمّ ستريلَّا، مان تونين، والهيئة الشامخة المتوَّجة بضفائر شعر هنري كريستوف الثاني وهيئة رفيقته، ملكة جمال هاييتي الحقيقيَّة. يُحيط بهم جنرالاتٌ ببزَّاتٍ زرقاء وحمراء، ونساءٌ يرتدين تنانير فضفاضة ويتباهيْن بنهودٍ متراقصة في أثوابهنَّ المقوَّرة التي تكشف عن صدورهنَّ وأكتافهنَّ. كان النُّدَّل يدورون بكلٍّ أنواع المشروبات. الشمبانيا تفور في الكؤوس. والموسيقى تصدح. وأزواج يرقصون. وأحيانًا، على العكس، يسود صمتٌ مطبق. وتُعرضُ مسرحيَّات للكاتب فرانك إيتيان. أُعيد إحياء كلّ أبَّهة قصر سان سوسي على مرأى من أعين الفضوليِّين المبهورين. وفي أمسيات أخرى، كان هنري كريستوف الثاني وشقيقه الصغير يذهبان بعفويَّة ليشربا الكليران في حانة شي بيبي نوغيز، بينما ستريلَّا وتونين تتنزَّهان في الحقول المجاورة. كان يرافقهنَّ كلبٌ أسودُ ضخم يقتل كلّ ما يصادفه في طريقه، دجاج وديوك وأرانب وحملان. لذلك أخذ الفلَّاحون يخافون من تلك النزهات، وراحوا يلزمون بيوتهم.

لا يستطيع أحدٌ أن يجزم أنَّ النقيب دالامبير شكَّل جيشًا من المرتزقة حتى يثأر لموت هنري كريستوف الثاني. ولم يكن أحدٌ يجهل العاطفة التي تربط بين الشقيقيْن، ولكنْ بحسب الرأي العامّ، لم يكن الأخ الأصغر يتمتَّع بالصفات العسكريَّة للأخ الأكبر. عُرِفَ بشكلٍ خاصّ بمظهره الوسيم، وميله للنساء والمنافسة. رأى سكَّان جيريمي بوضوح حشدًا من الشبَّان يتدفَّقون

نحو ثكنة نيلسون مانديلّا، مصطحبين خيمًا كبيرة. لكنَّهم ظنُّوا أنَّ هذا الاجتياح سببه دروس محو الأمِّيَّة المجَّانيَّة هناك. ليس المهمّ تعلُّم التحدُّث، لكنْ أليس مفتاح النجاح يكمن في تعلُّم قراءة وكتابة الفرنسيَّة؟ ما يتذكَّره الجميع من ناحية أخرى، هو الكمين الذي نصبته القوَّات الديموقراطيَّة التابعة للرئيس الجديد، المتحالفة مع الأميركان، وأودى بحياة النقيب وضيوفه. في ذلك اليوم، أُقيم حفلٌ مهيب في «رويال بونبون». وسُلِّمت خلاله كما في كلِّ عام جائزةُ الديموقراطيَّة. وكان طلَّاب الصفوف النهائيَّة لمعهد حقوق الإنسان قد امتُحنوا على اللوح في جملةٍ قالها كوامي نكروما، الثائر الإفريقي، الذي نُسي على نطاقٍ واسع، لكنَّه عاش في الستِّينيَّات ذروةَ مجده منسحبًا بصخب من الكومونولث الإنكليزيّ: *السلطة فساد. السلطة المطلقة فساد مطلق*.

وقُبَيْل الظهيرة، اقتحمت شاحناتٌ عسكريَّة مداخلَ قصر «رويال بونبون». وحشدٌ من الجنود المسلَّحين بالرشَّاشات والبازوكا والقاذفات الصاروخيَّة ترجَّلوا منها. وبلمح البصر، حاصروا القصر، واستولوا عليه وأحرقوه. ثم ركب الجنود شاحناتهم وغادروا كما جاؤوا. كأنَّه حلمٌ، حلمٌ مزعج. انتشل سكَّان جيريمي المذهولين ثمانين جثَّة متفحِّمة من بين الأنقاض.

ونظرًا لسوء حالة الاتِّصالات الهاتفيَّة مع بورت أوبرنس، لم تصل أخبار هذه المأساة إلى سان سوليداد إلَّا في وقتٍ متأخِّر. ولم يعرف باباكار وفؤاد بفداحة خسارتهما إلَّا بعد يومَيْن من الهجوم.

سارع الرجلان إلى جيريمي بالطائرة. وتمكّنا من الإقامة في ألكسندر دوما، وهو نزلٌ عائليّ توافد إليه المفجوعون.

ـ كما تعرف، همس صاحب النُّزُل في أذن باباكار، يوجد هنا شخص متنفِّذ، فوي أولوجي، يستطيع أن يعثر لكم على كلِّ ما فقدتموه. هل تفهمني؟ كلّ شيء! اذهبوا لزيارته. وإذا استعدتَ زوجتك، ستعيش معها بهدوء إلى آخر حياتك، لأنَّها سبق أن ماتت ولا يمكنها أن تفارقك من جديد.

لم يأخذ باباكار بهذه النصيحة وذهب إلى الجروف الصخريَّة، وهناك بناءً على الطلبات، يقوم رجالٌ يتَّشحون بأرديةٍ سوداء، يزعمون أنَّهم يعملون في دار تجهيز الجنازات في دو بروفندي، بترميد الجثث قبل نثر رمادها فوق المحيط. كانت رائحة كريهة تنتشر، ولم تفلح نسمات البحر اللاذعة في تبديدها. راح باباكار يتذكَّر كلمات صديقه هوغو مورينو ووجهه مخضَّل بالدموع: «قريبًا، سيختفي كلّ شيء. ولن يتبقَّى على مدِّ النظر سوى أمواجٍ بنفسجيَّة يتوِّجها الزبد الأبيض.»

هكذا اختفت جميع النساء اللاتي أحبَّهنَّ. اثنتان منهنَّ أودت بحياتهما نزاعات لا تخصَّهما. أزيليا «الجنوبيَّة» قتلتها السلطة «الشماليَّة». وحالة جهيرة أكثر عبثيَّة ولا منطقيَّة أيضًا. أيَّة قوَّات لعبت هذه اللعبة؟ تشتَّت ذهنه في محاولات التفسير. كائنات كانت الأثيرة لديه، لم يتبقَّ منها سوى ذكرياتٍ وأشباحٍ، ولم يعد يدري إن كانت قد وُجدت فعلًا.

في بورت أوبرنس، ترجَّل فؤاد وباباكار من الطائرة في

الموعد، ليحضرا احتفال المصالحة الوطنيَّة التي أقرَّها الرئيس بعد أن عجز عن القضاء على آخر زعيم للمتمرِّدين. أُقيم في كاتدرائيَّةٍ، طُلِيت على عجل وأُخليت بالقوَّة من المشرَّدين الذين يملأونها عادة. نجح باباكار وفؤاد في الجلوس في أوَّل صفٍّ للمتفرِّجين الذين تجمهروا بكثرة لرؤية هذا المشهد. راحت مجموعاتٌ من رجال الشرطة تُبعد الحشد إلى مسافةٍ مناسبة، ولم يعد أحدٌ يرى سوى سيَّارات الوجهاء اللامعة. مع ذلك، كان الناس يعرفون أنَّه إلى جانب الرئيس، حضر وزراء ورجال دين جاؤوا من شتَّى أنحاء العالم. ولوحظ حضور العديد من كبار أساقفة أميركا اللاتينيَّة. ممثِّلة الأمم المتَّحدة، امرأةٌ بدينةٌ وفاقدةُ الجمال، هي من ألقت خطابًا منقولًا عبر مكبِّرات الصوت إلى جميع أنحاء المدينة: *إنَّنا ندخل عصرًا من السلام والأخوَّة لما فيه خير المصلحة العامَّة*.

سبق أن سمعنا هذا الكلام، قال باباكار في سرِّه، متأبِّطًا ذراع فؤاد لينسحبا!

لم يرَ أمّه إلَّا بعد أيَّام طويلة، مع أنَّه كان يُناديها يوميًّا في عذاب لياليه. كانت تصمّ أذنيْها. بالتأكيد كانت تفضِّل أن تراعي من بعيد ألمًا لا تشاطره إيَّاه بالكامل. لم تُخفِ أنَّها لم تكن تحبّ جهيرة. قبَّلت جبين باباكار بحنان:

ـ كيف تشعر؟

قال بنبرة عتاب:

ـ لماذا لم تأتِ إلَّا الآن فقط؟

تنهَّدت من دون إجابة. فاستطرد:

ـ ومن جهة أخرى، كان يمكنكِ أن تخطريني أنَّ هذه المصيبة الجديدة ستلحق بي! لم يراودني أيّ حلم، ولم تتبدَّ لي أيَّة رؤية، ولم يُنذرني أيُّ هاجس. لم تُرشدني أيّ علامة. لا شيء.

أطلقتْ تنهيدةً جديدة:

ـ لم أستطع إيجاد الكلمات المناسبة لأجعلك تستعدّ.

ـ ما يجب أن أفعله، هو العودة إلى مالي، إلى سيغو.

ـ إلى سيغو! أنت مجنون تمامًا.

عاند باباكار:

ـ إطلاقًا! سأستطيع هناك أن أتحمَّل الحياة المناسبة لي. أن أكون طبيب توليد في الريف، مولعٌ بمهنتي، أعمل ليلًا ونهارًا في دار توليد صغيرة، أولِّد نساءً مستضعفات. والأهمّ، في أرضنا، أرض آل تراوري، ستكون أناييس، هذه الطفلة المحبوبة، اليتيمة مرَّتين، مُحاطةً بعشرات الأمَّهات والخالات والعمَّات وبنات الخالات...

هزَّت كتفيْها:

ـ ماذا تهرف! قاطعته بنفاد صبر. دومًا أحلامك وأساطيرك. فيما تبقى من أرض تراوري في سيغو، لم يعد يوجد إلَّا المسنُّون أو طريحو الفراش. الحياة هي في مكانٍ آخر. جميع الرجال والنساء الأصحَّاء تحدُّوا الصحراء أو المحيط بحثًا عن عمل في أوروبا. لم يعد فيها حجرٌ على حجر. سيغو أصبحت مأوًى للمحتضَرين.

لم يستسلم للإحباط، وردَّ قائلًا:

ـ العالم كلّه مأوى للمحتضَرين! لا ينتظر فيه المرء إلّا أمرًا واحدًا.

سادت برهةُ صمت، ثم استطردت:

ـ من الآن فصاعدًا، لن أزورك ليلًا، وأظلّ رهينة مزاجك السيِّئ أو نزواتك. وجدتُ طريقةً أخرى لأكون معك على الدوام.

ـ ما هي؟ قال باباكار مستاءً.

وضعت إصبعها على شفتيْه، ثم تابعت:

ـ وداعًا، يا حبيبي!

وداعًا؟ قبَّلته بحنان على جبينه، كما كانت تفعل حين كان صغيرًا بعد أن تحكي له حكاية.

لم يسنح له الوقت ليُخبرها بالمزيد. اختفت.

استيقظ معذَّبًا بالقلق والألم. ماذا كانت تقصد؟

ـ لن أزورك ليلًا.

كانت الساعة السابعة. راحت أشعَّة الشمس تطرق بعنفٍ النوافذَ، وترشق سهامها عبر تشقُّقات وفجوات الحواجز. ماذا كانت تقصد؟ ها هو عماد وجوده ينهار. ماذا فعل؟ لماذا اختارت تلك اللحظة المؤلمة جدًّا لتعلن له مثل هذا الخبر؟

انضمّ إلى فؤاد في قاعة الطعام، حيث كان هذا الأخير يقوم بالأنشطة اليوميَّة المعتادة، يحضِّر الإفطار، يأكل، يستمع إلى المذياع. وعلى الرَّغم من هذه الجهود الجديرة بالثناء، كانت

الأمور تسير خبط عشواء بوضوح. فالمبنى ب الذي كان يضمّ فيما مضى دار التوليد وعيادات الأطبَّاء، صار فاغرًا، مشرَّع الأبواب. واستولى السيِّد سان أومير على الأَسِرَّة، وأمهاد الرضَّع، والمراوح وجميع المعدَّات الطبِّيَّة. نقلها إلى مستشفى ساغرادا القديم، المهجور منذ عقدٍ من الزمان بسبب نقص التمويل، ويأمل أن يُعيد افتتاحه معتمدًا على فريق من المتطوِّعين التايلانديِّين وصل أثناء الإعصار، واحتجزه إملاق سان سوليداد. وعلى الرَّغم من توسُّلات الفريق، رفض باباكار الانضمام إليه: لم يعد يستطيع التحمُّل.

بدأت بعض الحفَّارات تمهِّد تضاريسَ الأرض، وتغطِّيها شاحناتٌ من الرمل. وراح حشد من العمَّال الصينيِّين جلبته طائرةٌ خاصَّة يعملون في جميع الاتِّجاهات، ويقطعون بلا حياء رزق العمَّال الهاييتيِّين. في هذا الخراب، وقف طلَّاب معهد اللغات الذي لم ينتهِ عقد إيجاره حانقين وعاجزين، وهم يرون اقتلاع أشجار المانغا. لم يتوقَّف فؤاد وباباكار عن تصنيف أو رمي بعض الوثائق أو الأوراق الشخصيَّة، وكانا يبكيان حين يقعان على شيء يُثير فيضًا من الذكريات. هكذا وقَّع باباكار على دفتر يخصّ جهيرة كتبت عليه بخطِّها المدرسيّ أغانيها المفضَّلة. كلّ شيء مرَّ فيها: «ربَّما، ربَّما»، «ما أجمل عيناك»، «وداعًا، موطني»، وبعضها مدهش: «دع الشمس تسطع»، «تخيَّل» إلى أغنيتها المفضَّلة، المؤطَّرة بالأحمر:

«آه! لا تهوى، لا تهوى على هذه الأرض

حين يرحل الحبّ،

لا تبقى سوى الدموع.

آه! لا تهوى على هذه الأرض.»

لم تكن جهيرة مثقَّفة: وهذا ما أخذته ثيكلا عليها، كما أخذته قديمًا على أزيليا، من دون أن يخامرها شكّ أنَّها شفت ابنها من المثقَّفات من دون أن تدري. فطوبى للواتي يمضغن خبز الحياة الحزين من دون أيِّ سعيٍ لتحليل المكوِّنات التي تدخل في تركيبته.

كان فؤاد وباباكار يتعاهدان أحيانًا:

«سنبقى معًا دومًا! لن نفترق أبدًا!»

«لن ننساهما أبدًا!»

«لن نتخذ أبدًا زوجات غيرهما!»

كان فؤاد يتلعثم أيضًا:

«أعرف هذا الآن. لا يتعلَّم المرء الكتابة في جامعة أميركيَّة. المعاناة هي معلمنا. المعاناة والألم. قلبي ومخيِّلتي يفيضان الآن. هذه الليلة، غادرتُ سريري. اسمع ماذا ألَّفت أمام النافذة المفتوحة.»

راح باباكار يُصغي ولم يقتنع. بدت له هذه الكلمات المفرطة في تكلُّفها سياجًا نرجسيًّا، تطرد المشاعر بعيدًا. بينما أرادها نفوذة، مسامية، شفَّافة. آه! لو أنَّه كتب هو، لاستخفَّ بالكلمات! فالكلمات مزعجة.

كلّ يوم، في النداوة، يجتمع قلَّةٌ من الأصدقاء على الشرفة. السيِّد سان أومير وجسكار وتي سون وورورو ميجي الذي جاء من

جاكميل. كان هذا الأخير قد عرض لوحاته في غاليري فليشمان، وهاجمته الصحافة كلّها. «السيِّد رووالد ميجي يخلط بين الفرشاة ومكنسة المراحيض»، كتب أيضًا عضو *الديموقراطيِّين*.

كان رورو يأخذ تلك التعليقات على محمل السوء:

ـ إنَّهم يبغضونني لأنَّني خلاسيّ! يؤكِّد.

ـ دعكَ من هذا! احتجّ جسكار، وهو خلاسيٌّ أيضًا. فأيَّام «نزعة التعصُّب للسود» ولَّت. هاييتي تخلَّصت من اللون.

ـ أنت لا تعرف شيئًا عن هذا! أصرَّ رورو. فأنت لم تترعرع هنا. ولم يعاملوك قطّ ك «ابن زنا».

عشيَّة الرحيل، ألقى السيِّد سان أومير التأبين الأخير للراحلتيْن بوقار:

ـ كانتا هاييتيِّتيْن عظيمتيْن. أخي الرئيس تأثَّر تأثُّرًا شديدًا برحيلهما.

«ومع ذلك، فكَّر باباكار بلا غضب، وبنوع من الاشمئزاز، هو من قتلهما. كلّ هذه الألاعيب الغامضة التي تتوارى خلف الكلمات الطنَّانة عن الديموقراطيَّة، ومناهضة الأمبرياليَّة، والهويَّة الوطنيَّة. في نهاية المطاف، أليست مجرَّد ألاعيب السلطة؟»

رورو ميجي الذي راح يفرط في الشراب منذ خيباته الفنِّيَّة، كان قد أحضر كنزًا: روم من الأرجنتين، بنكهة الجنتيانا الخضراء. خرج إلى الحديقة ليسكب خمرًا على الأرض قربانًا للآلهة، ثم صبَّ لنفسه كأسًا مترعة كما يحبّ. نظر إليه جسكار بعينٍ ناقدة:

ـ هل تعرف ماذا قال شكسبير؟ *الكحول يثير الشهوة، لكنَّه يذهب بالأداء بعيدًا.*

ـ *هراء!* زمجر رورو.

ـ كلّ شيء يتوقَّف على المقصود بكلمة «أداء»! تدخَّل فؤاد.

تتبَّع باباكار إحدى هذه المناقشات العقيمة والشيِّقة في آن معًا، التي هم وحدهم لديهم سرّها. وكعادته، لم يشارك في الجدل الكلاميّ. بالتأكيد، لم يكن واثقًا من أفكاره حول الحياة والعالم. وعندما انتهى النقاش، سأل السيِّد سان أومير بشيء من السخرية:

ـ أين يقع البلد الذي ستغادرون إليه؟ بحثتُ عنه على الخارطة، ولم أعثر عليه.

فؤاد هو من أجاب:

ـ إنَّه ليس بلدًا. إنَّها مستعمرة، مجتمعٌ صغير في جنوب تنزانيا. تجمَّع فيه راونديُّون وأفغان وعراقيُّون، باختصار، أُناسٌ مثلنا، فقدوا كلّ شيء. كابدوا كثيرًا، فرغبوا أن ينسحبوا من العالم ليفكِّروا معًا في سبل تحسينه.

ـ وكيف سيفعلون ذلك؟

ـ بفضل الفنّ! أرعد جسكار الذي لم يكن ينتظر على ما يبدو إلَّا فرصةً ليعود إلى موضوع حديثه المحبَّب. لا أنفكّ أردِّد وأكرِّر أنَّ الفنّ وحده يمكنه تغيير العالم.

ـ لا أتحدَّث فقط عن البشر! اعترض السيِّد سان أومير. قد نفلح في تغيير قلوبهم، وجعلهم أكثر وعيًا وأكثر تسامحًا، وأقلّ

عنفًا. لكنَّ الطبيعة لم تزل أشرس من الإنسان!

من جديد، نقاشٌ آخر، مبهم وشيِّق، بدأ.

ـ يؤسفني فراقكما، قال السيِّد سان أومير، حينما عاد الصمت. وأخي الرئيس مثلي. نأمل ألَّا تحملا ذكرياتٍ سيِّئة عن بلدنا.

يبدو أنَّ الطبيعة لم تكتفِ بأعاصيرها مؤخَّرًا، ولم تتخلّ عن العودة إلى فرض قانونها. راح ضبابٌ كثيفٌ يحجب النجوم وسُمِعَتْ ضجَّةٌ صمَّاء. بالتأكيد ليست ضجَّةُ البحر، فهو يبعد أكثر من مائة كيلومتر تقريبًا. إنَّها ضجَّةُ جميع الضحايا المنتَزعين بلا وجه حقّ من رتابة الحياة اليوميَّة. لعلَّها من أجل إشباع شهيَّة آلاف الأرواح الهائمة «اللوا»؟ ولكن أيَّة «لوا»؟

عندما انصرف الأصدقاء، صعد باباكار إلى غرفة أناييس. لم تكن غافيةً في سريرها. كانت ساكنة، وقد أدارت وجهها نحو الحاجز وبدت تتفحَّصه. ماذا ترى فيه؟ المرأتان اللتان حملتاها، إحداهنَّ في بطنها، والأخرى في قلبها، واليوم توارتا على حدٍّ سواء؟

لم تطالب بجهيرة، وسألت ببساطة:

ـ أين رحلت ماما؟

وهي تسمع خطى أبيها، نهضت بحيويَّة. أضاء مصباح السرير، ولمَّا هَمَّ أن يأخذها بين أحضانه لاحظ التغيّر. هرع مذهولًا، وأدار قاطع مصباح السقف ليحصل على مزيد من ضوء. كانت عينا أناييس، البرَّاقتان واللامعتان، تبرزان من وجهها،

شبيهتيْن بزهرتيْن زرقاويْن. وبشرتها فاتحة، خلاسيَّةً بملامحَ إفريقيَّة، لم يكن الوقع مفاجئًا أو غريبًا، ولا حتى مقلقًا كما تبدَّى ذلك لثيكلا. على العكس. غمرته السعادة وزاد جمال الفتاة روعةً وإدهاشًا.

وقلبه يذوب امتنانًا، ركع باباكار بجانب المهد. قدَّمت ثيكلا له أثمن الهدايا. ربطت أنابيس بنسل عائلة مينيرف، وبذلك نسبتها إلى ابنها كلِّيًّا. ومحت ما قد يكون تصرُّفًا مُدانًا واستبداديًّا في حركة استيلائه على الطفلة، تلك الليلة الشتائيَّة المشهودة التي بدا كلّ شيء ممكنًا فيها. في الحقيقة، لم يَنْسَقْ باباكار وراء مشاريع فؤاد من دون شعورٍ بتبكيتِ الضمير. وفي قرارة نفسه، راح يتساءل هل يحقّ له أن يجرّ أنابيس إلى مغامرةٍ جديدة، ويجعل منها كائنًا مثله، بلا إيمان ولا سقف، غجريَّةً بلا وطن تنتمي إليه. ألم يدفع باهظًا ثمن التربية التي تلقَّاها؟ لا شماليّ ولا جنوبيّ، لا بامبارا ولا كريول، لا مسلم، لا مسيحيّ. وبالنتيجة، أصبح مُدانًا يُشير إليه بالبنان جميعُ أولئك الذين يريدون تعريفًا محدَّدًا. من الآن فصاعدًا، سيسعها أن تحدِّد معسكرها.

حمل الطفلة، وهُرع إلى فؤاد حتى يُريه تحوُّلها. لم يكن هذا الأخير نائمًا. كان محمومًا أمام صورة مكبَّرة لابنه، ينظم قصيدة. سبق أن حدَّثه باباكار مرارًا وتكرارًا عن عينيْ أمِّه الزرقاويْن، من دون أن يشعر بالإهانة، بعد أن اعتاد على تهكُّمه وسخرياته:

- جميع النساء مشعوذات يا صديقي، كان يسخر، ولا تختلف ثيكلا عن غيرها. ألا تعرف ذلك؟

تفرَّس فيه فؤاد برصانةٍ غير معتادة:

ـ دع هذه الطفلة خارج هذه السخافات. ماذا اخترعتَ أيضًا؟ لم يتغيَّر لون عينيْها!

«ألستُ أمضي في طريق يفضي إلى الجنون؟ تساءل باباكار محتارًا. في نهاية المطاف، ألم أحلم بكلِّ هذا؟ لعلَّ أمِّي قصدت ببساطة أنَّها انسحبت نهائيًّا من حياتي مثل كلِّ الأخريات؟ كيف لي أن أعرف؟

وفي ضبابٍ من الألم والارتباك، اضطرّ أن يحتمل قصيدة «عظة إلى زهران»...

في اليوم التالي، السيِّد سان أومير الذي يتولَّى أرفع المناصب، أرسل لهما سيَّارة ليموزين من الرئاسة لتقلَّهما إلى المطار. أعلن لهما موظَّفٌ مغرورٌ يجلس بجانب السائق:

ـ أنتما تخطئان بمغادرة بلدنا الآن. ستعود قريبًا إلى ما كانت عليه فيما مضى، لؤلؤة الكاريبيّ. ألا تريان رجال الأعمال الذين يتهافتون عليها؟ يأتون إليها من كلِّ مكان.

ثم أضاف مداعبًا خدَّ أنابيس:

ـ يا لها من طفلةٍ جميلة. طفلةُ من هي؟

ـ طفلتنا نحن الاثنيْن! أجاب فؤاد بثقة.

«وكيف هما عيناها؟» كان السؤال يُغري باباكار.

كالعادة، استغرق اجتياز بورت أوبرنس وقتًا مديدًا. وللمرَّة الأخيرة، استغرق باباكار في تأمُّل المدينة. وفيما راح شعورٌ غير متوقَّع يكبر داخله، لاحظ أنَّه تعلَّق بهذه البيئة والفوضى والعماء،

على الرَّغم ممَّا كان يعتقده. أمام القصر الوطنيّ الذي يحرسه جنود، تدفَّق مدٌّ من الصور الممضَّة إلى قلبه. ذَكَّرَه هؤلاء الشُبَّان بآخرين ظنَّ أنَّه يكرههم. النقيب دالامبير ومرتزقته بأسمالهم البالية على طريق جاكميل. ماذا كانت طبيعة علاقاته مع جهيرة؟ هل كانا عاشقيْن؟ هذه الغيرة التي عذَّبته ولم يجد لها تبريرًا قطّ انطفأت اليوم. وفي المعركة التي ربَّما واجهتهما، تغلَّب عليه دالامبير في نهاية المطاف، لأنَّه أخذ جهيرة معه إلى أزليَّة الموت. إنَّهما الآن يتنزَّهان متأبِّطيْن بعضهما بعضًا في سهوب الغيب المترامية. يتحادثان بلغتهما. أمَّا هو، فلم يكن قطّ إلَّا الغريب.

وصلوا إلى المطار.

بفضل مبعوث السيِّد سان أومير، انتهت إجراءات الشرطة بسرعة. وألفوا أنفسهم في قاعة انتظار كبار الشخصيَّات، بناءٌ خشبيٌّ جميل يتمايز عن قبح المباني المجاورة:

ـ إنَّها ذكرى من الأميركان! أوضح مبعوث السيِّد سان أومير. شيَّدناه من أجل زيارة كلينتون. كان يعشق هاييتي، وأتى إليها في رحلة زفافه مع هيلاري.

ثم صافحهما بحرارة:

ـ ستعودان لزيارتنا، صدِّقاني. هاييتي لا تدع أحدًا يهجرها هكذا.

كانت قاعة انتظار كبار الشخصيَّات متحفًا حقيقيًّا. لوحاتُ الفنِّ الساذج، وجداريَّات، ومنحوتات، وأشكالٌ فنِّيَّة حديديَّة.

وتصدَّرت كلّ هذا صورةٌ عملاقة للرئيس. نالت أناييس حظوتها الصغيرة المعتادة:

ـ ما أجملها. كم عمرها؟

دُهش باباكار لرؤيتها في غاية الهدوء كأنَّ مغادرة هذه الأرض لا تهمّها. هل هذا بتأثير «تبنِّيها» من قِبَل ثيكلا؟ ثمَّة نُدلٌ يرتدون سترًا حمرًا ويقدِّمون المرطِّبات. فجأةً، ومن دون سابق إنذار، أخذ كلّ شيء يهتزّ، وانبعثت ضجَّة هائلة من الأعماق. انفصلت اللوحات عن الجدران وسقطت أرضًا مع قرقعة. والتحف المركونة فوق الرفوف تصادمت قبل أن تسقط بدورها. وتشقَّقت الأرض وتصدَّعت إلى آلاف التشقُّقات العميقة. كأنَّ أفاعيَ عملاقة تتلوَّى تحت الخرسانة الإسمنتيَّة. تبادل الجميع النظرات مذهولين، ولم يستولِ الرعب عليهم بعد. ثم صرخ صوتٌ:

ـ زلزال. إنَّه زلزال.

وتلا ذلك ثوانٍ مديدة، راحت خلالها شقوق الأرض تتزايد وتتعرَّج وتتعمَّق، وصيحات مدوِّية تأتي من الخارج. ثم، هدأ كلّ شيء فجأةً كما بدأ، وساد صمتٌ مطبق.

وهو يضمّ أناييس إلى صدره بقوَّة، اتَّجه باباكار يتبعه فؤاد نحو بابٍ مشرَّعٍ فتحته يدٌ خفيَّة. انهار برج المراقبة، لكنَّ المدرَّجات بدت سليمة. وعلى بوَّابة الإقلاع والهبوط، انقلبت عربات الأمتعة رأسًا على عقب. تبعثرت الحقائب هنا وهناك، انشقَّت وتناثر حصاد الملابس فوق الإسفلت. وفي الجوار، تهدَّمت الأبنية المختلفة. واستحال كلّ شيء إلى أنقاضٍ وغبار.

ـ يجب أن نودِّع بعضنا، همس باباكار في أذن فؤاد، بصوتٍ مخنوق. أنا طبيب ولم يعد بوسعي المغادرة. سيكون هذا بمثابة التواني عن تقديم مساعدةٍ لشخصٍ في خطر.

لكنَّه حين اقترب منه ليعانقه وقد اغرورقت عيناه بالدموع رغمًا عنه، دفعه فؤاد بمحبَّة:

ـ أنت مجنون! هل تظنّ أنَّني سأتركك وحدك هنا؟ ما بيننا، يجمعنا في الحياة والممات.

أخذ أناييس، ووضعها بحزم على كتفيْه. وبالخطى ذاتها، تفاديا ما أمكنهما الأنقاض، وشقّا طريقًا نحو مخرج المطار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

tصميم الغلاف: نجاح طاهر

telegram @soramnqraa

يعيش الطبيب باباكار وحيدًا مع ذكرياته:
طفولة أفريقيَّة، وأمّ ذات عينيْن زرقاوين تزوره في أحلامه،
وحبّ قديم لـ أزيليا التي اختفت هي الأخرى.
لكنَّ القدر وضع في دربه طفلةً وحيدةً مثله، فقدتْ أُمّها
عند الولادة، فيَعِدُها باباكار بمستقبل أفضل، ويأخذها إلى
جزيرة هاييتي، التي مزّقها العنفُ والحكوماتُ الفاسدة
والعصاباتُ المسلَّحة، لكنّها تبقى مع ذلك جزيرة فاتنة
خلّابة.

وسيتعرَّف باباكار إلى فؤاد الفلسطينيّ، وموفار الهاييتي،
ويُكمِلون ثلاثتهم الطريقَ معًا، سعيًا وراء حياة أقلّ تشتُّتًا
وعُزلةً.

ماريز كوندي: كاتبة من جزر غوادولوب، تُعتبر من أهمّ
كتّاب اللغة الفرنسيَّة على قيد الحياة. تُرجمتْ أعمالُها إلى
معظم اللغات. كما حازت العديدَ من الأوسمة التقديريَّة
والجوائز الأدبيَّة، آخرُها جائزة نوبل البديلة سنة 2018. صدر
لها عن دار الآداب: «أنا تيتوبا، ساحرة سالم السوداء».

ISBN: 978-9953-89-698-4
9 789953 896984

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:+9611861633-795135